

دراسة في نتائج الشرق القديم

مصر والعراق - سوريا - اليمن - إيران
مختارات من الوثائق التاريخية

تأليف

أحمد فخرى

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

(مريضة ومجددة)

ملشزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع صديقه فريله (عمارة التبره مطا)

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله والحمد لله وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، فقد نفذت منذ شهور نسخ الطبعة الأولى ، وليست هذه الطبعة صورة مما كانت قبلها ، وإنما تختلف عنها بالحذف والإضافة والتعديل ، وإن كانت بعض الفصول ظلت كما هي تقريباً ،

لقد مضت خمس سنوات تقريباً على ظهور الطبعة الأولى ، زادت فيها معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم ، وصدرت بعض المؤلفات الجديدة ، ولهذا كان من الضروري إدخال بعض التعديلات في مواضع كثيرة ، وإن كان الكتاب قد احتفظ بشكل عام بموضوعاته الأصلية ، وهو المقارنة بين سير حوادث التاريخ في كل من مصر والعراق ، ثم مختصر تاريخ كل من سوريا واليمن .

وكان آخر فصل من فصول الطبعة الأولى خاصاً بإيران في أقدم العصور ، ولكنني أضفت في هذه الطبعة فصلاً خاصاً بالآخمينيين ، أي ابتديت بتاريخ إيران حتى ظهور الإسكندر الأكبر ، كما أضفت في آخر الكتاب فصلاً خاصاً ترجمت فيه ترجمة حرفية دقيقة بعض الوثائق التاريخية الهامة ، ليقف القارئ على تلك الوثائق بأسلوب كاتبها وتفكيرهم ، ومن بينها وثائق أكديّة وأشورية وحيثيّة ، تتناول الصلة بين بلاد الشرق القديم في بعض العهود .

ولاني أرجو أن تسد هذه الطبعة شيئاً من الفراغ حتى يتيسر لي بمشيئة الله تحقيق رغبة قوية في نفسي ، وهي الانتهاء من مؤلف مفصل عن حضارات الشرق القديم ، بدأت منذ عامين ولكنه ما زال يحتاج إلى عدة أعوام أخرى .

إن دراسة حضارات الشرق القديم من أهم الدراسات التي تساعد على تثقيف جميع الطلبة بوجه عام ، لا طلبة التاريخ فحسب ، أو طلبة كليات الآداب بوجه

عام ، وإنما جميع طلبة الجامعات ، فهم جميعاً في حاجة إلى الثقافة العامة ، وليس هناك ما هو أهم من معرفة نشأة الحضارات وتطورها ، وكانت بلاد الشرق القديم أهم الميادين التي حدث فيها ذلك التطور .

لقد سبقتنا الجامعات الأجنبية كثيراً في اهتمامها بدراسة حضارات الشرق وجعلتها مادة أساسية في جميع الجامعات المهتمة بالدراسات الإنسانية ، ولكن جامعاتنا مع الأسف الشديد لا تكاد تلقى نظرة لإيها ، وقصرت دراستها على فصل دراسي واحد ، أي لمدة أسابيع قليلة ، وفي أقسام قليلة من أقسام كليات الآداب ، ولا حاجة إلى القول بأن ذلك لا يمكن أن يقال عنه أنه كاف ، أو أنه يفيد الفائدة المرجوة .

إن دراسة حضارات الشرق القديم يجب أن تكون من المواد الأساسية في جميع المعاهد والجامعات بالبلاد العربية ، لأن تلك الحضارات كلها وما خلفته من آثار ، إنما هي تراث مشترك بينها جميعاً ، ويحسن بالطلبة أن يبدأوا بدراستها دراسة إجمالية ، ثم يتعمق طلبة كل إقليم في دراسة حضارة إقليمهم بالتفصيل إذا أرادوا المزيد ، وأرجو أن يتحقق ذلك إن شاء الله .

والله سبحانه وأعلى ولي التوفيق .

القاهرة في يوم ١٠ من سبتمبر ١٩٦٣

أحمد نخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

ليست هذه الفصول سرداً لتاريخ الحضارات في الشرق الأدنى القديم ، وليست تاريخاً أو تحليلاً لبعض النواحي الحضارية فيه أو في بعض بلاد ، ولكنها عرض لبعض نواحي الموضوع ، وتقديم بعض الآراء والمعلومات التي أظهرتها البحوث الحديثة ولا شيء أكثر من ذلك . وسيكون أول الفصول عرضاً عاماً لنشأة الحضارات ومراكز الحضارات القديمة في بلاد الشرق ، وسيتناول الفصل الثاني بعض المقارنات بين حضارتى مصر وبلاد ما بين النهرين وسير الحضارة في كل منهما وأثرها على غيرها من بلاد الشرق ، أما الفصلان الثالث والرابع فسيكونان عن سوريا بمحدودها التاريخية وتشمل الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة . والفصلان الخامس والسادس سيكونان عن اليمن ، وذلك لحاجتنا في الوقت الحاضر إلى معرفة شيء عن أثر كل من هذين الإقليمين على حضارة الشرق وعلى مدنيت العالم .

ولمضى أول من يعرف أن تقسيم فصول الكتاب على هذا الأساس سوف لا يترك وقتاً أو مجالاً للحديث بالتفصيل عن حضارات مصر والعراق وإيران والأناضول وغيرها من بلاد الشرق القديم ، ولكن يعزينا عن ذلك أن حضارات هذه البلاد معروفة في مدارسنا أكثر من حضارتى سوريا واليمن ، وتحتم علينا ظروفنا الحالية بعد انضمام هذين الإقليمين إلى مصر وتكوينهما اتحاداً واحداً أن نعرف بعض التفاصيل القليلة عن كل منهما ومدى ما قدمه أبنائهم إلى حضارة العالم ومجهود كل منهما في تشييد صرح المدنية الإنسانية .

وهناك نقطة هامة أحب توضيحها . فالمتعارف عليه بين المؤرخين هو انتهاء التاريخ القديم عند ظهور الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد ،

وسألتزم ذلك من ناحية المبدأ فإذا أشرت من قريب أو بعيد إلى عصور أو حوادث جرت في أيام اليونان أو الرومان أو عندما انتشرت المسيحية أو الإسلام فلن يكون ذلك إلا عرضاً أو للمقارنة فقط ، اللهم إلا فيما يتعلق بإقليم واحد وهو اليمن فإني سأتحدث عن تاريخه منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام لأن طبيعة دراسة تاريخه وحضارته تحتان ذلك .

ويكاد يكون هذان الفصلان عن اليمن صورة من بعض ما نشرته في الجزء التاريخي في كتابي د اليمن — ماضيها وحاضرها ، الذي نشر بالقاهرة في العام الماضي ، ولكنني أضفت إليه بعض المراجع الحديثة وأدخلت عليه بعض التعديلات .

وإني إذ أقدم اليوم هذه الدراسات عن بعض النواحي في تاريخ الشرق القديم أرجو أن أكون قد قمت ببعض الواجب على .

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق ،

القاهرة في يوم ٨ جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ ١٩ نوفمبر ١٩٥٨ م

أحمد فخري

موضوعات الكتاب

صفحة

٣

٥

مقدمة الطبعة الثانية

مقدمة الطبعة الأولى

الفصل الأول

أقدم الحضارات في بلاد الشرق القديم : ١١-٢٤

- أصل الحضارة ونشأتها ١١ — عصور ما قبل التاريخ ١٢ —
- حدود بلاد الشرق القديم ١٧ — سيالك في شمال إيران ٢٠ —
- تل حسوثة في شمال العراق ٢٠ — الجديدة في شمال سوريا ٢١ —
- الفيوم ٢١ — مرمدة ٢١ — جارمو في جبال الأكراد في
- العراق ٢١ — حضارات أخرى ٢٢

الفصل الثاني

مصر والعراق وأثرهما في الشرق القديم : ٢٥-٥١

- تمهيد ٢٥ — بين حضارتى مصر والعراق ٢٨ — حورابى
- وقانونه ٣٤ — قانون حورابى ٣٥ — الكاسيون في العراق
- والهكسوس في مصر ٤١ — الامبراطورية المصرية ٤٢ —
- الامبراطورية الآشورية ٤٦ — القرن السابع قبل الميلاد ٤٧ —
- الفرس واليونان ٤٨

الفصل الثالث

سوريا : ٥٢-١٢٢

- موقعها الجغرافى ٥٢ — عصر ما قبل التاريخ ٥٦ — أقدم

الصلات بين مصر وسوريا ٦١ — سوريا في الألف الثالث
 قبل الميلاد ٦٤ — سنوهى في سوريا ٦٧ — سوريا في أوائل
 الألف الثاني قبل الميلاد ٧٠ — حفائرى ماري ٧٣ —
 حفائرو رأس الشمرة ٧٥ — رسائل تل العمارنة ٧٧ — سوريا
 في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ٨٥ — الحيثيون ٨٧ —
 سوريا في الألف الأول قبل الميلاد ٩٠ — قصص قصة
 «ونأمون»، ٩١ — ضعف الإمبراطورية الثلاثية وازدهار
 بعض الدول السورية ١٠١ — الآراميون ١٠٢ —
 الفينيقيون ١٠٧ — المستعمرات الفينيقية ١١٣ — بعض
 مظاهر الحضارة الفينيقية ١١٦ — الحروف الهجائية
 الفينيقية ١١٧ — فضل الفينيقيين في نشر الحضارة ١١٨

الفصل الرابع

اليمن : (مختصر تاريخ اليمن منذ أقدم العصور حتى تاريخ ظهور
 الإسلام)

١٢٣ — ١٤٥

عصر ما قبل التاريخ ١٢٣ — أقدم الحضارات في بلاد
 العرب ١٢٤ — أقدم التواريخ المعروفة ١٢٥ — المسيحية
 واليهودية في بلاد العرب ١٢٨ — ديانا بلاد العرب ١٢٩ —
 أقدم العلاقات بين اليمن والحضارات القديمة ١٣١ — الطرق
 التجارية ١٣٢ — أقدم العلاقات بين اليمن وبلاد الرافدين
 ١٣٣ — أقدم العلاقات بين مصر واليمن ١٣٤ — بلاد
 بونت ١٣٧ — أقدم العلاقات بين اليمن وبين اليونان ١٤٠ —
 اليمن والحبشة ١٤٢ — القبائل اليمنية ١٤٤

الفصل الخامس

مأرب وآثارها : ١٤٦ - ١٨٨

أهم الرحالة الذين زاروا بلاد العرب ١٤٦ - أهم الرحالة الذين
زاروا اليمن ١٤٨ - كارسن نيدور ١٤٨ - جوزيف
توما أرنو ١٥٠ - جوزيف هاليني ١٥٠ - إدوارد
جلازر ١٥٣ - الأبحاث الأثرية في اليمن بعد استقلالها ١٥٥ -
نزيه مؤيد العظم (١٩٣٦) ١٥٥ - بعثة الجامعة المصرية إلى
اليمن (١٩٣٦) ١٥٦ - محمد توفيق (١٩٤٥) ١٥٦ - رحلة
المؤلف إلى اليمن (١٩٤٧) ١٥٧ - بعثة وتديل فيليبس إلى
اليمن (١٩٥٢) ١٥٧ - بعثة جامعة الدول العربية ١٥٨ -
في اليمن مرة أخرى ١٥٨ - أهم المناطق الأثرية في صرواح
ومأرب ١٥٩ - صرواح ١٥٩ - أهم النقوش في صرواح
١٦٢ - نقش النصر ١٦٣ - آثار مدينة مأرب ١٦٥ -
مدينة مأرب ١٦٥ - محرم بلقيس والمناطق الأثرية الأخرى
١٧٠ - العمائد ١٧٢ - محرم بلقيس ١٧٢ - سد مأرب
١٧٥ - وصف السد ١٨٠ - البوابة اليمنى ١٨١ - البوابة
اليسرى ١٨٢ - مأرب في آخر أيامها ١٨٥ .

الفصل السادس

إيران منذ أقدم العصور حتى ظهور الإخمينيين : ١٨٩ - ٢٣٥

هضبة إيران ١٨٩ - الزراعة في سيالك ١٩٠ - إيران قبل
عام ٣٠٠٠ ق.م ١٩٤ - الألف الثالث قبل الميلاد ١٩٧ -
الألف الثاني قبل الميلاد وهجرات الشعوب الهندو - أوروبية
٢٠٠ - عيلام والكاسيون في إيران ٢٠٤ - إيران في

صفحة

الآلاف الأول قبل الميلاد ٢٠٧ - الكيسريون والإسكيديون
٢١٠ - الميديون ٢١٣ - الصدام بين الميديين والفرس
٢١٤ .

الفصل السابع

الإخمينيون : ٢١٦ - ٢٣٥

دارا الأول ٢١٩ - اكركسيس الأول (اخشويرش ٤٨٦ -
٤٨٥ ق.م) ٢٢٠ - خلفاء اخشويرش (٤٦٥ - ٣٣١ ق.م)
٢٢٢ - نظرة عامة في حضارة الفرس الاخمينيين ٢٢٥ -
تنظيم الامبراطورية ٢٢٦ - الديانة ٢٣٠ - القانون
٢٣٢ - الفن ٢٣٣ .

الفصل الثامن

مختارات من الوثائق التاريخية : ٢٢٦ - ٢٥٢

من وثائق التاريخ القديم ٢٢٦ - من وثائق التاريخ المصري
القديم : من وثائق حملات تحتمس الثالث على غربى آسيا
٢٣٧ - بعض رسائل تل الهانة ٢٤١ - رسالة رقم (EA
٢٨٦) ٢٤٢ - رسالة رقم (EA ٢٨٨) ٢٤٣ - رسالة رقم
(EA ٢٩٠) ٢٤٤ - من وثائق بلاد النهرين ٢٤٥ - من
عهد سرجون الثانى (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) ٢٤٦ - من عهد سنخريب
(٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) ٢٤٧ - من عهد أسرحدون - حملته
ضد العرب (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) ٢٤٧ - من عهد أسرحدون -
حملته على مصر ٢٤٨ - من وثائق تاريخ الحيثيين ٢٤٩ .

صور فوتوغرافية : ٢٥٣ - ٢٧٠

فهارس : ٢٧١ -

الفصل الأول

أقدم الحضارات في بلاد الشرق القديم

أصل الحضارة ونشأتها :

أخذ الإنسان يتدرج في الحضارة منذ زمن بعيد ، وأخذ ينتقل خطوة بعد أخرى حتى وصل إلى تحقيق كثير من الاختراعات التي ساعدته على توفير الراحة والأمن لنفسه ، وممكنته أيضا من التغلب على كثير من الصعوبات ، بل والأخطار التي كانت تهدد به في حياته البدائية الأولى .

وليس قصة أصل الحضارة الإنسانية ، ثم مولدها وتطورها ، إلا سلسلة متعاقبة ، بدأت في هذا الجزء من العالم الذي اصطلح العلماء على تسميته باسم بلاد الشرق الأدنى . فإن اعتدال الجو ، وملاءمة مناطقه المختلفة لحياة الاستقرار ، مكنت الناس من الوصول إلى بعض أسباب التقدم وجعلتهم يتقدمون في بعض مراحل الثقافة ، وبالأخص عندما خلف الإنسان وراءه حياته كجامع للغذاء ، وأصبح منتجا له ، وأخذت تستقر جماعات منه على مقربة من موارد المياه يزرعون الأرض ويستأنسون ببعض الحيوان^(١) .

ولكن هذا الإنسان لم يقف عند ذلك الحد بل أخذ يفكر في تسخير بعض قوى الطبيعة لراحته ورفاهيته ، ثم وجدت غريزة الحرص والاستزادة سبيلها إلى نفسه ، فبدأ صراعه مع غيره من جيرانه ، فكان ذلك أيضا عاملا جديدا في تقدمه .

V. Gordon Childe, *New Light on the Most Ancient East* (4 th (١) edition, 1952) p. 31 ff.

وبالرغم من أن هذا البحث لا يتعرض لأصل حضارات الشرق بل يعنى فقط بنشأتها وتطور بعضها ، فإنه يجدر بنا أن نشير إشارة عابرة إلى ما مر على الأرض من دهور جيولوجية قبل أن نصل إلى العصر النيوليتى الذى أخذ فيه الإنسان يتقدم بخطى سريعة نحو المدنية .

عصور ما قبل التاريخ :

يقسم علماء الجيولوجيا سطح الأرض إلى أربعة دهور كان آخرها هو الدهر الرابع الذى يسمى الجزء الأقدم فيه بالحقبه البليستوسينية ، ونرى الطبقات الباليوليتيه (أى العصر الحجري القديم) فى الطبقات البليستوسينية فى جميع البلاد الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط . وبعبارة أخرى يتفق العصر الحجري القديم مع بعض فترات العصر الجليدى الأعظم ، ذلك العصر الذى بدأت تظهر فيه أقدم الأدوات الظرائية (المصنوعة من حجر الصوان) التى استخدمها الإنسان فى حياته .

ويتقسم العصر الباليوليتى إلى عدة حقب مثل الشلى والأشيولى والفقضى (وتعاصره الحقبه السيليلية فى مصر) ، ثم تلى العصر الباليوليتى فترة ، تسمى بالعصر الميزوليتى (أى الحجري المتوسط) ، وأخيرا جاء العصر النيوليتى الذى تطورت فيه الحضارة الإنسانية تطورا سريعا ثم تلاه العصر التاريخى (١) .

وكثيرا ما يتساءل الناس عن بدء ظهور الإنسان على الأرض ، وقد اختلفت التقديرات عند الإجابة على هذا السؤال واسكر الرأى الأرجح و أن الإنسان ظهر على الأرض منذ أكثر من نصف مليون سنة ، وقد عثر على أقدم البقايا الإنسانية التى تثبت وجود ذلك الإنسان ، وإلى حد كبير تعطينا شكل

(١) عرض الدكتور بريد وود تاريخ الإنسان فى عصر ما قبل التاريخ عرضاً مبسطاً فى كتابه Robert J. Braidwood, *Prehistoric Times* (2nd edition, 1951) . ويمكن الرجوع إليه .

جمجمته وقابته ، فى جاوة ثم فى الصين على مقربة من بكين ، وفى جنوب شرق إفريقيا وربما فى شمال إفريقيا ، وأخيراً فى هيدلبرج فى ألمانيا . ولم يوجد حتى الآن فى بلد من بلاد الشرق القديم ابتداء من الهند شرقاً حتى مصر أى بقايا إنسانية للإنسان الذى سكن تلك المناطق ويمكننا أن نقول عنه أنه كان معاصراً لإنسان بكين أو جاوة أو هيدلبرج .

والواقع أن لخص جماجم تلك البقايا من الهياكل العظمية ، وكذلك إنسان النياندرتال الذى يقل عنها فى القدم ، قد أثبت أنها تختلف اختلافاً كبيراً عن إنسان العصر الحديث . أما أقرب الأنواع إلى شكل الإنسان الحديث ، كما نعرفه ، فقد عثر عليه فى مناطق متعددة فى أوروبا ، وبخاصة فى ألمانيا وفرنسا ، والنرويج الآخر عثر عليه فى فلسطين وكان يعيش فى كهوف جبل الكرمل فى وقت معاصر — على الأرجح — للوقت الذى كان يعيش فيه إنسان النياندرتال فى أوروبا . وأقدم جمجمة إنسانية ، عثر عليها حتى الآن ، كانت فى فلسطين وجدها الباحثون فى مغارة الطابون ، وهى من العصر الموستيرى ، كما عثر حديثاً فى العراق على هيكلين إنسانيين من هذا العصر (فى مغارة شانيدر ٥٠,٠٠٠ — ٦٠,٠٠٠ سنة)^(١) . وكان ذلك الإنسان الذى عثر عليه فى فلسطين قريب الشبه من إنسان النياندرتال ، كان قصير القامة ملىء الجسم ، وينحني قليلاً إلى الأمام عند سيره ، ويمتاز عن إنسان النياندرتال بأن جمجمته أكبر حجماً وذقنه أعرض . وقد اتفق الباحثون على أن الإنسان الذى عاش على مقربة من كهف الطابون فى جبل الكرمل بفلسطين كان حلقة بين الإنسان البدائى والإنسان الحالى ، خصوصاً وأنه يمكن مقارنة هذا الإنسان أيضاً من الناحية التشريحية بما نسميه الآن الإنسان العاقل .

وإذا أردنا تحديد العصر الذى انتشر فيه كل من إنسان النياندرتال والكرمل على سطح الأرض ، فإنه لا يمكن أن يجرؤ باحث على تحديد وقت معين ولكنه

(١) رالف سوليكي — هيكلان عظميان لإنسان النياندرتال من كهف شانيدر بمغارة سومر العدد ١٣ (بنسداد ١٩٥٧) ص ٩٧ — ١٠٠ .

كان منذ ١٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل ، أما الإنسان الحال فإنه لم يظهر إلا بعد ٥٠,٠٠٠ سنة قبل الآن^(١) .

ولترك الآن تلك العصور المبكرة جانبا ، ونبدأ محاولتنا معرفة ما كانت عليه بلاد الشرق القديم بعد الوقت الذي أخذ يتراجع فيه الجليد نحو الشمال . لقد مر على تلك المنطقة الكبيرة من العالم عصر طويل كانت تهطل فيه الأمطار بكثرة ، فكانت الحشائش تغطي صحاراه الواسعة . وتجمعت مياه الأمطار في كثير من منخفضات تلك الصحارى فجعلت منها بحيرات ، كما كانت تلك الوديان الكثيرة المنتشرة في الصحارى مجارى أنهار تصب في البحيرات أو في البحار أو في أنهار أخرى .

ولم يكن نهر النيل يصل إلى البحر الأبيض المتوسط في المكان الذي يصل إليه الآن ، وإنما كان يصب في جون أو خليج كبير ، كانت نهايته الجنوبية على مقربة من موقع القاهرة الحالية . ثم أخذ النيل يملأ هذا الجون بالطمي والرواسب المختلفة التي تحملها مياهه فكون على مر بضعة آلاف من السنين دلتاه الحالية . ولم تتكون الدلتا بطبيعة الحال وتصبح أراضي صالحة للزراعة إلا بعد وقت طويل ، لأنها كانت في البداية مملأة بالمستنقعات والجزر . ولم يكن مجرى النيل أيضاً في مستواه الحال بل كان أعلى من ذلك بكثير ويملا ما بين الهضبتين الشرقية والغربية في الصعيد ، ثم أخذ يعمق مجراه وينزل من مدرج إلى مدرج حتى أصبح قريباً مما هو عليه الآن ، قبل أن تدخل مصر في عصرها التاريخي^(٢) .

(١) Theodore D. Mc. Cown and Arthur Keith, *The Stone Age of Mount Carmel*, Vol. 11. (Oxford, 1939), Chapter 2; Ernest Hooton, *Up from Ape* (New York, 1936), pp. 336-9.

(٢) اقرأ أيضاً ما كتبه عن ذلك بريدوود في كتابه السابق ذكره وخامسة من صفحة ٢١ إلى ٢٨ ، ومنذ ٢٠,٠٠٠ سنة كان الإنسان قد أخذ ينقسم إلى أنواع مختلفة لشكلها وميزاتها وهي الأسود والأبيض والقوقازي والأصفر ، وربما الأسترالي . وأن بعضهم قد وصل إلى القارة الأمريكية قبل ٢٠,٠٠٠ سنة من الآن ، عن طريق سيبيريا والاسكا .

وكان يحدث في العراق في تلك الفترة شيء شبيه بما كان يحدث في وادي النيل . فقد كان نهرا الدجلة والفرات يصبان في الخليج العربي في مكان بعيد إلى الشمال من الشاطئ الحالي . وأخذ الجزء الأعلى من ذلك الخليج يمتلئ بالطمي ويكون أرضاً ملاءى بالمستنقعات والجُزر كما حدث في دلتا النيل في مصر ، وأخذت تلك المناطق تتحول إلى أرض صلبة مع تقدم الأيام وما زالت إلى اليوم تتقدم نحو الجنوب من عام إلى عام .

حدث ذلك أيضاً في دلتا نهر السند حيث أخذت إحدى حضارات بلاد الشرق القديم تنمو وتتطور . كما ساعدت الأمطار الغزيرة على تكوين غابات وأحراش وبحيرات في مناطق هدة في بلاد الشرق ، وكان وجودها سبباً في تمكين بعض الجماعات من العيش على مقربة منها وبخاصة عند الموارد الثابتة للبياء ، مثل البحيرات العذبة التي كانت تغذيها الأمطار الكثيرة . ثم أخذت الأمطار الغزيرة تقل تدريجياً ، وجاءت فترة من الجفاف عمّت تلك المنطقة ، منطقة الشرق الأدنى ، فكانت تلك الفترة سبباً مباشراً في تطور حياة الإنسان .

كان الإنسان يعيش على الصيد ، وما يجده في الغابة أو في الأحراش من نبات يقتات به ، وإذا كان هناك ما يعكر عليه صفوه فهو وجود بعض الحيوانات المفترسة أو الزواحف التي كان يبذل جهده لحماية نفسه من أذاها ، والتغلب عليها إذا اضطر لمواجهتها . أما الحياة ذاتها فقد كانت سهلة لأن حرارة الجو سهلت له معضلة ضرورة إقامة مسكن يلجأ إليه ، لأنه لم يتعرض لقسوة البرد ، وكان يكفيه أن يتدثر بجلود ما يصطاد من حيوانات إذا ما جاء فصل الشتاء . كما أن حياة البداوة التي كان يعيشها ، واضطراره لمتابعة وملاحقة فريسته ، لم تشجعه على التفكير في الاستقرار في مكان ثابت دائم له ولعائلته .

وما هي إلا دورة من دورات الزمن حتى أخذت الغابات تجف ثم تزول ، وأخذت الأنهار تتحول إلى وديان جافة ، كما بدأت البحيرات الصغيرة تجف أيضاً فلبأت الجماعات التي كانت تعيش على مقربة منها في البحث عن مصادر ثابتة للبياء ،

سواء على مقربة من البحيرات الكبيرة أو على مقربة من الأنهار التي استمرت في جريانها . حدث ذلك حوالي عام ١٢٠٠٠ ق.م. على الأقل ، ومنذ هذا التاريخ يعطينا تتبع مراحل وجود الإنسان الذي اضطرته الظروف الطبيعية لبذل الكثير من الجهد ليلتزم نفسه مع البيئة والأحوال الجديدة .

لم تصبح حياته سهلة كما كانت من قبل ، إذ كانت المستنقعات والأحراش والغابات القريبة من النهر ملأى بالزواحف والحيوانات الضارية التي لجأت هي الأخرى إليها فراراً من الهلاك . فأخذ الإنسان يخافها أكثر من ذي قبل ، وأخذ ذهنه يتفتق عن حيل جديدة وأدوات جديدة تساعد في التغلب عليها والدفاع عن نفسه عند الحاجة .

وبعد وقت آخر ، أخذ الإنسان في محاولة استئناس بعض الحيوانات لأنه لم يعد يكفيه ما يحصل عليه من الصيد ، ونجح في استئناس بعضها وبخاصة ما كانت لحومها وألبانها وجلودها وأصوافها ذات نفع له . وفي هذه الفترة أيضاً اكتشف الإنسان ما هو أهم من استئناس الحيوان ، وهو اكتشافه للزراعة ، وكان ذلك في العصر التالي للعصر الحجري القديم .

ومهما حاولنا فليس في الاستطاعة أن نعرف أيهما حدث قبل الآخر . فهل بدأ الإنسان في استئناس الحيوان بعد اكتشافه للزراعة واستقراره في بقعة من الأرض لحاجته إليها في زراعته وقوته ، أم أنه استأنس الحيوان عندما كان يعيش على الصيد ، ولم يصبح زارعاً إلا بعد أن مرت عليه فترة من الزمن كان يعيش فيها حياة الرعاة ؟

وربما نجح الباحثون في الإجابة على هذا السؤال في مستقبل الأيام ، أما الآن ، وفي ضوء ما لدينا من معلومات ، فإن أقدم ما وصل إلينا أيدينا من معلومات من أكثر أرجاء بلاد الشرق عن آثار الجماعات التي عثر على بقايا مساكن لها ، يداننا على أن تلك الجماعات كانت تمارس الزراعة وتستأنس الحيوانات في وقت واحد ، كما أنها كانت في الوقت ذاته تعتمد أيضاً على الصيد ، ولم تترك نهائياً كأحد موارد غذائها .

كان انتقال الإنسان من مرحلة جمع الغذاء إلى مرحلة إنتاجه بدءاً بتطور حياته وتقدمها على ظهر الأرض . وما زال الباحثون في حيرة من أمرهم لا يستطيعون تحديد المكان الذي بدأت فيه تلك التطورات قبل غيره من الأمكنة ، أو يعرفوا الجنس الذي سبق غيره في مراحل التقدم ، أو الزمن الذي تم فيه ذلك على وجه التحديد ، لأن أقدم المراكز والمحلات النيوليتية (العصر الحجري الحديث) التي عُثر عليها حتى الآن لم تساعد على حل تلك المعضلات ، إذ أن ما خلفه الإنسان في أي واحدة منها يثبت قدم عهد سكانها بالزراعة ومرور أجيال طويلة عليهم كمنتمجين للغذاء . ولكن إذا قارناها ببعضها نستطيع أن نقول أنه من المرجح جداً أن تكون أقدمها جميعاً هي تلك الحضارة التي عُثر عليها في فلسطين ويطلق عليها علماء الآثار اسم الحضارة الناطوفية .

حدود بلاد الشرق القديم :

ولكن ما هو المقصود من كلمة الشرق القديم وما هي حدوده الجغرافية ، وأي البلاد والأمم تنطوي الآن أو انطوت في العصور القديمة تحت لوائه .

ففي رأي بعض الباحثين أن المقصود بذلك هي بلاد الشرق الأدنى فقط أي مصر وبلاد الشام وبلاد العرب والعراق . ويزداد البعض الآخر عليها بلاد الأناضول وإيران ، وبالغ غيرهم فاعتبر حضارات الشرق القديم شاملة لجميع البلاد السالفة الذكر ويزيد عليها حضارات الشرق الأقصى وبخاصة الصين والهند .

ولكن إذا دققنا في التفكير ، ووضعنا في أذهاننا صلة تلك الحضارات ببعضها البعض وأثر كل واحدة منها على الأخرى ، ونظرنا إلى خريطة هذا الجزء من العالم وتبعنا الطرق والدروب والمسالك التي سارت فيها التجارة ، وعليها انتقلت أيضاً الثقافة ، فإننا نجد أن كلا من النظريات الثلاثة في تحديد بلاد الشرق في حاجة إلى شيء من التعديل . كما أننا لا يمكن أن نقصر فقط على المنطقة التي سماها المؤرخ « برستد » باسم الهلال الخصيب ، وهي المنطقة الخصبة التي تشبه الهلال

ويرتكز طرفها الأيسر في دلتا النيل وطرفها الأيمن في دلتا نهري دجلة والفرات
وتواجهه منتصفها شبه الجزيرة العربية .

فبلاد الشرق القديم ، في رأى الكثيرين ، تشمل دون شك جميع بلاد الهلال
الخصيب ولكنها يجب أيضا أن تشمل ما يتصل بها من حضارات مثل الحضارة
الحثية (الأناضول) ، وبلاد الجزيرة العربية . ولكننا إذا رجعنا إلى حوادث
التاريخ ودرسنا أقدم الحضارات وبخاصة ما ازدهر منها قبل عام ٢٠٠٠ ق م .
نرى أن حضارة وادي السند (الباكستان الغربية) كانت وطيدة الصلة بحضارة
العراق القديم ، وكانت الصلات التجارية وبخاصة عن طريق البحر ، قديمة العهد
بينهما . وإذا كانت تلك الحضارة قد اتصلت بالجناح الشرقى من الهلال الخصيب ،
فإن هناك حضارة أخرى لم تكن بمنزل عن حضارات الجناح الغربى من هذا
الهلال ، وهى حضارة جزر بحر إيجة التى كانت شديدة الصلة بسوريا والأناضول
في جميع عصور التاريخ ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى شمال إفريقيا التى لم تفقد
صلتها بوادي النيل في أى زمن من الأزمان .

وهناك أيضا حضارة الصين ، ولكن لم يبق حتى الآن دليل مقنع واحد على
اعتبارها فرعا من دوحه حضارات الشرق الأدنى ، بل هى حضارة قائمة بذاتها .
كما أنه لا يمكننا أن نعتبر الحضارة الإيجية ، رغم كونها إحدى الحضارات
الرئيسية في البحر الأبيض المتوسط ، وكانت ذات صلة مباشرة وثيقة بحضارات
شمالى سوريا والأناضول من بين حضارات الشرق القديم ، وعلى ذلك يمكننا
تحديد أقدم مراكز الحضارات الهامة في الشرق كالاتى :

١ — وادي النيل — وهى حضارة لا تقتصر على حدود مصر الجغرافية
بل تتعداها غربا إلى جزء كبير من شمال إفريقيا وجنوبا حتى سنار في السودان ،

٢ — بلاد العراق ، أو وادي الرافدين ، أو بلاد ما بين النهرين — بما فيها
حضارات سومر وأكد وبابل وأشور ، وغيرها التى ظهرت إلى الشمال منها ، مثل
الجوتيين والأكاسيين والخرين والميتانيين .

٣ — بلاد الشام أو سوريا — بحاردها الطبيعية ، بل والتاريخية ، وتمتد من صحراء العراق حتى البحر الأبيض ومن جبال طرروس في الشمال حتى شبه جزيرة سيناء في الجنوب .

٤ — خيتا — أى بلاد الأناضول .

٥ — إيران .

٦ — الجزيرة العربية — وتشمل ما كان فيها من حضارات ما قبل الإسلام مثل حضارات السبأيين والمعينيين والحيريين في اليمن ، والثموديين واللحيانيين في شمالي الجزيرة .

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على خرائط تلك المنطقة التي يوضح معالمها ، لرأينا أنها تختلف اختلافاً كبيراً في طبيعة أراضيها . فمنها ما يعتمد اعتماداً كاملاً على الأنهار مثل مصر والعراق ، ومنها ما هو جبلي ، ولكن تكثر فيها أيضاً أرض الحشائش . وتتخلل بعضها الصحارى الواسعة التي تكاد تنعدم فيها مقومات الحياة ، بينما تعتمد بعض تلك المناطق على ما يسقط فيها من أمطار ، كما نرى أيضاً أن بعضها يعتمد على البحر في رفاهيته ومقومات حياته .

وما زال بعض الكتاب يرددون النظرية القديمة التي كانت تقول بأن الحضارات لا تنشأ إلا في البلاد المعتدلة الجو وعند دلتا الأنهار ، مثل مصر والعراق والبنجاب (وادى السند) ، والنهر الأصفر (الهوانج هو) ونهر اليانجسى في الصين ، ولكن الحقيقة غير ذلك . فقد نشأت حضارات أخرى بعيداً عن دلتا الأنهار إذ يكفي مورد ثابت للياه ، ولو كان بحيرة من البحيرات الداخلية الكبيرة ، ليمهد لظهور الحضارة في أى منطقة متى اكتملت لها المقومات الأخرى للحضارة .

وقبل أن أترك هذه النقطة إلى غيرها أحب أن أنبه القارىء إلى أن ظهور نوع من الحضارة بين جماعة من الجماعات شيء ، وازدهار تلك الحضارة وانتشارها وأثرها على غيرها شيء آخر . فسرى أنه قد ظهرت مراكز متعددة للحضارة

في بلاد الشرق القديم ، ولكن لم يزدهر فيها وينمو ويصبح ذا أثر فعال في ذلك الوقت المبكر من تاريخ العالم مثل ما ازدهرت الحضارة في مصر والعراق . كانت كل منهما مركزاً ثقافياً كبيراً أثر على ما جاوره من البلاد ، خصوصاً وأن الصلات التجارية كانت على نشاط كبير في الألف الخامس والألف الرابع قبل مولد المسيح ، وكانت التجارة تأخذ طريقها في البحر حيناً وفي البر حيناً آخر .

ولإذا أردنا أن نعرف أقدم الأماكن في الشرق الأدنى التي عثر فيها على بقايا قرى لقوم منتجين للقوت لاستطعنا أن نذكر منها الكثير ولكن يكفيننا عشرة منها وهي أهمها :

سيالك في إيران ، وجارمووتل حسونة في العراق ، والجديدة في سوريا ، والفيوم ومرمودة ودير تاسا (البداري) في مصر، ونضيف إليها أريحا في فلسطين، وباكون في جنوب غرب إيران (ربما كانت معاصرة لتاسا في مصر) أو بعدها بقليل ، وأثار في شمال إيران . وها هي بعض الملاحظات عن المهم منها :

سيالك في شمال إيران :

في هضبة إيران ، وفي جنوب شرقي طهران ، عثر جيرشمان في أوطاً طبقات أحد التلال على بقايا قرية من عصر مبكر جداً . وقد احتوت هذه القرية على منازل مبنية ، وكان لدى أهلها نوعان من الفخار . كما عثر فيها الحفاريون على أدوات من المعدن لا تعدو بعض دبابيس من النحاس المطروق ، وهي تمتاز بذلك دون سائر القرى الأخرى التي يرجع تاريخها إلى هذا العصر . وكان من عادة سكان سيالك دفن موتاهم تحت أرضية بيوتهم ، وتغطية أجساد الموتى بمادة المغرة الحمراء .

تل حسونة في شمال العراق :

في شمال العراق في وادي نهر دجلة في الشمال . وهناك أنواع مختلفة من الفخار عثر عليها بين بقايا منازل القرية القديمة ، وبعضها ملون . وكان أهل حسونة

يضعون تماثيلا صغيرة من الطين للنساء ، ويطلق الآثريون على هذه التماثيل اسم
« الإلهة الأم » . أما مدافن سكان حسونة فكانت في بعض الحالات في
أواني كبيرة .

الجديدة في شمال سوريا :

وتقع على مقربة من الحدود السورية في واحد من التلال الكثيرة المنتشرة
في هذه المنطقة على مقربة من قرية الجديدة ، وقد عثر هناك على منازل مبنية
بالطين ، ولكن أساسات بعضها كانت من الحجر . وقد عثر فيها أيضاً على عدة
أنواع من الفخار شبيه بفخار سيالك وحسونة ، كما عثر فيها أيضاً على أختام
من الحجر . وكان سكان الجديدة يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل ، وكانوا
يضعون مع الموتى في بعض الأحيان أوان من الفخار وبعض الأدوات الأخرى .

الفيوم :

وأقدم حضارات مصر هي حضارة الفيوم ، وقد عثر هناك على بقايا مما
تركه السكان القدماء ولكن بقايا المنازل نفسها لم توجد ، وإن كانت وجدت
أشياء أخرى أهمها الشعير ، وكان يوضع في صوامع تحت الأرض مبطنة بالحصير .
كما عثر أيضاً على الكتان وبقايا ملابس وبعض أجزاء من سلال . ويمكن اعتبار
حضارة سكان الفيوم ممثلة في القدم لسيالك وحسونة والجديدة .

مرمسة :

وهي في غربي الدلتا وكان سكانها يبنون منازلهم الطينية في شارع مستقيم ،
وكانوا يعرفون الزراعة وكانت لديهم صوامع مشتركة ، وعرفوا الشعير والكتان
وعرفوا الملابس وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية منازلهم .

جارمو في جبال الأكراد في العراق :

وسادس المناطق في الأهمية هي المنطقة المعروفة باسم قلعة جارمو . ولم يكن
سكان تلك القرية قد عرفوا صنع أوان من الطين بالرغم من أنهم بنوا منازل

جدرانها من الطين . وكان بعضها يحتوي على عدة حجرات . وصنع سكان جارمو تماثيلا من الطين للناس والحيوانات ، كما عرفوا صنع الأواني من الحجر ولم يعثر الحفاريون هناك على بقايا من ملابس ولأن كانوا قد عثروا على بقايا من سلال وحصر مصفورة ، كما يوجد احتمال كبير لمعرفتهم للقمح والشعير واستئناسهم للحيوان . أما تاريخ جارمو فقد أعطى الفحص العلى (راديو كربون ١٤) أنها كانت حوالى ٥,٠٠٠ ق . م . ± 300 سنة (٤٨٥٧ ± 320) .

وأقدم ما عثر عليه في العراق هو ما وجدته الباحثون في كهف في المكان المعروف باسم زارزى ، ويليه في القدم جارمو ثم حسونة . أما عن الحضارات الأخرى فإن بريدوود (Prehistoric Men. 1951, p 100) يظن أن جارمو أقدم من سيالك وحسونة والجديدة والفيوم ، وأن زارزى أقدم من الناطوف وأن هناك عصراً كبيراً يفصل بين زارزى وجارمو .

ومن الحقائق الهامة أن لخص الجماجم التى عثر عليها في تلك القرى — وهى متفرقة في جميع أرجاء الشرق الأدنى — قد أثبت أنها كلها لأقوام من جنس البحر المتوسط مما جعل الباحثين جميعاً في عصر ما قبل التاريخ يؤمنون بأن فصل الانتقال من مرحلة جمع القوت إلى مرحلة إنتاج القوت قد حققه أناس ينتمون إلى جنس البحر الأبيض المتوسط .

حضارات أخرى :

نرى من ذلك أن أقدم الحضارات قد نشأت ونمت في هذا الجزء من العالم ، وأن أهل الشرق القديم هم أول من وضع أسس المدنية الإنسانية .

ولم يقف فضل مدنيات الشرق القديم على تقدم أهلها فقط في مضمار العلوم ، بل كانوا النبع الذى استقى منه غيرهم من الأمم القديمة ، وكانت هذه المنطقة أيضاً مهد الديانات السماوية الثلاثة ، وفيها عاش موسى وعيسى ومحمد الذين بشروا بين أقوامهم بالحق ، وما زالت كتبهم السماوية وأقوالهم وأفعالهم خير ما يحرص عليه مئات الملايين في جميع بقاع الأرض ، ويهتدون بهديه .

ولكى نعرف قيمة ما قدمه هذا الشرق يكفى أن نرجع إلى تاريخ أى دين أو فلسفة ، أو علم أو فن ، فترى أن أصول أكثرها يرجع إلى تلك المنطقة بالذات ، لأنه ما من اختراع توصل إليه أحد من الناس إلا واعتمد على ما سبقه من أبحاث . وفي كتاب المؤرخ الشهير أرنولد توينبى (Arnold J. Toynbee) نراه يمحصر كل مدنيات العالم في جميع العصور في واحد وعشرين مدينة حدد منها ستة فقط بأنها نشأت من حضارات بدائية أصلية وأنها لم تتفرع عن غيرها ، ولم تسبقها مدينة أخرى في منطقتها ، وتلك الحضارات الست هي المصرية ، وحضارة ما بين النهرين وحضارة بحر إيجة (المينوية) ، والحضارة الصينية الأصلية ، وحضارة المايا وحضارة الإندي^(١) . ولو نظرنا نظرة فاحصة إلى هذه الحضارات الستة لوجدنا أن رأى توينبى في الحضارة المينوية لا يمكن التسليم به بسهولة لأن جزيرة كريت مهد هذه الحضارة كانت دائماً منذ أيام الدولة القديمة المصرية (أى منذ القرن السابع والعشرين قبل الميلاد) على صلة مباشرة بمصر ، كما كانت أيضاً على صلة بالشاطئ السوري الذى كانت تنبثق فيه حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين والأناضول ، وأنها استمدت منها الكثير من عناصرها . أما حضارة الصين الأصلية فلم تبدأ إلا في منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، ويميل البحث الحديث إلى التسليم بوجود تأثيرات من غربى آسيا عليها عند نشأتها .

(١) المدنات الإحدى وعشرون هي :

- ١ — المدينة الفرية . ٢ — الأورثوذكسية البيزنطية . ٣ — الأورثوذكسية الروسية
- ٤ — الإيرانية . ٥ — العربية (ويمكن أن نطلق عليها وعلى المدينة الإيرانية اسم المدينة الإسلامية) . ٦ — مدينة الهندوس . ٧ — الصينية . ٨ — اليابانية الكورية .
- ٩ — الهلينية . ١٠ — السورية . ١١ — الهندية . ١٢ — الصينية الأصلية .
- المينوية (حضارة كريت) . ١٤ — السومرية (أو مدينة ما بين النهرين) .
- ١٥ — الحيثية . ١٦ — البابلية . ١٧ — المصرية . ١٨ — الأندية .
- ١٩ — المكسيكية . ٢٠ — اليوقاطية . ٢١ — المايا .

(والأربعة الأخيرة و أمريكا الوسطى والجنوبية) .

Toynbee. A. J. A Study of History Vol. 1-Abridged Edition by Somervell (4th imp. 1951). p. 12-34.

وبعبارة أخرى إن أقدم حضارات الصين تأثرت بهجرات أقوام وثقافات من الحضبة الإيرانية التي يعتبرها توينبي من الحضارات التي تأثرت في أقدم عهودها بحضارة بلاد ما بين النهرين تأثراً كبيراً . ويبقى بعد ذلك الحضارتان الأخيرتان وكان موطنهما في أمريكا الوسطى ، أى بعيداً عن العالم القديم .

وبعبارة أخرى نجد أن أهم حضارتين في العالم ، لا في بلاد الشرق الأدنى وحدها ، هما حضارة مصر وحضارة ما بين النهرين ، وأن جميع ما ظهر من حضارات أخرى في العالم القديم ، وبخاصة في أوروبا وغربي آسيا وشمال إفريقيا ، استمدت من واحدة منهما أو من الإثنين معاً .

يكفيينا هذا القدر من الحديث عن أقدم الحضارات في بلاد الشرق الأدنى ولنلق الآن نظرة عامة على سير الحضارة في كل من مصر والعراق .



الفصل الثاني

مِصْرُ وَالْعِرَاقُ وَآثَرُهُمَا فِي الشَّرْقِ الْقَدِيمِ

تمهيد :

في عام ١٩٥٠ نشرت بحثا في المجلة التاريخية المصرية^(١) عنوانه « الاتجاهات الحديثة في المباحث التاريخية والآثرية الخاصة بالشرق القديم ، قارنت في جزء منه بين حضارتى مصر والعراق وتساءلت عن أيهما أقدم من الأخرى وكتبت إذ ذاك :

اختلف علماء التاريخ القديم اختلافا كبيرا فيما بينهم عند الإجابة على هذا السؤال في أبحاثهم التي ظهرت في الثلاثين عاما الأخيرة ، فمنهم من تعصب وما زال متعصبا لمصر ، ومنهم من تعصب وما زال متعصبا للعراق ، ولكن تعصب هذا العالم أو شك ذلك الباحث لا يغير من حقيقة الأمر شيئا . فقد نشأت في الألف الرابع قبل الميلاد في كل من مصر والعراق ثقافات قائمة بذاتها ، وأخذ كل منها يتقدم على انفراد . وتطورت الحياة الاجتماعية في كل من البلدين تطورها الطبيعي ، وقد تمكن سكان العراق القدماء من الوصول في بعض النواحي إلى درجة من التقدم جعلتهم يسبقون إخوانهم في وادى النيل ، فوصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر في العصر الذى نسميه عصر ما قبل الأسرات .

ومن الثابت أيضا - وفقا لأحدث النتائج التى وصلت إليها أبحاث الآثرين - أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها البعض ، وكانت التجارة

(١) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثانى - أكتوبر ١٩٥٠ صفحة

قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها وبعض ، فاتصلت مصر والعراق . وكانت مصر إذ ذاك تحتاز فترة انتقال وتطلع قائمت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئاً من مظاهر حضارته ، مثل الاختتام الأسطوانية التي عثر عليها في مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الاختتام الأسطوانية كانت معروفة في العراق في العصر الذي يطلق عليه الآثريون الآن عصر قبيل اختراع الكتابة^(١) .

ولم يقتصر الأمر على الآثار الصغيرة التي يسهل نقلها كما حدى سلع التجارة ، مثل الاختتام الأسطوانية أو رؤوس دبابيس القتال وغيرها ، بل تعداها إلى أشياء أخرى أعمق أثراً مثل بعض مظاهر العمارة بالطوب ، كبناء الجدران ذات الفجوات الرأسية الطويلة ، كما بدأت تظهر في الفن المصري تأثيرات أخرى مثل رسم السفن العراقية التي يرتفع كل من مؤخرتها ومقدمتها ارتفاعاً عمودياً ، ورسم الحيوانات ذات الأجنحة ، أو الحيوانات ذات الأعناق الطويلة التي تتقاطع مع بعضها أو الرسم السومري المشهور الذي يمثل محارباً بين أسدين .

(١) يطلق عصر ما قبل الكتابة أو قبيل اختراع الكتابة Protoliterate Period في بلاد العراق على الفترة بين ٣٧٥٠ ، ٣١٠٠ ق. م . وتنقسم إلى قسمين أولهما بين ٣٧٥٠ ، ٣٥٠٠ وهي المبكرة *Early Protoliterate Period* والمتأخرة *Late Protoliterate Period* بين ٣٥٠٠ ، ٣١٠٠ ق. م . أي ابتداء من عام ٣١٠٠ تقريباً ، في جنوب العراق العصر المسمى عصر الأسرات المبكر وهو يقابل في مصر الوقت الذي تم فيه توحيد البلاد كلها تحت حكم ملك واحد والنصف الأول من الأسرة الأولى . وليس معنى ذلك أن حضارة مصر والعراق بدأت فقط في الألف الرابع قبل الميلاد فإن الحضارة في كل من البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة . وري فرنكفورت (Henri Frankfort, *The Birth of Civilization in the Near East 1951*) أن الحضارات السومرية بدأت في شمال العراق حوالي عام ٥٠٠٠ ق. م وذلك في العصر المسمى عصر حسونة ويقابل في مصر العصر التامى (نسبة إلى قرية دير تاسا في أسيوط) أما كوتينيو (C. Contenau, *Manuel d'Archéologie Orientale IV-1947*) فيرى أن توحيد الدلتا والصعيد في مصر وابتداء الأسرة الأولى تم في الوقت الذي كانت تحتاز البلاد (العراق) عصر الوركاء إلى عصر جدة نصر وهو يتفق في ذلك مع أكثر المؤرخين .

ومما يثبت أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق أن أكثر هذه التأثيرات والمظاهر الفنية ظلت في العراق إلى آخر أيامه بينما اختفت من مصر بعد الأسرة الأولى ، لأنها كانت غريبة على البلاد وعلى ذوق أبنائها ، فصرت منه ما استساغته ونبتت ما عداه . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق في الفن المصري في ذلك العصر المبكر بعض علماء الآثار على القول باحتمال هجرة كبيرة من بلاد الرافدين إلى النيل ، بل وصل بعضهم إلى القول باحتمال غزو أو أن أصل الملك « منا » من بلاد سومر ١١١ وهي فروض لا تقوم على أى أساس على سليم ، بل فروض يغلب عليها الخيال لأن كل ما نراه في مصر من تأثيرات سومرية جاء عن طريق الصلة التجارية . وكما عثر في مصر على آثار من العراق فقد عثر أيضاً في العراق على آثار من مصر وظهرت في فنونها تأثيرات مصرية (١) .

كتبت هذا منذ أربعة عشر عاماً ، وبالرغم من ظهور عشرات الكتب والبحوث منذ ظهور ذلك المقال ، فلم يجدّ شيء يغير من هذه النتيجة . لقد نمت الحضارة وتطورت في كل من مصر والعراق على حدة ، واتخذت كل حضارة منهما أسلوبها المحلي ، ولكن البلدين كانا متصلين عن طريق التجارة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد فوصلت إلى مصر بعض السلع العراقية . ولم تسكن مصر في ذلك الوقت أقل حضارة أو ثقافة من العراق بل كانت تفوقها في نواح كثيرة . وإن إقبال المصريين على اقتباس بعض أساليب الفنون الأجنبية يدل بوضوح على نضوج فنّي بينهم جعلهم يتطلعون إلى آفاق أبعد من الآفاق المحلية ، كما يدل أيضاً على المرونة التي يجب أن يتحلّى بها كل شعب يبدأ فترة تقدم حقيقي في تاريخه .

(١) أنظر بحث جليبر عن هذا الموضوع في P. Gilbert, *Synchronismes artistiques entre l'Egypte et Mesopotamie de la periode thinitte à la fin de L'Ancien Empire Egyptien, Chronique d'Egypte (No. 52) 1951, p. 225-36.*

أما عن موضوع الكتابة واختراعها فقد ظهرت مستقلة في كل من البلدين وليس هناك تأثير من إحدى الحضارتين على الأخرى — أنظر كتاب : Stegfred Schott, *Hieroglyphen Untersuchungen Zum Ursprung der Schrift, 1951.*

بين حضارتى مصر والعراق :

لن نتحدث هنا عن تاريخ أو حضارة كل من مصر والعراق ، ولن نشير إلى أى حادث من الحوادث بشيء يشبه التفصيل فإن تاريخ وحضارة كل من هذين البلدين لها مؤلفاتها الخاصة ، وسنكتفى في الصفحات التالية بإلقاء نظرة عامة مقارنة على سير التاريخ في كل منهما . قضت طبيعة مصر بأن تكون كلها وحدة واحدة ، بينما نرى الأمر في العراق يختلف عن ذلك . ولهذا ، بينما ظهرت في مصر في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد دولة موحدة لها ملك واحد وتسودها حضارة واحدة ، نجد الأمر مختلفاً في العراق ، إذ ظهرت فيه دويلات متعددة كانت لكل منها ملوكها وآلهتها بل وقوانينها . وسرعان ما أخذت هذه الدويلات السومرية تتطاحن فيما بينها وكثيراً ما قضت إحداها على الأخرى إلى أن تهيأ لها أخيراً أن تتوحد على يد سرجون الأكدي وكان ذلك في عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد . فأما عن السومريين الذين نعزى إليهم أصول تلك الحضارة التي ازدهرت في أقدم عصور العراق فهم شعب غير سامى على الأرجح ، وقد ذكرت الأساطير السومرية أنهم جاءوا من الجنوب عن طريق البحر . وفي رأى بعض الباحثين الحديثين وهو « روتزنى » (Hrozny) أنهم جاءوا مهاجرين من آسيا الصغرى في موجتين من موجات الهجرة ، ويرى آخرون أنهم جاءوا من جهة التركستان وجبال أورال . وهناك من يقول بأنهم جاءوا من وادى السند ، بعضهم بطريق البر والبعض بطريق البحر ، وأن جنة تيلون (Tilman) التي ذكرت في أساطير سومر ليست إلا جزيرة البحرين في الخليج الفارسي . كما يذكر البعض الآخر أنهم وفدوا من هضبة إيران ، ويحاول البعض الآخر تحديد أصلهم عن طريق مقارنة اللغة السومرية باللغات التي يمكن القول بأنها تشترك معها في أصلها وأهمها اللغات الجررية والتركية والفنلندية .

ويحاول بعض الزملاء العراقيين أن يثبت أن الحضارة السومرية أصيلة في البلاد ولم تأت من أى مكان آخر .

ولكن جميع هذه الآراء ليست إلا فروضاً، وما زال موضوع السومريين وأصلهم ونشأة حضارتهم ولقبتهم من المواضيع التي تنتظر الحل ، وظهور أدلة جديدة^(١) . ومهما كان أصل السومريين غامضاً فإننا نعلم الشيء الكثير عن مظهرهم وعن حضارتهم بفضل ما خلفوه لنا من آثار ، من لوحات وتماثيل وغيرها ، وتلك الثروة العظيمة الممثلة في أختامهم ولوحاتهم المنقوشة التي نعرف منها الكثير عن أسماء مدنهم وعن دياناتهم وحياتهم الاجتماعية^(٢) .

وكانت المدن السومرية مزدهرة إلى حد غير قليل عند ما ظهر سرجون الذي أشرنا إليه فلأخضعها كلها له . فمن هو سرجون ولماذا سميناه الأكدى ؟

يفتخر سرجون (وهي مشتقة من كلمة شرو - كني ومعناها الملك الشرعي ، وكانت نعتاً له ثم غلبت عليه) في نقش له كتب في أواخر أيام حكمه قائلاً : « كانت أمي امرأة متقلبة (إشارة إلى عدم الاستقامة) ولا أعرف من كان أبي . وكان أعمامى يحبون الجبل . أما مدينتي «ازوبيرانو» فكانت على شاطئ الفرات . لقد حملت بي أمي المتقلبة وولدتني سرا ، ثم وضعتني في سلة من الغاب وأحكمت غلق غطاءها بالقير ثم ألقت بها في النهر فلم أغرق . وحملني الماء إلى « أكي » الفلاح (في الأصل ناقل الماء) فرباني أكي الفلاح وصرت كائن له وعملت بستانيا عنده وأثناء عملي كبستانى أحببتني عشر فصار الملك لي مدى أربعة وخمسين سنة . »

(١) أحدث البحوث الهامة التي ظهرت عن أصل السومريين وانتهى فيه صاحبه إلى قوله بأن الموضوع ما زال ينتظر الحل نراه في كتاب Hartmut Schmökel, *Geschichte des alten Vorderasien*, 1957. p.3-4. وما كتبه أيضاً في كتابه *Das Land Sumer* (1956), p. 44-51.

(٢) كثيراً ما تنسب الحوادث في سومر القديمة إلى منها التي نعرف منها عسداً كبيراً منها مدن أوروك أو الوركاء ونفر وأريدو وأور وشروباك وكيش ولجش وقارا واسين وغيرها . أما عن أهم ما حققته الحضارة السومرية في مختلف الميادين فكتاب : Samuel Noah Kramer, *From the Tablets of Sumer*, 1956. يطلي القارئ فكرة عامة عنها . وقد ترجم طه باقر مقيش المتاحف العراقية هذا الكتاب إلى اللغة العربية وقد طبع في القاهرة عام ١٩٥٨ بعنوان : من ألواح سومر .

التحق سرجون بخدمة ملك يسمى « أور زبابا » كان حاكماً لمدينة « كيش » ، وكان يعمل عنده ساقياً ثم قام ضده بثورة واستولى على الملك ، وأخذ يستولى على مدينة بعد أخرى حتى خضعت له مدن العراق الشمالية ودحر الجوتيين في جبال زاغروس ، ثم أخضع مدن الجنوب إلى أن استولى على المدن السومرية كلها . ثم ذهب مرة أخرى نحو الشمال حتى وصل إلى الأناضول ، ثم استولى بعد ذلك على عيلام وهي الآن في الجنوب الغربي لإيران ، ثم اتجهت جيوشه إلى قلب آسيا الصغرى عندما استغاث به تجار عراقيون من اضطهاد حاكم تلك البلاد لهم ، بل أن إحدى الأساطير المتأخرة تنسب إليه أنه استولى على جزيرة قبرص .

كانت ملكة سرجون بحق أولى امبراطوريات بلاد الرافدين ، ولكنها كانت أيضاً أولى الامبراطوريات التي حققتها الشعوب السامية لأن سرجون لم يكن سومرياً بل كان سامياً ، من أحفاد المهاجرين الذين كانوا يهاجرون من آن لآخر من الجزيرة العربية ويستقرون على حدود الأراضي المزروعة . أما الأكدي فهي نسبة إلى مدينة أكد التي جعل منها عاصمة مملكة وإليها تنسب اللغة الأكادية وهي إحدى اللغات السامية (١) .

ولاشك أنه منذ أقدم العصور كان بعض بدو الجزيرة العربية يخرجون مهاجرين من مواطنهم كلما اضطرتهم ظروف العيش القاسية ، أو أجلاهم غيرهم عن أراضيهم ، فكانوا يذهبون ليستقروا في الشام أو في العراق وأحياناً عن طريق سيناء إلى مصر إذا اتجهوا نحو الشمال أو يعبرون بوغاز باب المندب إلى إفريقيا إذا اتجهوا نحو الجنوب ، ومن هناك ينتشرون حيث يطيب لهم العيش . وقد دخل بعضهم إلى مصر عن طريق الصحراء الشرقية ووصلوا إلى النيل من درب الموصل بين القصير والنيل ، وقد بقيت لهذا الدرب في جميع عصور

(١) لا يرجح تاريخ استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ، ثم على بعض الأقوام ، إلا إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألماني شلوتسر Schlözer للتدليل على لغات الذين ينسبون إلى سام بن نوح (سفر التكوين ، الأصحاح ١٠ — ١١) الذين كانوا يعيشون في بلاد العرب وبلاد النهرين وسوريا وفلسطين ثم انتشرت به - بعد ذلك - إلى الحبشة ومصر وشمال أفريقيا وغيرها . وكلها ، قديماً وحديثاً ، متصلة ببعضها البعض بل ومشتقة من أصل عام واحد .

التاريخ المصري مكانة خاصة وكانوا يسمونه طريق الآلهة ، إشارة إلى مجيئ بعض أسلافهم ومعهم آلهتهم من هذا الطريق ، وما من شك في أن صلة مصر بالشعوب السامية في عصر ما قبل التاريخ تركت أثرها في اللغة المصرية القديمة سواء في مفرداتها أو في أجروميتها (١) .

ولترك الآن مصر ولتعد إلى العراق . لحوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد كانت هناك مجموعة من المدن السومرية في الجنوب (وأهمها إريدو ، أور ، لجش ، أوما ، أوروك ، نقر ، شوروباك) . وفي الوسط ، حوالى بغداد ، كان السكان من أجناس مختلطة وليس بينهم إلا عنصر سومي قليل ، وفيهم عنصر سامي قوى . وكانت أهم المدن إذ ذاك هي مدينة كيش ، أما شمالي العراق فلم يتغلب عليه السومريون لأن الساميين نبتوا أقدامهم في كل المناطق الهامة مثل مدينة مارى على الفرات الأوسط وفي آشور وفي نينوى على نهر دجلة .

وفي القرون الأولى من هذا الألف ، أى الألف الثالث ، وصل الفينيقيون ونزلوا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ابتداء من أوجاريت (على مقربة من اللاذقية) إلى صور ، كما احتل الكنعانيون جزءاً آخر من الشاطئ من جبال السكريملى حتى حدود مصر ، وهي المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم فلسطين . أما في داخل البلاد حيث يوجد الإقليم السوري ، والمناطق الواقعة إلى الجنوب منه في الأردن ، فاستقر فيها الأموريون وهم أيضاً من الساميين .

وقد رأينا عند إشارتنا إلى سرجون كيف انتهى الأمر بظهور هذه الإمبراطورية السامية الكبيرة ، وإخضاعها بلاد العراق وشمالي سوريا وغيرها من البلاد لنفوذها ، وكيف أصبحت اللغة الأكديّة ، وهي إحدى اللغات السامية كما ذكرنا ، لغة الدولة الجديدة وصارت اللغة السومرية في المرتبة الثانية ، ولكن هذا لم يمنع من اقتباس الأكديين للكتابة السومرية والكثير من مظاهر حضارتهم .

(١) هنالك من يقول بأن الصلة بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية أبعد من ذلك وربما كانت اللغة المصرية وغيرها من اللغات السامية والحامية التي كانت منتشرة في آسيا الغربية وشمالي وشرق إفريقيا مشتقة كلها من لغة واحدة أقدم من الجميع .

ظهر سرجون حوالى عام ٢٣٥٠ قبل مولد المسيح ، فما الذى كان حادثاً في مصر في ذلك الوقت ؟ وهل كانت المدنية المصرية أقل في مستواها من المدنية السومرية ؟ والجواب على ذلك أن الأسرة الأولى في مصر بدأت كما نعلم جيداً حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م . ، وأن مصر بلغت في مدنيّتها أوج ازدهارها الصحيح في الأسرة الرابعة عندما استطاعت أن تحقق تلك المعجزات في تشييد أهرامها حوالى عام ٢٧٠٠ ق . م . بل وقبل ذلك . ويكفى الإنسان أن يزور هرمى سنفرى في دهشور أو يرى محتويات مقبرة زوجته حتب حرس ، أم ابنه خوفو ، وهى الآن في المتحف المصرى ، أو يرى آثار زوسر في سنقارة وقد شيدت قبل ذلك التاريخ ليدرك مدى ما أحرزته مصر من تقدم . ولكن حتى في الوقت الذى كانت فيه حضارات مدن سومر في أوجها فلا يمكن أن نقارنها بما كان في مصر . أما عام ٢٣٥٠ ق . م . فإنه يقابل في التاريخ المصرى وقت اضطلال الدولة القديمة في أواخر أيام الأسرة السادسة عندما كانت مصر على وشك الدخول في تلك الفترة المظلمة في تاريخها وهى عصر الفترة الأولى .

لقد حققت الحضارة السومرية الشيء الكثير في مختلف الميادين ولكننا إذا قارناها بحضارة الدولة القديمة في مصر لرأينا الحضارة المصرية متفوقة عليها اللهم إلا في ميدان الأدب والأساطير . لقد عرفنا من دراسات اللوحات السومرية وبعض الآثار الأخرى شيئاً غير قليل ، ولكننا نعرف من دراستنا لما تركته الحضارة المصرية من مئات المقابر التى نقش جدرانها في سقارة والجيزة ، وما كتبوه من نصوص داخل الأهرام ، وما خلفوه في عشرات المناطق الأثرية والمعابد ، وآلاف الآلاف من القطع الأثرية المختلفة مدى ما بلغته الحضارة المصرية في جميع النواحي الحضارية .

لم تستمر إمبراطورية سرجون طويلاً بل سرعان ما قامت الثورات وانتهت عائلته ، ثم حدثت نكسة أخرى وانهار صرح الحكم السامى تحت ضربات نزلت على العراق من شعب هندو - أروى كان يقطن في جبال زاغروس ، وهم الجوتيون . فانهت أيام الإمبراطورية الأكديّة وكان ذلك في منتصف القرن

الثالث والعشرين قبل الميلاد ولم تلبث المدن السومرية القديمة حتى انتعشت مرة أخرى وبخاصة مدن لجش وأوروك وأور ، وانتعشت الفنون فيها ، ونرى في تماثيل جوديا حاكم لجش وغيرها من التماثيل شاهداً كبيراً على تقدم فن النحت ، كما نرى في مجموعة الحلى العظيمة التى عثر عليها فى أور ويرجع تاريخها إلى أسرة أور الثالثة أى بين أعوام ٢١٢٤ - ٢٠١٦ ق . م . تقدماً قنياً عظيماً .

ولا يسع أى شخص أن يرى مجموعة الحلى الملكية التى عثر عليها فى تلك المقابر ، وهى موزعة الآن بين متاحف بغداد ولندن وبنسلفانيا فى فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية إلا أن يعجب بها وبذوقها الفنى ودقة صناعتها . ولسكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أنه فى ذلك الوقت بالذات كانت مصر قد اجتازت فترة الضعف التى كانت ألمت بها ، واستطاعت أن تدخل فى عصر نهضة كبيرة وهى الدولة الوسطى ، إذ تبدأ الأسرة الحادية عشرة فى مصر فى عام ٢١٣٤ ق . م . وتستمر نحو قرن ونصف من الزمان . وقد بلغت صناعة الحلى فى مصر فى عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٧٨ ق . م .) مستوى لم يبلغه من قبل أو تصل إليه فيما تلا ذلك من عصور ، كما نرى فى تلك المجموعات العظيمة المعروضة فى المتحف المصرى وقد عثر عليها فى دهشور ، وفى متحف المتروبوليتان فى نيويورك وهى بما عثر عليه فى اللاهون فى محافظة الفيوم ، وغير ذلك مما نراه فى المتاحف العالمية .

وعلى ذكر حلى أور وجبانها الملكية فإننا نعرف مما عثر عليه فى تلك الجبانة أنه عند موت الملك أو الملكة أو أحد الرعماء فإنهم كانوا يدفنون معه كل أتباعه المقربين ، بل ويدفنون أيضاً معه كل العربات التى حملت موكب دفنه مع ثيرانها وسائقها . وليست هذه العادة ، وإن ظهرت قاسية ، قاصرة على أور فقط بل كانت عامة فى سومر ، فقد عثرت البعثة الألمانية التى تعمل فى مدينة أوروك فى موسم ١٩٥٥ - ١٩٥٦ على نحو مائة جثة لأتباع أحد الحكام ، كما نعرف أيضاً أنها كانت متبعة فى مصر حتى الأسرة الأولى المصرية حيث عثر على جثث كثير من أتباع إحدى الأميرات فى مقبرتها فى سقارة ، ولكن هذه العادة اختفت فيما بعد وإن ظلت متبعة فى السودان خلال العصور الفرعونية ، وظلت فى النوبة حتى ظهور المسيحية بعدة قرون ، كما كانت متبعة أيضاً فى بلاد الصين

القديمة وعلى الأخص في عهد أسرة شو حوالى عام ١١٠٠ ق . م . وفي بعض بلاد
أواسط آسيا .

ودارت عجلة الزمن دورة أخرى ، وأخذت المدن السامية في الازدهار ، ومن
أهمها دولة مدينة مارى على الفرات التى دخلت في عهد ازدهار حوالى عام ٢٠٥٢
قبل الميلاد ، وستحدث عنها بشئ من التفصيل عند حديثنا عن تاريخ سوريا في
الفصل القادم ، ولكن الدولة التى لعبت دورا كبيرا في تاريخ العراق في ذلك العهد هى
دولة مدينة بابل التى أسسها الآموريون حوالى عام ١٨٩٤ ق . م . ونشأت فيها أسرة
مالكة ، قدر لسادس ملوكها وهو الملك حمورابى الذى بدأ حكمه في عام ١٧٢٨ ق . م
أن يوحد البلاد كلها تحت سلطانه وأن ينشئ الإمبراطورية السامية الثانية وأن
يخضع له كل الدويلات الأخرى مثل دولة مارى ولارسا وعيلام ، ووصل
جنوبا إلى الخليج الفارسى ولكنه لم يستطع بعد ذلك أن يصل إلى البحر الأبيض
لأن دولة يمتد ، وكانت عاصمتها هى مدينة خلب ، وما جاورها حتى ساحل البحر
وقفت في طريق الوصول إليه . كما أنه لم يستطع الاستيلاء على مدن الشاطئ . لأنها
كانت إذ ذاك تدور في فلك النفوذ المصرى في أيام الأسرة الثانية عشرة ، ولكن
قبل أن نستمر في سرد قصتنا عن تاريخ العالم القديم في ذلك الوقت يحسن بنا أن
نقف قليلا لتحدث عن شخصية من أعظم شخصيات التاريخ القديم وهى شخصية
حمورابى .

حمورابى وقانونه :

تعتبر مدة حكم حمورابى أزهى فترة في تاريخ المملكة البابلية القديمة ، وقد
ورث الملك عن أبيه ، وحارب واتصر على كل من نأواه^(١) . ولم يكن ظالما عاتيا
أو متجبرا على من يهزمهم ، كما كان قلبه ممتلئا بالتقوى وكان يعزو كل شيء إلى
الإله مردوك الذى كان يرى فيه حاميا شخصيا له .

(١) مدة حكم حمورابى حسب أحدث البحوث هى ثلاثة وأربعون عاما من ١٧٢٨ —
١٦٨٦ ق . م .

وخير مصدر لدراسة شخصيته وأعماله وحالة البلاد في عهده قانونه الشهير الذي شرع في كتابته في أوائل أيام حكمه وعملت منه نسخ كثيرة لإحداها تلك التي قلمها أهل عيلام إلى سوسا في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد كغنيمة حرب ، وعُثرت عليها بعثة فرنسية في عام ١٩٠٢ فنقلتها إلى متحف اللوفر كغنيمة من الغنائم الأثرية .

على هذه اللوحة الأسطوانية الشكل التي يبلغ ارتفاعها ٢,٢٥ مترا ومصنوعة من حجر الديوريت ، نرى القانون كله مسطرا في مواد . يتناول أكثر مشا كل الناس ، وفي أعلى اللوحة نرى حمورابي واقفا يرفع يده إلى مستوى فسه علامة التعبّد لإله الشمس ، الذي يجلس على العرش وكأن حمورابي يتلقى منه هذا القانون . ولكن الحقيقة هي أن ذلك القانون لم يكن من مستحدثات حمورابي أو عصره بل نرى عند تحليله أنه مجموعة من قوانين المدن السومرية القديمة التي أصبحت لها مع الزمن قداسة خاصة ، والتي نعرف عنها شيئا غير قليل لجمعها وهذبها ثم عمدها للسير بمقتضاها في جميع أرجاء البلاد .

ومن أوصاف حمورابي على آثاره ، ومن دراسة آثاره المعاصرة نعرف أنه كان يعتبر نفسه فوق مستوى البشر ، فقد كان يسمى نفسه « إله الملوك » وكان اسمه يدخل في تركيب أسماء الأعلام .

قانون حمورابي :

ومن أعظم أعمال هذا الملك المصلح جمعه لما كان في بلاد ما بين النهرين من قوانين وتشريعات قديمة ، وحذف منها ما لم يتفق مع روح العصر الذي عاش فيه وأضاف إليها تشريعات أخرى جديدة ثم بوب هذا كله وعممه في جميع أرجاء البلاد .

وقد وصلت إلى أيدينا أجزاء من القوانين والتشريعات السومرية مثل قوانين « أورك - عجيينا » آخر ملوك لجش الأولى (حوالي عام ٢٣٦٠ ق . م .) وقانون

د أورنمو ، مؤسس أسرة أور الثالثة (حوالى عام ٢١٥٠ ق . م .) وقوانين . .
لييت - عشترا ملك إيسن (حوالى عام ١٨٧٥ ق . م .) وغيرهم وتحتوى كلها على
مواد لتنظيم المجتمع وحمايته ووضع أسس يسير الناس على هديها .

جمع حورابى جزءاً من قانونه من تلك القوانين ولكنه أضاف عليها الكثير من
المواد، وعلى الأخص ما يتعلق منها بتوقيع العقوبات الصارمة الخاصة بالقتل أو القصاص
مثل العين بالعين والسن بالسن لأن القوانين السومرية كانت تتجنب القصاص
بالمثل وتميل إلى دفع الدية والتعويض ، ويظهر أن القصاص بالمثل كان من الأمور
المرعية بين الساميين فأدخله في هذا القانون . وعدد مواد القانون كانت ٣٠٠ على
الأقل ولكن لم يحفظ على الحجر إلا ٢٨٢ إذ أن الملك العيلامى وشتروك ناخونتى،
الذى غزا بابل وتقل هذا القانون عما الجزء الأسفل منه ليكتب عليه تسجيل
انتصاره ، ولكن ذلك لم يتم .

وللقانون مقدمة طويلة شعرية الأسلوب تتحدث عن شرعية حكم حورابى
وتأييد آلهة البلاد له ، مع رفع الشكر إلى هؤلاء الآلهة وتمجيدهم لمساعدتهم له في
توطيد العدالة وهداية الحكام ، ثم يذكر بعد ذلك ما قام به هو نفسه من أعمال
جليلة ويختم مقدمته برجاء الآلهة أن تفي وتزيل كل من لا يعمل بهذه التشريعات
أو يحاول القضاء عليها .

ولو دققنا في هذه المواد نجدها مقسمة إلى اثني عشر قسماً أو باباً تختلف كل
منها في عدد المواد حسب أهميتها، وهذه الأقسام يمكننا تلخيصها بأن أولها يتعلق
بالقضاء والشهود وثانيها بالسرقة وثالثها بالجيش ورابعها بالحقل والبيت وخامسها
بحوانيت التجار والتعامل معهم ، وسادسها يتعلق بالحانات أما السابع فهو خاص
بشؤون البيع ، وثامنها بشؤون العائلة وعلاقة أفرادها ببعضهم البعض .

ويختص القسم التاسع بالتعويض والغرامات عند نقض التعهدات أو الاتفاقات ،
أما القسم العاشر فيختص بتحديد الأسعار وأجور تشييد البيوت والسفن .
والحادى عشر يتعلق بأجور الحيوانات والأشخاص أما القسم الأخير وهو القسم

الثاني عشر فيختص بتحديد وضع الأرقاء وما لم من حقوق وما عليهم من واجبات .

وعما يستلقت النظر في هذا القانون أنه لم يوضع لتطبيقه على جميع أفراد الشعب على السواء بل نراه يقسم الناس إلى ثلاث طبقات أولاها طبقة الـ «أويلم» (Awilum) وهي طبقة الأحرار أو الأفاضل بين الناس ، أو السادة تليها طبقة تسمى الـ «مشكينوم» (Mushkinum) وهي طبقة لا نعرف على وجه الدقة صفة أفرادها وربما كان أصحابها على صلة بالمعابد وهي على أي حال طبقة ليست من الأرقاء أو من السادة ، بل من عامة الشعب الأحرار ، أما الطبقة الثالثة فهي طبقة الأرقاء . ولكي نفهم روح هذا القانون أقدم بعض موادها كما هي مترجمة ترجمة حرفية^(١) :

مادة ٣ — إذا أدلى سيد بشهادة كاذبة في دعوى ما ولم يثبت صحة الكلمات التي نطقها ، فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بدعوى حياة فإن ذلك السيد يعدم .

مادة ٥ — إذا أعطى قاضى حكما وأصدر قرارا وحدث التصديق على رقيم محتوم ثم غير حكمه بعد ذلك فعليه أن يثبتوا أن ذلك القاضى قد غير الحكم الذي أصدره ، وعليه أن يدفع اثنا عشر مرة قيمة الشكوى التي رفعت في تلك الدعوى ، وزيادة على ذلك عليهم أن يطردوه أمام الجمع من فوق كرسيه للقضاء ، وعليه ألا يجلس ثانية أبدا مع القضاة في دعوى .

مادة ٢٢ — إذا قام سيد بالسرقة وقبض عليه فإنه يعدم .

(١) هنالك عشرات الكتب والبحوث عن هذا القانون ومواده باللغات الأوروبية ومن يريد الاطلاع عليه كاملا فإن أحدث الترجمات باللغة الإنجليزية هي التي قام بها Theophile J. Meek ونشرها مع أهم المراجع عن الترجمات السابقة في كتاب Pritchard, Ancient Near Eastern Texts p. 163-180 (1955) ، كما ظهرت له أيضاً عدة ترجمات باللغة العربية أحدثها وأدقها بحث الدكتور محمود الأمين : « قوانين سحرابى والقوانين البابلية الأخيرة » للنشر في مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد - عدد كانون الثاني ١٩٦١ ويوجد فيه القارىء بياناً بالمراجع العربية والسكثير من التعليقات الهامة . وقد اعتمدت عليها في ترجمة بعض مواد هذا القانون ترجمة حرفية .

مادة ٢٥ - إذا شبت النار في بيت سيد وذهب سيد لإطفائها ، فخط عينه على أموال صاحب البيت ثم استملك أموال صاحب البيت فإن هذا الرجل يلقي في النار هذه .

مادة ١٠٤ - إذا أقرض تاجر غلة أو صوفا أو زيتا أو بضاعة ما إلى بائع متقل ، فعلى البائع المتقل أن يسجل الثمن وأن يدفعه للتاجر وأن يستلم البائع المتقل وصلا محتوما بالدرهم التي دفعها إلى التاجر .

مادة ١٠٥ - إذا كان البائع المتقل مهلا ولم يحصل على وصل محتوم بالمال الذي دفعه للتاجر ، فإن المال الذي لم يجر به وصل محتوم لا يمكن اعتباره عند اعتماد الحساب .

مادة ١٠٩ - إذا اجتمع خارجون على القانون في حانة لإحدى بائعات الخمر ولم تعقل أولئك المتآمرين ، ولم تأخذهم إلى القصر فإن بائعة الخمر هذه تعدم .

مادة ١١٧ - إذا حان وقت استحقاق دين على سيد وكان قد باع (خدمات) زوجته أو ابنه أو ابنته أو ارتبط (هو نفسه) بالخدمة فيجب عليهم أن يعملوا في بيت من اشترام أو المدينين له مدة ثلاث سنوات ، وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة .

مادة ١٢٧ - إذا أشار سيد بسوء إلى كاهنة معبد أو إلى زوجة سيد آخر ولكنه لم يستطع إثبات شيء ضدها فإن هذا السيد يؤخذ إلى حضرة القضاة ، ويقصون أيضاً نصف شعره .

مادة ١٢٩ - إذا قبض على زوجة سيد مضطجعة مع رجل آخر فيجب عليهم أن يوثقوا الإثنين ويلقوا في الماء . وإذا رغب الزوج في الإبقاء على حياة زوجته ، ففي هذه الحالة يستطيع الملك أن يبقى على حياة أحد رعاياه .

مادة ١٣٣ - إذا أخذوا سيدا في الأسر وكان في بيته ما يكفي فيتحتم على زوجته ألا تترك منزله ، وعليها أن تصون نفسها ، وذلك ألا تدخل منزل شخص آخر .

أما إذا لم تصن هذه المرأة نفسها ودخلت منزل شخص آخر فإنهم يثبتون ذلك على هذه المرأة ويلقونها في الماء .

مادة ١٤٢ — إذا كرهت امرأة زوجها حتى قالت له : لا تقربنى ، فيجب درس قضيتها في مجلس بلديتها . فإذا كانت امرأة حريصة ولم ترتكب خطأ بالزعم من أن زوجها يخرج ويحط من قدرها كثيرا ، فليس لهذه المرأة ذنب ويجب أن تأخذ حقها المتأخر وتذهب إلى بيت أبيها .

مادة ١٤٨ — إذا تزوج سيد امرأة وأصيبت بمرض وأراد أن يتزوج ثانية فله أن يتزوج ولكن لا يجوز له أن يطلق زوجته التي أصيبت بالمرض . لأنها تسكن في البيت الذي بناه وعليه أن يقوم بإعالتها طالما كانت على قيد الحياة .

مادة ١٩٥ — إذا ضرب ولد أباه فعليهم أن يقطعوا يده .

مادة ١٩٦ — إذا فقأ سيد عين ابن أحد السادة فعليهم أن يفتأوا عينه .

مادة ١٩٨ — إذا فقأ سيد عين رجل من العامة أو كسر إحدى عظامه فإنه يغرم دميना ، من الفضة (الميना أو المن ين ٥٠٠ جراما) .

مادة ٢٠٣ — إذا ضرب واحد من الأشراف شريفا آخر من درجته فعليه أن يدفع مينا من الفضة .

مادة ٢٠٤ — إذا صفع أحد العامة شخصا من طبقتة فعليه أن يدفع ١٠ شكلات من الفضة (الميना = ٦٠ شقل) .

مادة ٢١٨ — إذا أجرى طبيب عملية كبيرة لسيد بآلة برونزية وسبب وفاة السيد ، أو فتح حجر عين سيد وسبب فقد بصره ، فإنهم يقطعون يده .

مادة ٢١٩ — إذا أجرى طبيب عملية كبيرة لرفيق بآلة برونزية وسبب وفاته فعليه دفع التعويض رفيقا برقيق .

مادة ٢٢١ — إذا جبر طبيب عظما مكسورا لسيد أو أشقى ورما مؤلما فعلى المريض أن يدفع للطبيب ٥ شكلات من الفضة .

مادة ٢٢٢ - إذا كان ابن شخص من المشكينوم فعليه أن يدفع ٣ شقلات من الفضة .

مادة ٢٢٣ - إذا كان رقيقاً لسيد فعلى صاحب الرقيق أن يدفع شقطين من الفضة للطبيب .

مادة ٢٢٤ - إذا قام طبيب بيطرى بإجراء عملية كبيرة لثور أو حمار وأقصد حياته ، فإن صاحب الثور أو الحمار يعطى للبيطرى سدس ثمنه من الفضة .

مادة ٢٢٥ - إذا أجرى عملية كبيرة لثور أو حمار وتسبب في موته فإنه يعطى لصاحب الثور أو الحمار خمس ثمنه .

مادة ٢٢٩ - إذا قام بناء بتشديد منزل لسيد واسكنه لم يحم بعمله جيداً وكانت نتيجة ذلك انهيار المنزل الذى بناء ونشأ عن ذلك وفاة صاحب المنزل فإن هذا البناء يعدم .

مادة ٢٣٠ - إذا تسبب ذلك في وفاة ابن صاحب المنزل فإنهم يعدمون ابن ذلك البناء .

ولنسكتف الآن بهذه المواد من قانون حمورابى ولنعد إلى حديثنا عنه .
لم يتقدم حمورابى فى فتوحه نحو الشاطئ الفينيقى لأن بلاده المختلفة - كما ذكرنا - كانت مقسمة إلى دويلات كنعانية مثل أوجاريت (رأس الشمرة) فى الشمال وجبيل (بيبلوس) شمالى بيروت وكانت ذات صلة وثيقة بمصر . وفى متحف بيروت نرى الكثير من الآثار المصرية وبخاصة من الحلى الثمينة التى كان يهديها ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى ملوك جبيل . ولم يعثر على الآثار المصرية من ذلك العهد فى جبيل وأوجاريت فقط بل عثر عليها أيضاً فى قطنا فى المنطقة الوسطى من سوريا بل وفى دمشق .

كانت فينيقيا ملتقى حضارات عدة ، وكانت تصلها مصنوعات مصر وبابل وبلاد الأناضول وجزر بحر إيجة ، وبخاصة جزيرة كريت ، التى ازدهرت فيها الحضارة فى ذلك العهد ، وقد نتج من ذلك الامتزاج فيما بعد الفن الفينيقى الذى كان له شأن كبير .

الكاسيون في العراق والهكسوس في مصر :

شهد القرن الثامن عشر قبل الميلاد هجرات واسعة من أواسط آسيا فأنحدرت قبائل كثيرة في أوقات متفاوتة . كانت كلها قبائلا غير متقدمة في حضارتها ، بدوا رحلا من الجنس الذي سمي فيما بعد بالجنس الهندو - أوروبي أو الآري . نزلوا بنسائهم وأطفالهم وأمتعتهم وحيواناتهم ليستقروا في البلاد التي تفيض بالخير إلى الجنوب منهم . فاتجه بعضهم نحو الأفغانستان ووصلوا إلى وادي السند عن طريق عمر خير ، وقضوا على الحضارة القديمة هناك ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة في تلك البلاد . ونزل البعض الآخر إلى شمال العراق فاستقروا في وادي الفرات الأعلى وكان منهم الحريون والميتانيون ، وكان نزول تلك القبائل المهاجرة سبباً في القضاء النهائي على أسرة حمورابي في بابل وقد حدث ذلك على أيدي القبائل المعروفة باسم الكاسيين . واستقرت قبائل منهم قبل ذلك في الأناضول وكونوا دولة الحيثيين ، كما أخذت قبائل أخرى تصل إلى البلقان إما عن طريق الدوران حول البحر الأسود وإما عن طريق البوسفور والدرديل ، فأحدثت كثيراً من عدم الاستقرار هناك . ولم يقف أمر تلك الهجرات عند ذلك الحد بل نزل بعضها في مناطق سوريا وفلسطين ، وبعد أن استقروا فيها بعض الوقت وامتزجوا بأهلها ، اتخذ هذا الخليط من الناس طريقه غرباً إلى مصر وكانت إذ ذاك في إحدى فترات ضعفها ، فاستولوا على الدلتا ثم مدوا نفوذهم إلى باقي البلاد ، وهؤلاء هم القوم المعروفون باسم الهكسوس الذين نزلوا إلى مصر حوالي عام ١٧٣٠ قبل الميلاد . شهدت تلك الأيام القضاء على الكثير من مظاهر الحضارة في جميع مراكز المدنية في الشرق ، فتأخرت حالتها ولم تبدأ في استعادة شيء مما كان لها إلا بعد أن مر جيل أو جيلان على الغزاة الهمج ، وحكم من بعدهم بعض فسلهم الذين كانت نفوسهم قد تهذبت بعض الشيء واطبعوا بطابع المدنية . أما آباؤهم فكانوا يعيشون كما كانوا يعيشون في بلادهم ، رجال حرب في معسكرات ، يلتفون حول زعمائهم ، ويحيون في معسكرات حربية محصنة تتسع لعشرات الآلاف من الجنود ومعهم عرباتهم .

نزل الكاسيون إلى العراق فلم يلبث حتى تقطعت أوصاله وانقسم إلى دويلات تتطاحن فيما بينها ، فكانت هناك دولة ميتاني التي أشرنا إليها . ونشأت دولة في آشور في الشمال ، وأخرى في بابل في الوسط ، ورابعة وتسمى «شعب البحر» في الجنوب ، كما نشأت دولة أخرى في عيلام . وكانت مدينة بلاد العراق ، وهي بلاد عريقة في مدنيّتها ، أقوى من أن تزول . فسرعان ما نرى تلك الدول كلها وقد أخذت شيئا فشيئا تعود إلى دياتها القديمة ومظاهر فنونها ، ولكنها بقيت ضعيفة . وظلت كذلك أكثر من خمسمائة سنة حتى أخذت دولة آشور في الشمال تظهر كدولة قوية فأعادت إلى العراق وحدته ، وبدأت عهد توسع جديد ستقود عنه فيما بعد .

ضرب المكسوس ضربتهم في مصر ، ولكن حكمهم هناك لم يلبث إلا مائة وخمسين عاما ثم تمكن المصريون من إخراجهم من بلادهم . كان احتلال المكسوس لمصر أول إذلال عرقته في تاريخها ، فلماذا كان الدرس قاسيا عليهم ، وكان هذا التحدي داعيا للرد عليه . فلما جاء اليوم الذي اجتمعت فيه كبة أهل طيبة على الكفاح لم يهدأ للبصريين بال حتى وجدوا أنفسهم يطاردون العدو حتى أخرجوه من حدودهم ، فتحصن المكسوس في إحدى المدن في جنوبي فلسطين . وأدرك الملك أحسن الأول أنه إن يكون لعمله قيمة إذا ترك العدو قويا على مقربة من حدوده ، وأخيرا وبعد حصار دام ثلاث سنوات سقطت مدينة «شاروهن» التي تحصنوا فيها .

لقد ترك الفلاح المصري حقله وسار وراء قائده ينشد تحرير البلاد أو الاستشهاد في سبيلها فتم له ما أراد ، ولم يعد إلى القرية إلى بعد أن طهر أرضها من رجسه ، بل لم يعد إلى قريته إلا بعد أن وضع الحجر الأول في أساس الإمبراطورية المصرية .

الإمبراطورية المصرية :

كانت البلاد الآسيوية مقطعة الأوصال ، تقوم فيها «مدن - ولايات» متعددة يحكم بعضها أمراء من أهلها الأصليين ويحكم الأخرى أمراء اختلطت أنسابهم بالمهاجرين الهنود - أوروبيين الجدد ، أو من نسلهم الذين تطبعوا بطبع البلاد

وتحضروا بحضارتها . وليس أدل على هذا التفرق من أن الاتحاد الذي تكون تحت زعامة أمير قادش ليقف في وجه تحوتمس الثالث في قتوحه ، ولاقاه في معركة مجدو (حوالى ١٤٧٠ ق . م .) كان يجمع ثلاثمائة وثلاثين أميراً جاء كل منهم ومعه رجاله . فإذا كان ذلك الاتحاد وحده مكوناً من ٣٣٠ فكم كان عدد الحكام كلهم إذا أضفنا إلى ذلك بضع مئات أخرى كانوا قد انطوا تحت الحكم المصرى المباشر ، أو وقفوا إلى جانبه بتحالفتهم مع المصريين ، أو وقفوا بعيداً عن كل من التيارين .

على أى حال فقد حقق تحوتمس الثالث في حملاته الستة عشرة جميع أغراضه الحربية وعبرت جيوشه نهر الفرات ، ومن لم يصطدم منهم بالجيوش المصرية أرسل يطلب ود مصر ويقدم للملكها طاعته . ولم يقف الأمر عند بلاد الشام والعراق بل كانت جميع مدن شاطئ البحر الأبيض الشرقية وجزر ذلك البحر خاضعة للأسطول المصرى . ومن وصف معارك تحوتمس الثالث وابنه أمنحوتب الثانى ، ومن دراسة مئات المقابر فى طيبة التى خلفها كبار موظفى الإمبراطورية نستطيع أن نعرف الشئ الكثير عن تقدم الصناعة والفنون بل والحصانة بوجه عام فى تلك البلاد . ويمكن أن يقرأ الإنسان بيان ما استولى عليه الجيش المصرى من معركة مجدو ، وذلك البذخ والآبهة التى لازمت الأسماء المتحالفين ، أو يرى مناظر مختلف زعماء البلاد والأمم المرسومة على جدران مقابر طيبة وهم يأتون ومعهم هداياهم من مصنوعات بلادهم وخيراتهم ، ليعرف الشئ الكثير عن تقدم تلك البلاد بوجه عام ، ومظاهر أهلها وملابسهم وأسلحتهم . . . الخ .

انقد اتصلت مصر بآسيا وفتحت أبوابها للأسىويين ، ودياناتهم ، وصناعاتهم وموسيقاهم ، وغير ذلك من مظاهر الحضارة ، كما كان لاتصال المصريين من جنود وموظفين وغيرهم بتلك البلاد فى الحرب والسلم فى الوقت ذاته . باعثاً على إلسام المصريين بتلك البلاد أكثر من ذى قبل . وانتشرت المدنية المصرية فى ربوع كثيرة ، ولم تعد قاصرة على فلسطين والشاطىء الفيقيقى وجزء قليل من داخل الإقليم السورى ، كما كان الحال فى الدولة الوسطى . وقرأ فى مراسلات تل العمارنة الشئ

الكثير من صلة فراعنة مصر بحكام تلك البلاد ، ونستشف منها الكثير عن العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبابل وأشور وميتاني . ونحن نعرف أيضاً أن الملوك المصريين كانوا يتزوجون من بنات ملوك ميتاني وبابل وغيرها ، وأن بعضهم كان يأتي ومعه الوصيفات اللاتي كن يتزوجن أيضاً في مصر سواء كن كانوا في خدمة القصر أو من غيرهم . كانت أم الملك أمنحوتب الثالث ميتانية من أعلى القرآت ، وقد تزوج هو نفسه بأكثر من واحدة من الأميرات الميتانيات ، وقد حضرت إحداهن وهي « كيلوجيبا » ومعهما ٣١٧ وصيفة .

وظل النفوذ المصري قوياً في آسيا طالما كان فراعنتها من المحاربين الذين كانوا يخرجون على رأس جيوشهم ، فلما ركنوا إلى الدعة وملذات القصور ، وما يأتي إليهم من خيرات آسيا والاستمتاع بالجوارى والغناء ، أخذت السحب تتجمع ، خصوصاً وأن الحيثيين في بلاد الأناضول بدأوا يدخلون في دور من أدوار قوتهم إذ ذاك .

وإذا درسنا تاريخ هذا الجزء من العالم في مختلف العصور نجد أن الظروف تقضى بأن ينشأ في كل من مصر والعراق والأناضول دولة قوية هامة بالنسبة لمن يجاورها . ومن العسير جداً إذا كانت واحدة أو أكثر من هذه الدول الثلاثة على شيء من القوة أن تتحد فيما بينها لأن كلا منها تخاف على نفسها وحدودها ، وتخشى من استيلاء واحدة من الاثنين الآخرين على منطقة سوريا ، فإنها إن تم لها ذلك تصبح قوية وخطراً مباشراً على الدولتين الأخرتين . لهذا نرى التنافس بينها شديداً ، وإما أن يتفق اثنان على الثالثة أو تخضع جميعا لحكم أجنبي ، وإن ظهرت دولة قوية في تلك البلاد (أى الواقعة بين القوى الثلاثة) فمن الصعب عليها أن تعمر وقتاً طويلاً اللهم إلا إذا كانت تلك الدول الكبرى الثلاثة تجتاز فترات ضعف واقسام داخليين .

وما حل عام ١٢٠٠ قبل الميلاد حتى نرى الصورة في بلاد الشرق الأدنى القديم وقد تغيرت معالمها . ويرجع ذلك إلى موجات كبيرة متتالية من هجرات الشعوب الهندو - أوروبية التي نزلت كالجراد فقصت على الحيثيين ، وفككت عرى

غربي آسيا ولم تجد في مصر دولة قوية لتوقفها . كما أن هذه الشعوب ذاتها اندفعت نحو البلقان فأحدث ذلك سلسلة متعاقبة من الهجرات كان من بينها هجرات شعوب البحر التي كانت تقطن في جنوب وفي غرب أوروبا ، واضطرت تحت ضغط أولئك المهاجرين للبحث عن مواطن جديدة . وأرادوا غزو مصر بعد شمال إفريقيا وبعد سوريا ، ولكن مصر انتصرت عليهم . صدمهم منفتح (مرنبتاح) فأعادوا السكر في عهد رمسيس الثالث (حوالى ١١٨٠ ق م) ، غزوها عن طريق البر وعن طريق البحر فصدتهم أساطيل مصر وجيوشها وفرقت شملهم . ونرى مناظر هذه المعركة البحرية الكبيرة ، وهي أول صدام سجلت مناظره بين مصر والشعوب الأوروبية ، على جدران معبد مدينة هابو في طيبة . أنقذت مصر نفسها وأنقذت الشرق ، ففترقت هذه الشعوب المتحالفة واستقر كل فريق منهم في المكان الذي استطاع أن يثبت فيه أقدامه ، وقد بقيت أسماؤهم حتى الآن تدل على تلك البلاد مثل شعب البلست الذي استقر في المنطقة التي عرفت منذ ذلك الوقت باسم فلسطين وشعب الشردين الذي ترك اسمه في سردينيا وشعب الشكل في جزيرة صقلية وغير ذلك .

وظهرت مرة أخرى دويلات مستقلة ، وأخذ بعضها يتقدم في مدنيته مثل الفينيقيين الذين كانوا في مدن الساحل الشرقي للبحر الأبيض ، كما أخذت قبائل أخرى سامية تغد من الصحراء لتستقر في البلاد التي تفيض بالخيرات مثل قبائل العبرانيين التي أخذت تنازع الفلسطينيين ، ثم تأسست بعد ذلك مملكة داود وابنه سليمان ، وقد لعب كل من الفينيقيين والعبرانيين دوراً هاماً في تاريخ العالم سنشير إليه مرة أخرى عند الكلام على تاريخ سوريا . ولكن للأمم القديمة فترات تمر بها بين ضعف وقوة ، وما هي إلا دورة أخرى حتى نرى المراكز القوية الثلاثة في جنوب غربي آسيا وهي العراق والأناضول ومصر ، وقد أخذت تستعيد حيويتها ونشاطها ، كما نرى أيضاً حضارة أخرى أخذت تتكون وتبسط نفوذها وهي الحضارة اليونانية وريثة الحضارة المينوية في كريت .

ولم تلبث تلك الشعوب حتى أخذت تعمل جاهدة لاستعادة مكاتها ، فأما مصر فأخذت تقوم وتكبر متعرضة أولاً لحكم رجال الدين ثم حكم عائلة أخرى

كان أجدادها من مرتزقة الجنود الذين كانوا قد استوطنوا ليبيا من شعوب البحر إلى أن جاء اليوم الذى تقدم فيه ملوك نباتا في شمال السودان وكانوا أصلاً من الكهنة المصريين الذين فروا إلى الجنوب ، ففzوا شمال الوادى وأعادوا لمصر وحدنها مرة أخرى ، بل وأخذ طهرقابن بيعنخى يفكر فى إعادة ما كان لمصر من أملاك ونفوذ فى جنوب غربى آسيا فتم له استعادة جزء منها ، وعلى الأخص فلسطين وبعض مدن الشاطئ .

الإمبراطورية الآشورية :

ولكن آشور فى شمالى العراق ، كانت قد استطاعت فى ذلك العهد أن تستولى على كل دويلات بلاد الرافدين وقضت على كل من ناراها ، ثم تطلعت بأبصارها إلى سوريا فاستولت على جزء كبير منها وأصبحت وجهاً لوجه أمام مصر . وأخيراً انتهى الأمر بهجوم الملك الآشورى دأسرحدون ، على مصر ثم استيلاء ابنه آشور بانينال على طيبة ، وبذلك أصبحت آشور سيدة بلاد الشرق الأدنى دون منازع .

ولكن قبضة آشور الحديدية سرعان ما أصابها الوهن ، ودالت دولة آشور نفسها واستولت منافستها القديمة مدينة بابل مدينة على نينوى عاصمة الآشوريين وخربتها ، وعادت مصر وغيرها من الدول التى خضعت للإمبراطورية الآشورية إلى سابق عهدها .

ولكن قبل أن أترك دولة آشور أحب أن أشير إلى موضوع العرب . كانت شبه الجزيرة العربية بعيدة عن طريق الجيوش المتطاحنة بين العراق والآناضول ومصر . ولكنها مع تلك العزلة النسبية فى الأمور السياسية كانت على صلة بطرق التجارة العالمية ، سواء ما كان منها فى البحر الأحمر أو ما كان يخترقها من جنوبها إلى شمالها أو من شرقها إلى غربها من طرق القوافل . كانت تجارة البخور من أهم السلع المطلوبة فى العالم القديم ، ولكن كلمة العرب لم ترد فى أى وثيقة تاريخية فى العصور القديمة قبل أيام الملك الآشورى تيجلات — بلشّر

الثالث في القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان يشير إلى إحدى القبائل التي تقطن في شمالي الجزيرة العربية . وبلغت آشور قمة مجدها في عهد أسر حنون وأشور بانديال ، أى في القرن السابع قبل الميلاد ، ولكن آشور انتهى أمرها في القرن نفسه وبدأت الإمبراطورية الكلدانية ، أو كما يسميها البعض دولة بابل الجديدة ، في عام ٦٢٦ ق . م . ولم تعمر إلا أربعة وثمانين عاماً فقط عندما ظهرت دولة الفرس وهي إحدى الدول التي أسستها الشعوب الهندو - أوروبية أو الآرية ، واستولت على بابل عاصمة الكلدان في عام ٥٣٨ قبل الميلاد .

كانت نخامة العواصم العراقية مضرب المثل في العالم القديم حواء ما كان منها في نينوى في الشمال أو في بابل في الجنوب ، وكان لدول آشور وبابل فضل لا ينكر على سير الحضارة العالمية ، ومن معينها أخذ الفرس - كما أخذ اليونان من قبل . ومهما أجهلنا في ذكر ملوك هذه البلاد فإننا لا يمكننا أن نمر بالملك بختنصر الذي بلغت في عهده الدولة الكلدانية ، أو بابل الجديدة كما يسميها البعض ، أوج مجدها . وهو الذي استولى على أورشليم وهدم هيكل سليمان وفرق اليهود وسباهم في بابل .

القرن السابع قبل الميلاد :

كان القرن السابع قبل الميلاد فترة من الفترات الغريبة في تاريخ البشرية . رأينا فيه ازدهار الحضارة في العراق ، ونعرف أنه حدث فيه أيضاً انتعاش مصر العظيم في عهد الأسرة السادسة والعشرين ونهضتها التي كادت أن تعيد بها مجدها القديم . كما نرى فيه أيضاً نهضة الفريجيين ثم الليديين في آسيا الصغرى ، وفيه انتشرت تعاليم كونفوشيوس في الصين ، وولدت خلاله في الهند الديانة الجينية ذات الأثر المباشر على ظهور الديانة البوذية بعد قليل ، وبدأت فيه ديانة زرادشت في هضبة إيران كما أخذت اليونان في هذا القرن نفسه تتقدم بخطى سريعة وأصبحت عاملاً هاماً لا يمكن إغفاله في سياسة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفي الصراع على تجارته .

ولم يكن في وسع مصر أن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الصراع الفكري والسياسي والتجاري في هذا الجزء من العالم فبذلت كل ما استطاعته للمحافظة على كيائها . ولعب ملوك الأسرة السادسة والعشرين دورهم بعمارة ، وكان التنافس على التجارة هو أهم عامل في توجيه السياسة ، فلمذا نرى الملك المصري نكاو الثاني يحاول إعادة المشروع القديم الذي بدأه ملوك الأسرة الثانية عشرة على الأرجح وهو توصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر بواسطة النيل ، وذلك بحفر قناة توصل بين شرق الدلتا والبحيرات على مقربة من مدينة الاسماعيلية الحالية ، وهي نفس فكرة قناة السويس . ولكن نكاو اضطر لإيقاف هذا المشروع بعد تضحيات كثيرة نزولا على وحى من هيكل مدينة بوتو بأن هذا العمل ضار بمصر وإن يستفيد منه إلا أعداؤها الهمج . كما نعرف أيضا أنه حدث في ذلك العهد أن أرسل هذا الملك ثلاث سفن كبيرة في البحر الأحمر ، كان بحارتها من الفينيقيين ، ليكتشفوا سواحل إفريقيا فتم ذلك في خلال ثلاث سنوات وعادوا إلى مصر عن طريق بوغاز جبل طارق .

الفرس واليونان :

وبينا كان ذلك التنافس على أشده ظهر في بلاد إيران حاكم من زعماء القبائل ، وبسرعة أذهلت كل الشعوب قضى على كل منافسيه وقضى على ملكه بابل الجديدة وعلى ملكه ليديا في آسيا الصغرى ، وخضعت له أكثر البلاد السورية ، ولم يبق أمام قورش إلا مصر فأخذ يستعد لمهاجمتها ، ولكنه مات قبل أن يحقق هذه الأمنية فتمت على يدى ابنه قمبيز بمساعدة وخيانة بعض اليونانيين الذين كانوا في خدمة الجيش المصري .

أصبحت دولة فارس الجديدة سيدة بلاد الشرق الأدنى دون منازع وكانت إمبراطوريتها أعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم ، ولم يبق أمام دارا الأول إلا أن يستولى على اليونان ليصبح سيد العالم كله ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق .

كان الصراع بين الفرس واليونان صراعاً بين آسيا وأوروبا ، أو بين الشرق والغرب ، وبين بلاد الشرق القديمة وبين تلك الدولة الناشئة في أوروبا ، صراعاً بين دولة أنهمكها البذخ والإقبال على الملذات ونهب الشعوب واستغلالها ، وبين شعب قتي أخذ يتطلع ليحتل له مكاناً في هذه الأرض . فلما تولى الإسكندر عرش مقدونيا خلفاً لأبيه سار يفتح الأمصار حتى قضى على فارس وأصبح في سنوات معدودات حاكماً لجميع الشعوب .

لم يكن الإسكندر الأكبر قائداً بمتازاً فحسب ولكنه كان سياسياً بعيد المطامع ، وله آراء وأهداف اجتماعية يؤمن بها ويسعى لتحقيقها . أراد الإسكندر أن يجعل من ملكه الكبير دولة واحدة موحدة الثقافة . فزوج أميرة فارسية ، وأمر أتباعه أن يحذروا حذوه كما قرر أيضاً أن يجعل عاصمة ملكه الذي امتد شرقاً حتى الهند في مدينة بابل القديمة التي أخذ يصلح ما تهدم منها ليعيد إليها مجدها القديم .

وأخيراً في عام ٣٢٣ ق . م . مات الإسكندر في مدينة بابل وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره ، فتحطمت أطماعه بموته ، وتقاسم قواده الأمصار المختلفة بينهم . وإذا كان الإسكندر لم يحقق حلمه في جعل العالم القديم أمة واحدة تحت حكمه ، فإن النفوذ الهلينستي ، وبخاصة في الفنون ، أخذ ينتشر انتشاراً واسعاً في الشرق ، ومنذ هذا الوقت يدخل تاريخ بلاد الشرق في دورة أخرى كبيرة من دوراته .

والآن ، وقد انتهينا من هذا العرض السريع ، فليقف قليلاً لسرد بعض ما قدمه هذا الشرق للعالم وما تدين به المدنية الإنسانية له .

لقد استطاع ساكنوه هذا الجزء من العالم الذي نسميه الآن الشرق الأدنى أن يحققوا الكثير من الأمور التي لولاها ما استطاع ركب المدنية أن يسير في تقدمه إلى الأمام .

لقد استطاع ساكنوه أن يستأنسوا ببعض الحيوانات النافعة التي أمدتهم بالغذاء والكساء ، ودرجوا بعض النباتات وزرعوها فتعلم الإنسان الاستقرار ،

وكان لذلك نتائج ثورية في حياته . علمته الزراعة معنى التعاون ، وعلمته أيضاً أنه في حاجة إلى الزعامة المطاعة ، ووضع بعض القواعد لتنظيم حياته وابتكر كثيراً من الأدوات النافعة له . كما ابتكر أيضاً بعض الآلات ، وعرف صناعة المعادن ، وكان أهم اختراع له بعد الزراعة هو اختراعه للكتابة . تم هذا كله ، وكثير غيره ، قبل أن يشرق عليه مطلع الألف الثالث قبل الميلاد عندما دخل إزذاك في عصره التاريخي .

وأخذ منذ هذا التاريخ يثب وثباً في تقدمه ، وبخاصة في مصر والعراق . فنظم قوانينه، ونظم وظائف الدولة، ورتب أمور دينه ، لأنه كان يؤمن بالبعث. وعرف أيضاً كيف يبني ويشيد ، فأقام المعابد والأهرام وتقدم في الصناعات والعلوم المختلفة وعلى الأخص في علم الطب . ووصل في كثير من تلك الصناعات إلى درجة من السمو ما دلنا نحسده عليها حتى اليوم وذلك قبل أن ينتصف الألف الثالث ، وكانت مصر في هذه الفترة هي المسرح الذي تحققت فوقه أكثر المعجزات . وقام أيضاً ساكنو العراق بنصيبهم الكبير ، وحققوا الكثير من عناصر التقدم مستقلين عن مصر ، وأقاموا لآلهتهم المختلفة كثيراً من المعابد والرقورات ، وسنوا القوانين الكثيرة ، وخلفوا للعالم الشيء الكثير من الأدب وأساطير الآلهة التي كان لها ، بل وما زال لها حتى الآن ، أثر كبير على التفكير الإنساني لا في العراق أو في بلاد الشرق الأدنى وحسب بل وفي العالم كله . وفي هذا الجزء من العالم قامت أعظم الإمبراطوريات ونشأت أول الجيوش المنظمة وشيدت أعظم القصور ، وكان ذلك قبل أن تنزل عليه الهجرات الآرية الكبيرة في الألف الثاني قبل الميلاد ، فتحطم ما أمامها كالعاصفة وتترك وراءها الخراب . ولكن سرعان ما استطاع هذا الشرق أن يفيق من ذهوله ، واستوعب أولئك الغامحين فعلهم الحضارة ولين النفس . كان هذا كله قبل أن يكون لأي شعب من سكان القارة الأوروبية أي شأن ، بل كانوا يعيشون في مصورهم الباليوليتية والميزوليتية ثم النيوليتية ولم يتقدموا إلا بعد أن اتصلوا بالشرق وعلومه ، وخصوصاً عندما تقدم الأناضول وشمال سوريا بفضل حضارتى مصر والعراق ، وكانا النبراس الذي

اكتفى بهديه ونوره من اتصل بهم من سكان أوروبا . وقد اعترف اليونان
الاقدمون — بل أنهم في الواقع كانوا يفخرون ويعتزون — بأنهم تعلموا أكثر
أصول حضارتهم من مصر أو من بابل . إن تاريخ الشرق القديم صراع مستمر ،
نراه تارة بين سكان الجبال وسكان السهول ، وتارة أخرى بين سكان البادية
وسكان القرى المزروعة ، أو نراه على نطاق واسع بين الشعوب السامية وغيرها
من الشعوب . وما زال هذا الشرق يصطلى بهذا الصراع حتى اليوم لأنه كان ،
وما زال ، مطمعا للطامعين ، إن لم يكن بأرضه الغنية ومدنياته وخيراتاته ، فيما
تحتويه أراضيها من ثروات معدنية عظيمة ، وموارد اقتصادية هائلة .

لقد أثرت ديانات الشرق القديم على التفكير والخلق الإنساني بوجه عام ، بل
وما زالت بعض خرافاته القديمة سائدة بين شعوب أوروبا وحيثما وصل النفوذ
الأوروبي الحديث . ولكن هذا الشرق عينه ، وهذا الجزء من الشرق العربي
بالذات ، هو الذي قدم للإنسانية ثلاثة من أعظم معلمها وأبطال دياناتها السماوية
التي يعتز بها البشر أجمع . لقد ولد موسى ونشأ في مصر ، ولم يكن قومه العبرانيون
إلا من أهل هذا الشرق ، وربما من شمال الجزيرة العربية أو من أرض القرات ،
ولكنهم كانوا يعيشون إذ ذاك في مصر ، وكان عيسى سورياً ولد ونشأ في
فلسطين ، وولد محمد في مكة في سطر الجزيرة العربية . حقا إن النور يطلع دائما
من الشرق .



الفصل الثالث

سُورِيَا

موقعها الجغرافي :

إذا تحدثنا عن سوريا في التاريخ فإننا لا نقصد بها سوريا بحدودها السياسية الحالية^(١) ، وإنما نعني المنطقة التي أطلق عليها هذا الاسم في جميع عصور التاريخ حتى آخر أيام الحرب العالمية الأولى ، وتغطي أوصالها بعد ذلك على يد الاستعمار الأجنبي^(٢) . لحدود سوريا أو بلاد الشام هي من ناحية الشرق صحراء العراق ، ومن الغرب ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويحدها من الشمال جبال طوروس في جنوب الأناضول ومن الجنوب صحراء شبه الجزيرة العربية أي أنها كانت تشمل لبنان وشرق الأردن وجزءاً كبيراً من فلسطين ، وبعبارة أخرى هي المنطقة التي تقع بين بلاد النهرين وخليتا ومصر ، وهذا ما جعل سوريا في جميع العصور - اللهم إلا في فترات محدودة من تاريخها - معرضة لاطماع ما ينشأ في تلك البلاد من امبراطوريات ، أو ميداناً للصراع بينها . فشاهدت جبالها ووديانها كثيراً من جيوش الأمم المختلفة من بابل ومن آشور ، ومن مصر ومن إيران ومن خيتا ،

(١) مساحة سوريا الحالية ٦٦,٠٦٣ ميلاً مربعاً وتعداد سكانها نحو أربعة ملايين .

(٢) قضت سياسة الاستعمار بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني وكذلك منطقة الأردن ، أما لبنان وسوريا فوضعتا تحت الانتداب الفرنسي . ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل قسموا منطقة انتدابهم ، فأعلنوا في عام ١٩٢٥ أن كلا من لبنان وسوريا قد أصبحا دولتين مستقلتين عن الأخرى ، وأخذوا أيضاً في تمزيق ما بقي من سوريا نفسها فقسموها إلى مناطق أخرى مستقلة في إدارتها وخلقوا قضاء جبل الدروز وقضاء اللاذقية . وقبل الحرب العالمية الثانية تنازلوا للأتراك عن لواء الأسكندرونة ، وهو من أهم المناطق في سوريا وفي سبتمبر سنة ١٩٤١ أعلنت جمهورية سوريا ، وفي نوفمبر من العام ذاته أعلنت الجمهورية اللبنانية ، وفي أول يناير ١٩٤٤ تم إعلان استقلال سوريا النهائي ، ولكن السحاب الجنود الأجانب لم يتم إلا في ١٧ أبريل ١٩٤٦ .

ثم شاهدت أيضا جيوش الإسكندر ومن بعده الرومان . وجاءها العرب ومن بعدهم المغول ثم الترك ، وكانت أيضاً ميدان الصراع في أيام الحروب الصليبية ، وتعرضت في أيامنا الحالية لاستعمار الغرب وويلاته . ولكن بالرغم من ذلك كله فقد بقي للبلاد طابعها الخاص بالرغم من أنها غيرت ديارتها ولغتها أكثر من مرة .

وتتمتاز سوريا باختلاف بيئتها الجغرافية . ففيها سهول ساحلية خصبة ذات موانئ بحرية صالحة ، وفيها وديان وفيها جبال وعرة تتخللها مناطق أشبه بالواحات تتمتاز بخصوبة ما حولها من أراضي . كما توجد فيها أيضاً مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة ، ولكن قلة مشروحات الري وقلة الأيدي العاملة حالت دون استغلالها . وفيها أيضاً مساحات صحراوية واسعة لا تقل عن أربعة ملايين فدان من المجموع الذي يبلغ نحو اثني عشر مليوناً من الأفدنة^(١) .

وتتمتاز سوريا بجبالها ووديانها ، ولما كنا لو أمعنا النظر لوجدنا أنها يمكن أن نقول عنها إنها مقسمة طويلاً إلى خمسة أقسام أولها المنطقة الساحلية وتمتد من خليج الإسكندرونة عند جبال أمانوس ، أحد امتدادات جبال ماوروس ، حتى شبه جزيرة سيناء ، ويحد هذا القسم من الشرق سلسلة جبال عالية تقرب في بعض الأماكن اقتراباً كبيراً من الساحل وبخاصة في لبنان وتبتعد عنه في بعض الأجزاء مثل فلسطين ، ويبلغ طوله بأكمله من الإسكندرونة حتى الحدود المصرية أكثر قليلاً من ٧٠٠ كيلو متراً . أما ثاني الأقسام فهو تلك السلسلة من الجبال التي تسمى جبال لبنان ، وهي تمتد من أقصى الشمال حتى السويس ، وليس فيها فتحات ذات أهمية إلا تلك التي عند خليج الإسكندرونة حيث يسير الطريق التجاري الكبير الموصل إلى ما بين النهرين ، وفتحة أخرى في شمال طرابلس في وادي نهر الكلب الكبير (اليثيوس Eleutheros) وفي شرق حيفا عند مهل أزدريلون (Esdraelon - مرج ابن عامر) . وأعلى قمم جبال لبنان هي القرنة السوداء وارتفاعها ١١,٠٢٤ قدماً عن سطح البحر ، ويليهما ظهر القضيبي وهي تقل عنها نحو مائة قدم .

(١) الأرض الصالحة للزراعة والمزروعة فعلاً في مصر لا تزيد مساحتها عن ستة ملايين من الأفدنة وهي لا تزيد في مجموعها عن ٤٪ من مساحة مصر كلها ، أما الباقي فهو صحراء .

وتحتضن غابة الأرز الشهيرة ، ثم تأتي بعد ذلك قمة سنين وهي تقل عن ظهر القضيبي بمائة قدم في ارتفاعها ، وتقع مدينة بيروت تحتها .

وثالث الأقسام هي المنطقة التي تقع إلى الشرق من سلسلة الجبال العالية وتمتد من الشمال عند الانحناء الغربية لنهر العاصي ، وهو وادي طويل تمتد من الشمال إلى الجنوب يسمى « العمق » في الشمال وفيه مدينة حماة التي ترتفع ١٠١٥ قدما عن سطح البحر ، ويسمى البقاع في لبنان ويمتد حتى يتصل بوادي الأردن والبحر الميت ثم وادي عربة حتى خليج العقبة . وفي الجزء الأسفل منه ينخفض هذا السهل انخفاضاً سريعاً إلى حد كبير ، فبينما نعرف أن مستوى قاع بحيرة الحولة ٧ أقدام فوق سطح البحر نعرف أن مستوى قاع بحيرة طبرية ٦٨٥ قدما تحت سطح البحر وقاع البحر الميت ١٢٩٢ قدما تحت سطح البحر .

أما وادي البقاع في لبنان فإن عرضه يتراوح بين تسعة كيلو مترات ونصف وستة عشر كيلو مترا ، وارتفاعه عن سطح البحر عند بعلبك ٣٧٧٠ قدما ، وعلى مقربة منه يتفرع نهران أحدهما نهر العاصي أكبر أنهار سوريا ويتجه نحو الشمال ، ونهر اليطاني الذي يتجه نحو الجنوب ويصب في البحر بين صيدا وصور . أما وادي الأردن فيبلغ طوله نحو ١٠٠ كيلو مترا في الطول وبين ٤ و ٢٢ كيلو مترا في العرض .

والقسم الرابع هو سلسلة الجبال الأخرى التي تحد العمق والبقاع من الناحية الشرقية ، وهي تبدأ من جنوبي حمص وتسير موازية لجبال لبنان حيث تسمى أتي لبنان أو لبنان الشرقية ثم تنخفض عند جبل الشيخ (جبل هرمون القديم وقد ذكره المقدسي الجغرافي العربي باسم جبل الحاج) إلى منطقة حوران التي تمتد بعد ذلك إلى شرق الأردن ثم إلى جبل جلعاد وهضبة موآب جنوبي البحر الميت .

وتنقسم جبال أتي لبنان أو لبنان الشرقية إلى قسمين شمالي وجنوبي ، تقسمها الهضبة ونهر بردى (نهر أبانا في العصور القديمة) ، والجنوبي هو الأهم ، ونجد فيه اخصب مناطق سوريا حول دمشق وبيروها نهر بردى . وحوران وجبل الدروز

منطقة بركانية التكوين ولكنها خصبة وفيها زراعات واسعة ، ومن حوران نرى امتداد هذه السلسلة في شرق الأردن حتى تصل أخيراً إلى بطرا في الجنوب .

وغاص الأقسام هو الصحراء السورية الممتدة حتى العراق ، وهي في الواقع امتداد للصحراء العربية ، وهذه الصحراء مثلث واسع يرتكز طرف منه في خليج العرب في الغرب والطرف الثاني عند خليج الكويت في الشرق ورأسه عند حلب في الشمال .

ويعيش في هذه الصحراء الواسعة أقوام من البدو كانوا منذ فجر التاريخ المتحكين في دروب القوافل التي تمر هناك ، وكانوا دائماً أشبه بخزان إنساني يمد المدن السورية بسكان يأتون ليستقروا في المدن . وكان هناك أيضاً منذ فجر التاريخ ذلك الطمع الذي يملأ صدر البدوي الذي لا يكاد يمتلك شيئاً ضد ساكني المدن الذين يجمعون الثروة ، وينظر دائماً إلى الحداق والحقول نظرة إعزاز وإكبار ، ويتمنى أن تصبح خيراتها مأكلاً له . ولكن من الصعب عليه أن يترك حياة الحرية التي يحياها أو يتغير بسرعة فيستقر في الأرض ويعمل في خدمتها ، مثله الأعلى هو الحصول على خيراتها دون أن يعمل هو شيئاً بيده في زراعتها ، وإن عمل شيئاً فأحب شيء إلى نفسه هو الاستيلاء عليها أو نهب ما فيها إذا أمن العاقبة والعقاب.

وكان من أثر اختلاف البيئة الجغرافية اختلاف السكان فمنهم البدو أو العشائر ومنهم سكان الجبال ، ومنهم أيضاً سكان المناطق الساحلية وسكان المدن العامرة . ولهذا لا يدهشنا أن نرى في كثير من مناطقها الجبلية المنعزلة بقايا من شعوب وديانات قديمة زالت من البلاد الأخرى ولكنها بقيت في سوريا ، مثل السامريين اليهود في نابلس والدروز الذين يعيشون في جبل الدروز في حوران وغيرها من الجهات ، والمارون في لبنان والنصيرية في بلاد العلويين ، وبعض المذاهب الباطنية الأخرى ، كما بقيت أيضاً بعض اللغات القديمة مستخدمة بين أهلها مثل اللغة السورية .

وإذا كانت طبيعة البلاد السورية ، وموقعها الجغرافي ، قد أثرا على تاريخها فإن هناك عاملاً آخر لا يقل في أهميته ، وذلك هو الصراع الذي لم ينقطع منذ

لجهر التاريخ بين البسندو والخصر . فن الجزيرة العربية ، ومن صحراء العراق ، بل ومن الصحراء السورية أيضاً كان البدو دائماً يتطلعون إلى مروجها الخضراء وسنرى أن ذلك استمر طيلة أيام تاريخها وما زال مستمر حتى اليوم .

عصر ما قبل التاريخ :

لقد أشرت إلى تاريخ سوريا في عصر ما قبل التاريخ عند حديثي في الفصل الأول عن أقدم الحضارات ، وذكرت بعض مناطقها الأثرية القديمة ، والآثـر أتحدث عنها بشيء من التفصيل .

أمدتنا المناطق الأثرية في سوريا بمعلومات في الدرجة الأولى من الأهمية عن عصر ما قبل التاريخ في بلاد الشرق ، إذ عثر على كثير من آثار العصر الحجري القديم في كثير من الأنحاء نذكر منها عدلون (بين صيدا وصور) وفي أنطلياس ، وفي كهوف جبل الكرمل (في مغارة الطابون) وكلها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وفي منطقة الجليلية جنوبي الناصرة (في مغارة أم قطفة) وعلى مقربة من بحيرة طبرية (في مغارة الزطية) في وادي العمود ، وفي أريحا ، وفي وسط سوريا أيضاً في جبرود ، وفي رأس الشمرة (أوجاريت) في الشمال (١) .

ومن لخص الهياكل العظمية التي عثر عليها في جبل الكرمل والجماجم التي وجدت في مغارة الزطية أمكن الاستدلال على أنها من نوع إنسان النياندرتال مع بعض المميزات الخاصة بالإنسان العاقل (هوموسابينس) . وعثر أيضاً على كثير من الأدوات الطرانية التي استخدمها السكان القدماء الذين عاشوا في العصر الباليوليتي الأوسط كما عثر على بقايا حيوانات لم يعد لها وجود الآن في هذه البقعة من العالم مثل الخرتيت (ويبدأ القرن) وفرس النهر ، وحيوان يشبه الفيل .

وبدأ بعد ذلك العصر النيوليتي ، أو العصر الحجري الحديث ، ويسمى أحياناً عصر قبيل التاريخ وكان ذلك حوالي عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد . ونرى فيه بواكير

Theodore D. Mc Cown and Arthur Keith, *The Stone Age of Mount (١) Carmel Vol. II (1939)* . cf. Ph. K. Hitti, *History of Syria (1951)*, p. 11.

ظهور الحضارة في كثير من بلاد الشرق الأدنى مثل سيمالك في إيران وجارمو وتل حسونة في العراق . ونجد من نفس العصر في سوريا أقدم الطبقات في بيبيلوس وفي أوجاريت وفي حماه وفي أريحا . وحوالي عام ٤٠٠٠ ق . م نجد أن الآواني الفخارية ، وبعضها ملون ومزخرف ، قد بدأ يعم استعمالها ونجد بين زخارفها أشكالاً تمثل حيوانات وبخاصة بعض أنواع الأيائل والطيور والأسماك ، وبعض زخارف الزهور . ونرى بعد ذلك تقدماً واضحاً فيما عثر عليه في تل حلف (أو آل حلف) على مقربة من نهر الخابور في شمالى سوريا على مقربة من الحدود التركية (١) ، وقد امتازت هذه الحضارة بأوانها الفخارية المزخرفة بزخارف ذات ألوان ورسومات متعددة تشهد لهم بالتقدم العظيم في الفن والمذوق .

كانت حلف مركزاً لهذا التقدم الحضارى الذى انتشر في البلاد الواقعة إلى الشرق منهم (في العراق الحالية) وفي مرسين في الأناضول . وفي كثير من مناطق أعالي الفرات مما يدل على زيادة الصلة التجارية في ذلك العهد .

ولم يكن استخدام الفخار وحده هو الشيء الذى يدل على بداية العصر النيوليتى بل يصحبه أيضاً معرفة التعدين ، ويمكننا أن نقول إنه حوالي عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد نجد ما يدل على معرفة التعدين واستخدام الأدوات المعدنية جنباً إلى جنب مع الفخار . نرى ذلك في أوجاريت وغيرها من مناطق سوريا الشمالية وفي فلسطين مثل تليلات الغسول شمالى البحر الميت .

لقد عرف سكان سوريا القدماء استخدام النحاس ، ويميل بعض المؤرخين إلى القول بأن باقى سكان غربى آسيا قد تعلموا منهم ذلك . ولكن هذا الزعم في حاجة إلى الدليل ، وربما كان العكس هو الأصح ، إذ نعرف أن تعدين النحاس كان معروفاً أيضاً في مصر في عصر البدارى وأن استغلال مناجم النحاس في سيناء ، كان معروفاً للصيريين منذ أقدم العصور .

(١) الاسم القديم لهذه المدينة هو « جوزانا » . خرها أوبنهايم .

Max F. von Oppenheim, *Der Tell Halaf* (Leipzig 1931).

ونرى في تليلات الفسول^(١) أنهم لم يعرفوا النحاس فحسب بل بدأوا أيضا
بمرفون فن البناء ، وكانت لهم منازل مستطيلة الشكل أساسها من كتل الأحجار
وجدرانها من الطوب اللبن ، وكانوا يسقفونها بأعواد الباتات ومن فوقها الطين .

وبما نلاحظه في تليلات الفسول أنهم كانوا يدفنون الأطفال داخل أواني
خارية تحت أرضية غرف المنزل . كما نلاحظ أيضا أن عادة حرق الجثث كانت
معروفة بينهم ، وكانت عادة دفن الأطفال في الأواني عادة منتشرة في مناطق أخرى
في سوريا مثل أوجاريت وتل الجزر (جزر) جنوب شرق الرملة في فلسطين .
وعلى ذكر جزر وآثارها يمكننا أن نضيف إلى معلوماتنا عن ذلك العصر أنهم
بدأوا يضعون مع الموتي أواني فخارية فيها المأكول والمشرب ، مما يدل على
وجود ديانة بينهم ، وإيمان بالبعث . كما عثر أيضا تحت الهيكل في ذلك التل على
بقايا من حيوان الخنزير الذي كان يقدمه سكان سوريا القدماء إلى آلهتهم . وربما
كان ذلك التكريم سببا لكراهية الساميين لهذا الحيوان^(٢) ، وهم الذين وفدوا
بعد ذلك إلى تلك البلاد وحاربوا أهلها ، وناصبهم العداة ثم حلوا فيها .

ومن نتائج حفائر تل الجزر نعرف أن سكان سوريا كانوا قد أنموا
استئناس وتدجين كثير من الحيوانات والنباتات ، ومن أهم النباتات التي عثر
على بقاياها ، العنب والزيتون ، وكانوا يعصرونهما في ذلك العهد البعيد ، والتين
والقمح والشعير وبعض الخضروات مثل البصل والثوم والخص والفول والخبس
وغيرها . ومن المرجح جداً أن يكون سكان شرق آسيا (الصين) قد وصل إليهم
القمح من غربي آسيا كما وصل إليها الثور والضأن أيضاً من هذه المنطقة بعد
استئناسها فيها^(٣) .

(١) Alexis Mallon, *Telilat Ghassal I* (Rome, 1932) : Robert Koeppel, *(١)*
Telilat Ghassal II (Rome, 1940).

(٢) R. A. MacIster, *The Excavations of Gezer, 3 Vols* (London 1912).
see also, Hill, *History of Syria* (London 1951), p. 25.

(٣) C.W. Bishop, *The Beginning of Civilization in Eastern Asia. in* (٣)
Journal of the American Oriental Society, Vol. LXI Suppl. (December,
1939).

وفي عصر تلييلات الفسول أخذت الحضارة نعم في مختلف بلاد سوريا ، وكانت من نفس النوع تقريبا . نراها في أريحا وفي مجدو (تل المتسلم في فلسطين) وفي عفرلة وفي بيت شان (ييسان) ولا شيش (قل الدوير) رأس جاريث (رأس الشمرة) وبيبلوس (جبيل أو جبلة) .

ونصل الآن إلى نقطة هامة في البحث ، فقد أثبت قبل الآن عند ذكر ميكل قلب الجزر إلى ما كان من عداوة بين الساميين ومن كان قبلهم من سكان فلسطين ، فن كان ، مثلا ، الناس إلى أي جنس كانوا ينتمون ؟

لقد احتل هذا الموضوع جانبا كبيرا من اهتمام علماء الاجناس والرأى السائد هو أنهم كانوا دون شك من جنس البحر الابيض المتوسط الذي يعتبر الساميون فرعاً منه . وقد عاش في هذا الجزء من العالم ، بين سيكاته ، بعض الساميين المنتمين في الأصل إلى شمالي الجزيرة العربية ولكنهم كانوا أقلية قبل أن يهاجروا هجرتهم الكبيرة حوالي عام ٣٠٠٠ قبل مولد المسيح . وعلى أي حال فإن أقدم السكان ربما كانوا ينتمون إلى الجنس الأصلي الذي تفرع منه فيما بعد كل من الساميين والهاميين ، وكانت لغتهم غير سامية بدليل ما بقي من أسماء مدنهم مثل دمشق وتدمر (١) .

وقد ذكرت التوراة (سفر التكوين الإصحاح السادس آية ٤) أولئك السكان القدماء ولكنها لم تصنفهم بشيء أكثر من أنهم « طغاة » ، ولكن مثل

(١) هناك رأى يقول بأن لفظة دمشق سامية ومأخوذة من كلمتي دار مشق ، وكلمة دار بمعنى حصن واسكن تقوم دون ذلك عقبات كثيرة لأن أقدم كتابة لها في نصوص رسائل الهامة (*Dumashqa, Dimasqa, Tinashgi*) أما كتابتها بالراء *Tiramaski* فإنها أحدث وهي من عهد رمسيس الثالث . أما عن تدمر فربما كانت من السريانية *Tedmortâ* بمعنى يجب ب ، وقد ذكر يوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول للميلاد أن السوريين كانوا ينطقون اسمها *Thadamora* (*Antiquities Bk VIII, ch. 6 & 8*) وقد بقي هذا الاسم في العربية . وعلى أي حال فإن تفسير أصل اسم تدمر مثل تفسير اسم دمشق ما زال غير مؤكد ، وهو على أي حال غير ساء الأصل .

هذا الوصف لا ينير أماننا الطريق في كثير أو قليل . ويكفي أن نقول إننا لو حكمنا بنتائج حضرات مجدو وتلييلات الفول فإن سكان سوريا قبل وصول الهجرات السامية كانوا يعرفون التعدين ، وكانوا يعرفون النحت ، وكانوا يستخدمون الأختام ، ولم ذوق فني في الحلى كما عرفوا أيضاً عمل التماثيل سواء ما كان منها للإنسان أو الحيوان ، كما بنوا البيوت وزخرفوا جدرانها بالرسوم الملونة التي تمثل أجساماً بشرية في تلييلات الفول .

ولا شك أن ذوقهم الفني قد وضع في صناعة الحلى وزخرفة المنازل ولكنه وصل إلى قته في زخرفة الأواني الفخارية ، وقد عرفوا الزجاج في ذلك الوقت الجيد واستخدموه في الأواني .

ومن الأشياء التي تستحق الذكر تلك التماثيل النحاسية التي عثر عليها في تل الجديدة في شمال سوريا ومن بينها إله وإلهة للخضب يوجدان الآن في متحف المعهد الشرقى بشيكاجو ، ويظن أنهما أقدم تماثيل إنسانية في العالم مصنوعة من المعدن.

امتازت القرون الأخيرة من الألف الرابع قبل الميلاد في جميع بلاد الشرق الأدنى بالتقدم الحضارى السريع وكثرة اتصال الشعوب ببعضها البعض ، والإقبال على مصنوعات بعضها البعض ، وربما كان ذلك التقدم راجعاً قبل أى شيء آخر إلى تلك الثورة العظيمة في حياة البشر وهي ثورة الانتقال من حياة جمع القوت إلى إنتاجه ، والاستقرار في قرى ثابتة واستخدام الأدوات المعدنية في الزراعة مما ساعد على توفير المحاصيل في كل مكان ، وكان لاختراع الفخار شأنه أيضاً لاستخدامه في تخزين الفائض لأيام الحاجة .

وأخيراً جاء اليوم الذي تقدم فيه الإنسان خطوته التي تقلته من عصر قبيل الأمرات أو العصر الحجري النحاسي ، أو عصر ما قبل الكتابة ، إلى العصر التاريخي ، وذلك عندما توصل إلى اختراع الكتابة . وقد حدث ذلك في وقت متقارب ، وعلى حدة ، في كل من مصر والعراق . وقد انتقلت الكتابة إلى شمال

سوريا من الأخيرة منهما ، كما انتقلت إلى جنوبي سوريا أى فلسطين ومدن الشاطئ الفينيقي من مصر .

أقدم الصلات بين مصر وسوريا :

لا يستطيع أثرى أو مؤرخ أن يحدد تاريخاً لبدء الاتصال بين سكان وادى النيل وجيرانهم فى سوريا إذ أن صحراء سيناء ، لم تكن فى يوم من الأيام عقبة أو حائلاً يمنع السفر أو الانتقال ، خصوصاً وأن سكانها من البدو كانوا دائماً ، وما زالوا حتى اليوم ، فروعاً من القبائل التى تعيش وتتجول فى المنطقة التى نسميها اليوم شمالى الجزيرة العربية والأردن وجنوبى فلسطين . ولكن سكان سيناء من البدو كانوا هم ، ومن جاورهم ، منذ عصر ما قبل الأسرات يغيرون على البعثات التى تذهب لتعدين النحاس وغيره من خامات المعادن ، أو حجر الفيروز ، فلهذا ترى فى القصص المصرية ما يشير إلى الحملات التأديبية على البدو الفاطنين هناك^(١) ، وفى وادى المغارة فى سيناء كثير من النقوش التى تمثل بعض ملوك الدولة القديمة المعروفين أمثال زوسر وسنفر و خوفو (الآن فى متحف القاهرة) وغيرهم وهم يؤدبون بدو تلك المنطقة .

ولنترك الطريق البرى الآن ولنتحدث عن طريق البحر . فمن المحتمل أن مشاق السفر فى ذلك الطريق ، وخصوصاً قبل استخدام الجبال ، وما يتعرض له المسافر من أخطار النهب جعل المصريين منذ أقدم عصورهم يتخذون طريق البحر للوصول إلى الشاطئ . وفى أسطورة أوزيريس إشارة إلى صلة مصر بميناء بيبيلوس (جبيل) ولو تركنا الأسطورة جانباً فإننا نرى من بين ما وصل إلينا من آثار الأسرة الأولى ما يثبت إحضار أخشاب الأرز من لبنان إلى مصر منذ ذلك العهد البعيد ، بل نحن واثقون أن الصلة كانت أبعد من ذلك ، وأنه منذ الأسرة الرابعة

T. Eric Peet, *The Early Relations of Egypt and Asia*, Journal of (١)
the Manchester Egyptian and Oriental Society 1915, p. 27-48.

المصرية على الأقل كانت تعيش جالية مصرية للتجارة في ذلك الميناء ، وكان فيها معبد عثر على بعض أحجار منه ، وعليها أسماء بعض ملوك الدولة القديمة^(١) ، ونعرف من نقوش حجر بالرمو أن الملك سنفر و ، والد خوفو باني الهرم الأكبر ، ومؤسس الأسرة الرابعة المصرية قد أرسل أسطولاً من أربعين سفينة لإحضار أخشاب الأرز من لبنان وما زال الكثير من تلك الأخشاب باقياً حتى اليوم في داخل هرمه في دهب وهي مازالت بحالة جيدة ويؤدى بعضها إلى الآن ما أقيمت من أجله في تثبيت بعض كتل الأحجار أو حملها رغم مضى أكثر من ثلاثة آلاف وستمائة سنة^(٢)

كما نعرف أيضاً أن السفينة الكبيرة التي عثر عليها عام ١٩٥٤ في الجهة القبليّة خارج هرم خوفو مصنوعة أيضاً من أخشاب الأرض التي جى بها من تلك البلاد .

لم تكن الصلة بين مصر وبلاد فلسطين أو الشاطئ الفينيقي إلا صلة تجارية فقط ، ولكن في الأسرة الخامسة المصرية أى حوالى عام ٢٥٤٠ قبل الميلاد ، في نقوش معبد الملك ساحورع في أبو صير ، نجد مناظر لإقلاع وعودة أسطول مصرى إلى شواطئ فينيقيا . ويرجح كثير من المشتغلين بالآثار أن استقبال الملك لهذا الأسطول يحف به كبار الموظفين دليل على أن ذلك الأسطول لم يذهب للحرب أو التجارة وإنما كان في رحلة ودية إلى تلك البلاد ، وربما عاد بأمية من الأميرات لتصبح زوجة لفرعون . ولا نجد أى منظر يمثل أعمالاً بحرية إلا في مقبرتين ربما كانتا من أواخر الأسرة الخامسة أو أوائل السادسة إحداهما في دشنا في محافظة بنى سويف والأخرى في سقارة ، وتمثل كل منهما مهاجمة الجنود

P. Montet, *Rybls et l'Egypte* pp. 29-59; 273-4.

(١)

Ahmed Fakhry, *The Bent Pyramid of Dahshur* (Cairo, 1954)

(٢)

p. 4 and PL. II.

أنظر أيضاً كتابى مصر الفرعونية (الطبعة الثانية - أكتوبر ١٩٦٠) ص ١٠٠ وشكل رقم ٦ في اللوحات . التفاصيل الكاملة منفورة في كتابى :

The Monuments of Sneferu at Dahshur, vol. 1. (1959)

المصريين لأحد الحصون في جنوبي فلسطين ، وربما كان ذلك تأديباً لسكان تلك المنطقة لاهتدائهم على القوافل المصرية

وهناك أيضاً من الأسرة السادسة المصرية ، ومن عهد الملك بيب الأول ، وثيقة هامة وهي لوحة القائد المعري « أوني » ، الذي عاش حوالي عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد . فهو يذكر أنه جهز جيشاً من عشرة آلاف شخص من أبناء الصعيد والنوبة ، وأنه نجح في حملته وأن جنوده كانوا مثاليين بما يجب أن يتحلى به الجندي فلم يتعرض واحد منهم لأي شخص في أي بلد مروا به ، ولم يقتصب أحد منهم شيئاً مهما قلت قيمته ، إلا أنه يشير إلى أشجار التين وكروم العنب وبلاد أهلة بالسكان ، مما يرجح أن الحملة كانت على جنوبي فلسطين . ولسكن هناك نقطة أخرى هامة في ذلك النقش . لقد ذكر « أوني » أنه ذهب مرة ثانية لإخماد ثورة قامت في تلك البلاد لجهاز جيشين سار أحدهما بطريق البر وذهب هو مع الجيش الآخر بطريق البحر ، وأنهم نزلوا عند مكان يحتمل أن يكون على مرتبة من جبال السكرمل ، وأنه سار بعد ذلك في داخل البلاد وقع تلك الثورة . وهذا يرجح أن التجارة بين مصر وآسيا لم تعد قاصرة على مدن الشاطئ . كانت القوافل المصرية تسير إلى داخل البلاد على الطريق التجاري الكبير ، وأنه رغم كلفة الثورة والقمع فإننا واثقون من أن فكرة الغزو أو نشر النفوذ السياسي كانت بعيدة كل البعد عن ذهن المصري في ذلك العهد ، وأن ملوك مصر لم يهتموا إلا بأن يكون الأمن سائداً وقوافل التجارة آمنة .

وتعرضت مصر في أواخر أيام الأسرة السادسة إلى فترة ضعف وانحلال ، وهذه هي ما نسميه عصر الفترة الأولى التي استمرت طيلة أيام الأسرات السابعة حتى نهاية العاشرة . كانت حدود الدلتا في تلك الفترة معرضة لغزو بعض جماعات من البدو الذين كانوا يأتون عن طريق الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء . وفي مثل هذه الظروف لا يمكننا أن نتوقع أن يكون لمصر أي نشاط سياسي أو تجاري كبير خارج حدودها ، وعلينا أن ننتظر حتى تعود للبلاد قوتها في الأسرة الثانية عشرة حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

لقد عرفنا الآن ملخصاً للعلاقات بين مصر وسوريا في الألف الثالث قبل الميلاد ، ويحق لنا الآن أن نتساءل عما كان سائداً في البلاد نفسها ومع من كان يتجر المصريون ؟

سوريا في الألف الثالث قبل الميلاد :

كان سكان سوريا القدماء بصفة عامة خليطاً من أجناس مختلفة نظراً لموقعها الجغرافي ، ولكن السكان الأصليين كانوا من جنس البحر الأبيض المتوسط ، كما ذكرنا ، ولكن امتزجت بهم منذ أقدم العصور عناصر من أجناس مختلفة أهمها دون شك العنصر السامي ، لأن جزيرة العرب كانت على حدود سوريا الجنوبية ، ويتوقع البدوي دائماً عندما تمر به سنوات عجاف إلى الاستقرار في إحدى المناطق الخصبة الواقعة على حافة صحرائه .

لم تكن سوريا في عصور ما قبل التاريخ ، وهي في ذلك كغيرها من البلاد ، آهلة بعدد كبير من السكان كما هو حادث اليوم بل كان هناك متسع لغيرهم . فلما جاءت الهجرات السامية الكبيرة حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد نجد أن الكنعانيين (وهي التسمية التي وردت في التوراة) قد استقروا في الغرب ، كما استقر الآموريون بعد ذلك في الوسط والشرق بل أن بعض الآموريين نزلوا في العراق واستطاعوا ، بعد قرون عديدة وبعد أن تحضروا ، أن تكون لهم السيادة على المناطق التي نزلوا فيها وأن يؤسسوا لهم دولا هناك .

وفي الوقت الذي كانت فيه بعض تلك الدول ، مثل بابل مزدهرة في وسط العراق كانت بعض الدول الآمورية مثل ماري مزدهرة في غربي الفرات في داخل الحدود السورية الحالية ، ولكننا لا نعرف عن الكنعانيين القدماء الذين كانوا في أقصى الغرب أنهم كونوا دولا أو إمبراطوريات سامية ، أو كان لهم في الألف الثالث قبل الميلاد شأن خاص ، بل الأرجح أن البلاد كانت مقسمة إلى كثير من الممالك يملكها زعماء أو أمراء يعيشون في مدن صغيرة ، وتعيش قبائلهم متفرقة حولهم يهيئون الحياة التي تلائم بيئتهم . لم يكن الكنعانيون

والأموريون بمعزل عن المدنية ، وذلك لأنهم كانوا يجاورون مدينتين كبيرتين وهما مصر والعراق ، كما كانت المنطقة الشمالية من الشاطئ السوري على صلة بجزر البحر الأبيض المتوسط ، كانوا على صلة تجارية بها وعلى الأخص بقبرص وكريت ، وكانت الأخيرة منهما مركزاً للحضارة المينوية التي كانت مزدهرة بعض الشيء في الألف الثالث .

وبالرغم من أنه لم يظهر في الحفائر الأثرية حتى الآن أى بقايا من معابد الآلهة المحلية ترجع إلى ذلك التاريخ فلا شك أنه كان للساميين آلهتهم التي جاءت معهم إلى مواطنهم الجديدة . ولا شك أيضاً أنه كانت هناك آلهة أصلية في البلاد ، كما حملهم اتصالهم بالمدينيات الأخرى على قبول بعض مظاهر دياناتها وربما بعض آلهتها أيضاً. وربما كانت الآلهة التي أصبحت أسماؤها معروفة لنا في الألف الثاني موجودة كلها في الألف الثالث ، ولكن عدم العثور على آثار لها ، وعدم انتشار الكتابة إذ ذاك ، يجعلنا نفضل إرجاء الحديث عنها إلى أن نصل إلى الألف الثاني في هذا البحث .

وعندما كان المصريون أو العراقيون يتجرون أو يرسلون بعض الحملات لمحاربة هذه المناطق فإنهم لم يجدوا أمامهم دولة متحدة متأسكة منظمة ، وإنما قبائل أو مدن متفرقة .

وأقدم ما ورد عن الأموريين في الوثائق التاريخية ما جاء في وثائق سكان بلاد الرافدين الذين أطلقوا عليهم الاسم السومري «مارتو» الذي يقابل الكلمة الأكادية «أمور» بمعنى الغرب لأنهم كانوا إلى الغرب منهم ، وهم في ذلك مثل سكان الجزيرة العربية الذين أطلقوا اسم الشام على من كان على يسارهم في الشمال ، واسم اليمن على من كان إلى يمينهم في الجنوب ، كما أطلق السومريون أيضاً على البحر الأبيض المتوسط عدة أسماء منها البحر الكبير وبحر أمور العظيم . وجاء ذكرهم في وثائق غزوات سرجون الأكدي (حوالي عام ٢٣٥٠ ق م) . وكان الأموريون في مبدأ الأمر في شمال سوريا ، ثم أخذوا ينتشرون بعد ذلك في مناطقها الوسطى

وعلى الشاطئ حتى وصلوا إلى فلسطين . وانتشروا أيضا نحو الشرق ، واستقروا في مناطق ذات حضارات قديمة ترجع إلى ما قبل عهد السومريين في فثأتها وتمدنبا ، فكان لتلك الصلة أثر مباشر على تقدمهم ، إذ أن النصوص السومرية تصفهم بأنهم « كانوا بدوا متجولين لا يعرفون سكنى البيوت ولا يعرفون الزراعة ، ولكنهم تعلموا ذلك فيما بعد^(١) » ، فلما اتصلوا بغيرهم وتحضروا ، أنشأوا دولا لم تكن تقل في شيء عن مثيلاتها من دول العراق في ذلك الوقت في تمدنبا ، وأهمها دولة مدينة مارى التى قضى عليها حورابى ملك بابل .

وإذا رجعنا إلى الوثائق المصرية فإننا نجد بعض إشارات في نصوص الأسرة الحادية عشرة ، أى بعد انتهاء عصر الفترة الأولى ، التى ضعفت فيها مصر وقلت فيها صلتها بغيرها . نجد في تلك النصوص إشارات عدة إلى الاهتمام من جديد بأمر مناجم الصحراء واستئناف الرحلات نحو الشرق أى إلى آسيا ، ونحو الجنوب أى إلى بلاد بونت ، ولكننا لا نستشف من تلك النصوص أى معلومات ذات أهمية خاصة إلى أن نصل إلى الأسرة الثانية عشرة .

كان بدو سيناء وفلسطين قد توطنوا في شرق الدلتا ، وليس من المستبعد أن يكون نفوذهم أصبح قوياً في تلك المنطقة خلال أيام الأسرة العاشرة وخصوصاً خلال الثمانين عاماً التى استمر فيها النزاع بين البيت المالک فى إهناسيا وبيت أسراء طيبة منذ نشأته ، ذلك النزاع الذى لم ينته إلا فى عام ٢٠٥٢ ق . م . أى فى العام التاسع من حكم منتوحوب الثانى .

ويرى بعض الباحثين فى التاريخ المصرى القديم أن هناك ما يشير إلى حملة أسبوية على مصر فى ذلك الوقت وأن المصريين حاربوهم ، ولكنى لا أعتقد أن الأمور قد وصلت إلى ذلك الحد ، وأن تلك الإشارات إلى محاربة الأسبويين إنما هى مطاردة فلولهم التى كانت مستقرة فى الدلتا وعلى الحدود الشرقية . وربما

(١) Edward Chiera, *Sumerian Religious Texts* (1924), p. 20-21.

كانت أيضا بعد ذلك لتطهير جنوبي فلسطين عن ظل يبعث فيها فساداً. أو يعكر صفو الأمن اللازم للتجارة الخارجية، وأن ذلك بدأ منذ أيام الأسرة الحادية عشرة ، كما نفهم من نقوش بقايا هيكل الجبلين الذي أقامه الملك منتوحوتب الأول ، وبعض الرسوم التي عثر عليها في معبد منتوحوتب الثاني بالدير البحري بطيبة .

ولا شك أن عثراً كبيراً من ذلك قد وقع على عاتق أمنمحات الأول ومن جاء بعده من ملوك الأسرة الثانية عشرة .

ولنتحدث الآن عن قصة سنوهى فهي من أهم الوثائق عن الصلة بين مصر وسوريا في أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة .

سنوهى في سوريا :

كان سنوهى أحد موظفي البلاط المصري في أواخر أيام أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وكان مع ولي عهده الأمير سنوسرت في حملة على حدود مصر الغربية حوالي عام ١٩٦١ ق . م . عندما وصلت الأنباء من القصر بأن الملك قد مات . فأمر الأمير بإخفاء الخبر عن الجيش ، وعاد سراً إلى العاصمة . وسمع سنوهى ذلك لأنه كان على مقربة من المكان ، ولعله كان هناك انقسام في العائلة تخاف سنوهى على نفسه وفر هارباً لا يلوى على شيء ، يريد مغادرة مصر بأى ثمن . ويقص علينا قصة هربه واختفائه أثناء النهار ومغامراته مع حراس الحدود الشرقية حيث بنى أمنمحات تحصينات عدة لمنع تسرب البدو ، كان اسمها حائط الأمير . وأخيراً وصل إلى سيناء وأخذ بلد يسلمه إلى بلد آخر حتى وصل إلى جبيل . وغادر جبيل إلى بلد آخر اسمه ، كوى ، لا نعرف مكانه . وبعد أن قضى فيه ستة شهور اتصل به أمير « رتنو العليا » ، وهى جزء كبير من إقليم لبنان وشمال سوريا وكان اسمه « عامونتشى » وطلب بأن يبقى معه . وكان بما أغراه به أنه سيجد لديه كل راحة وسيستمع إلى لغة مصر لأن مصريين كثيرين يقيمون معه ، وكان هؤلاء المصريون قد أعلموه بمكانة سنوهى ومقدرته . ويذكر سنوهى

أن ذلك الأمير رفع قدره فوق قدر أبنائه وزوجه من كبرى بناته وأعطاه جزءاً من ملكته على الحدود . يصفه سنوهى بقوله : « كان إقليماً طيباً اسمه « يا » ، كانت فيه أشجار التين ، وفيه الأعشاب وكان النبيذ فيه أكثر من الماء ؛ كان عسله وفيراً وزيته كثيراً ، وكانت كل الفواكه تحملها أشجاره ، كان فيه الشعير والقمح ، وماشيتة من جميع الأنواع ، ولا يحصرها العدد . »

وقضى سنوهى هناك سنوات كثيرة ، وكبر بنوه وأصبحوا زعماء لبعض العشائر ، ونعرف من قصته أيضاً أمرين هامين أولهما أن « الرسل الملكيين » كانوا يسرون جيئة وذهاباً بصفة مستمرة بين مصر وداخل سوريا ، مما يدل على أن التجارة كانت مستمرة ودروبها آمنة . كما يتضح أيضاً من سياق القصة وجود مصريين كثيرين مقيمين في تلك البلاد ، وأنه كانت لهم مكانة فيها . أما ثاني الأمرين فإننا نقرأ في القصة أنه حدث عند وجوده هناك ، وربما كان ذلك بين عامي ١٩٥٠ ، ١٩٤٠ قبل الميلاد ، أن بعض القلائل أخذت تنتشر في تلك البلاد ، وأن بعض زعماء القبائل (حقاو - خاسوت : وترجمتها حكام البلاد الأجنبية وهو أصل اسم الهكسوس) أخذوا يهاجمون الناس فعينه الأمير قائداً لجيشه ليسمر على حماية الناس وأمنهم ، وقد نجح في ذلك . والمرجح أن ذلك الاضطراب جاء نتيجة لإحدى الهجرات الصغيرة للشعوب الهندو - أوروبية التي أخذت تتكاثر بعد ذلك حتى عم الاضطراب في كل بلاد الشرق الأدنى فيما بعد . وإن إشارة سنوهى إلى ذلك وذكر اسم « حقاو - خاسوت » ، يثبت أن مقدمات غزو تلك الشعوب الهندو - أوروبية قد بدأت تظهر منذ ذلك العهد .

ويذكر لنا سنوهى حادثاً آخر بشيء من التظويل ، فيه معلومات غير قليلة عن بعض العادات التي كانت سائدة بين القبائل إذ ذاك . لقد تمدهاء رجل قوى من أهل البلاد ودعاه للزال دون أن يكون هناك أي عداة ، أو يكون بينهما أي صلة أو معرفة سابقة . وكانت نتيجة هذه الدعوة للقتال أن الملتصر منهما يستولى على كل أمتعة وأمالك الآخر . وبرغم حزن أمير دوتنو ، وحزن جميع الناس لأن

سنوهى كان فى ذلك الوقت شيخاً متقدماً فى العمر ، فإن التقاليد كانت أقوى من أن يعارضها لإنسان . وفى لغة أدبية قوية يصف سنوهى هذا القتال الذى تجمعت القبايل لمشاهدته ، ويصف لنا تفاصيله وكيف استطاع قتل خصمه . بدأ البطل الآخر يرميه بسهامه فاستطاع سنوهى أن يتفادها ثم هجم عليه عدوه مرة أخرى « » وعندما اقترب كل منا من الآخر هجم على فأصبته واستقر سهمى فى عنقه فصرخ وارتدى على أنفه ، فأجهزت عليه بفأس الحرب الخاصة به ، وصرخت صرخة النصر وقد وقفت فوق ظهره .

وحن سنوهى بعد ذلك إلى العودة لمصر فكتب إلى سنوسرت فجاء منه الرد بأنه لم يفعل شيئاً يدعو إلى الاعتذار عنه وأنه يرحب به ، بل يزيد الملك فيذكره بأنه يجب أن يفكر فى يوم منيته وما يجب أن يقام له من الطقوس الدينية .

وهناك نقطة جديدة بالاعتبار . لقد فر سنوهى من مصر ، على الأرجح ، خوفاً من سنوسرت لاعتقاده بأنه سيقضى عليه عندما يؤول إليه الملك . خرج من مصر لأملاك شيئاً ، وأصبح بعد ذلك ذا نفوذ وثروة ، ولكنه فى أواخر أيامه عند ما بدأ فى مراسلة سنوسرت كان يعتبر نفسه كأحد ممثلى ملك مصر ، ونراه فى خطابه يعدد له أسماء بعض الزعماء المحبين لملك مصر ويطلب منه أن يدعوهم إليه ، بل ويزيد سنوهى فيكتب للملك بأنه يترك عمله فى سوريا ويعود إلى مصر تنفيذاً لرغبته .

وتنتهى القصة بأن ترك سنوهى أولاده جميعاً فى « رتنو » ووزع بينهم كل ثروته وعاد إلى مصر فأحسن الملك استقباله . ويعطينا وصفاً شيقاً لمقابلة الملك له ، وكذلك الملكة التى يحتمل جداً أن تكون من ذوى قرابته ، والأطفال الملكيين . وفى أسلوب بليغ يصف لنا كيف أخذوه بعد مقابلة الملك فى قاعة العرش إلى منزل أحد الأمراء حيث أعدوا له حماماً ، وعطروه وألبسوه أنحر أنواع الثياب ، وكيف كان الخدم يلبون كل ما يطلبه أو يشير به « وجعلوا السنين تقادر جسمى وانساخت عنى ، وسرحوا شعرى وألقوا إلى الصحراء بحمل من

القاذورات ، وألقوا بملابسهم إلى ساكني الصحراء ، وألبسوني أفقر الثياب
وعطروني بأحسن أنواع العطور ، ونمت على سرير وتركت الرمال لمن هم فيها ،
وزيت الخشب لمن يلطخ نفسه به . .

لم تستطع الصحراء أن تغير كثيراً من عقلية ونفسية ابن المدينة ، ولم تستطع
زعامة القبيلة من القضاء على حنين رجل البلاط إلى حياة القصر ، ولم تستطع
عشرات السنين بعيداً عن معابد مصر وآلهتها من أن تنسى سنوهم أنه سيصبح
بأساً مضيقاً إذا لم يخططه المخططون عند موته ، ويقيم له الكهنة الطقوس الدينية
اللازمة ، أو كما كتب له الملك سنوسرت الأول : « سيكون لك موكب جنازة في
يوم دفنك ، وسيكون تابوتك من الذهب ورأسه من اللازورد . ستكون السماء
فوقك وستوضع فوق زحافة . ستجرك الأثيران ، ويسير المغمنون أمامك ،
وسيؤدون وقصة الدموع ، عند باب قبرك ، وسيقرؤون لك ما تتطلبه مائدة
قرايينك ، وستدج لك الأضاحي أمام مذبحك ، وستكون أعمدتك (أى أعمدة
قبرك) من الحجر الأبيض بين (مقابر) الأبناء الملكيين . وهكذا لن تموت
في الخارج ولن يدفنك الآسيويون ، ولن يضعوك داخل جلد شاة . ففكر
فيما يحدث لجثثك وعد (إلى مصر) . .

والآن بعد أن عرضنا هذه الصورة القديمة للمقارنة بين حياة الصحراء
والقبائل في سوريا الجنوبية وبين الحياة في عاصمة مصر ، تتجه الآن نحو مدن
الساحل وبعض المدن الأخرى لنعرف مدى العلاقات التي كانت بين مصر وبلاد
الشام خلال أيام الأسرة الثانية عشرة أى في القرن الأول من الألف الثاني
قبل الميلاد .

سوريا في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد :

استأنفت مصر علاقاتها ببلاد جنوب غربي آسيا بعد أن قامت من كبوتها
في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد ، وبالرغم من أن هذه العلاقات كانت لأجل
التجارة قبل أى اعتبار آخر ، فإن بعض المصادر المصرية تشير إلى أعمال تجارية

حدثت في أيام بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة مثل النقش الوارد على لوحة
 «نسومنتو» في العام الرابع والعشرين من حكم أمنمحات الأول على الأرجح (١)،
 أو نصوص لوحة «سويك - خو» الذي عاش في أيام أمنمحات الثاني، ونسوسرت
 الثالث، وأمنمحات الثالث إذ يقص علينا نبأ حملة اشترك فيها في العام التاسع من
 حكم ذلك الملك، ويتحدث فيها عن سقوط بلد اسمه «سكيم»، ويذكر أن أهلها كانوا
 من العامو، أي البدو، وأنه تمت هزيعتهم هم وسكان «ارتو» (٢). وهناك إشارات
 أخرى متعددة، ولكنها مثل الإشارتين السابقتين، لا يمكن أن نعتبرها
 غزوات حربية كبيرة، وإنما كانت مناوشات لتأديب البدو، وكانت على الأرجح
 في جنوبي فلسطين ليس بعيداً عن الحدود المصرية، وذلك لتأمين طرق التجارة
 مع داخلية البلاد.

ويوضح لنا منظر قدوم الآسيويين، في «مقبرة خنوم - حوتب» الشهيرة
 في بني حسن، أن هؤلاء العامو قد أتوا مع زعيم لهم اسمه «إبشأ» ولقبه
 «حقا خاست» أي زعيم الجبل أو زعيم البلد الأجنبي (انظر الصورة الملونة على
 الغلاف) وهو نفس اللقب المذكور في قصة سنوهي وهو أصل اسم الهكسوس،
 وأنهم أتوا معهم نساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم محملة فوق ظهور الخير، كما أحضروا
 معهم هدية لحاكم الإقليم، تيتلا وغزالا. والرجال جميعاً ملتحمون وشعر رؤوسهم
 كث غزير أسود اللون، ويلبسون ملابس مزخرفة زاهية الألوان، وعلى حافتي
 أهداب (شراريب) وبعضها طويل ويوضع فوق أحد الكتفين، ويصل إلى
 ما تحت الركبة. ويلبس بعض الرجال ثوبه يلفها حول وسطه كما أن بعضهم ينتعل

(١) موجودة في اللوفر Louvre C. 1 ولصها الكانل منشور في American
 Journal of Semitic Languages, XXI, 153 ff. وقبل ذلك في مجلات علمية أخرى.

(٢) في متحف مانشستر بأнгلترا وقد عثر عليها جاستانج في الرابة وأفضل ما كتب
 عنها هو البحث الذي نشره بيت وعنوانه : T. E. Peet, The Stela of Sebek-khu,
 The Earliest Record of an Egyptian Campaign in Asia-Manchester
 Museum Handbook وقد حاول Max Müller أن يفسر سكم بأنها النسبة إلى البلدة
 المعروفة ششم (ششم أو سكيم) ولكن يحسن انتظار معلومات أكثر إقناعاً في هذا الموضوع.

نملا ذا سيور ، والبعض الآخر ، ومن بينهم زعيم القبيلة ،^{١٠} يمشى حافى القدمين . أما النساء فيلبسن أيضاً أثواباً من ذات النوع المزخرف الملون تغطي أحد الكتفين وترك الكتف الثاني عارياً . وهن جميعاً بلا استثناء يلبسن في أرجلهن أحذية حمراء ويضعن فوق رؤوسهن طرحة مثبتة فوق الرأس بحبل (كوفية وعقال) وتشبه إلى حد ما لباس الرأس المصرى المعروف الذى يتبدل أيضاً على جانبي الرأس . وترى أن بعض الرجال ، وصديراً صغيراً يحملون حراباً في أيديهم كما يحمل بعضهم أيضاً القوس وجمعة السهام وعصا الرماية . وبما يجدر ذكره أن أحدهم يسير وهو يلعب على آلة الكنور الموسيقية أثناء سيره وقد حمل وراء ظهره إناء (وليس قربة ماء) معلقاً بحبال حول كتفه .

وليس هؤلاء الزوار أى علاقة بسيدنا إبراهيم أو بإخوة سيدنا يوسف كما ورد في بعض المؤلفات . وتنحصر أهمية هذا المنظر في إعطائنا صورة معاصرة عن مظهر بعض سكان سوريا الجنوبية في ذلك العهد أى منذ أربعة آلاف سنة ، وملابسهم من رجال ونساء ، وأسلحتهم بل وموسيقاهم ، فهل تغير كثيراً بدو تلك المنطقة ؟ وهل تقدموا كثيراً عما كانوا عليه في القرن العشرين قبل الميلاد ؟

لنترك الآن المصادر المصرية ونلقى بأبصارنا نحو سوريا نفسها لنرى ماذا بقى فيها من آثار ذلك العهد . هنالك على الشاطئ الفينيقي ، وفي مدينة بيبيلوس ذات الصلة العريقة بمصر ، كشفت الحفائر عن مقابر بعض ملوكها وفيها حلى وأشياء أخرى صنع بعضها محلياً ، وكان البعض الآخر مصرياً خالصاً ، جاءهم هدايا من بعض ملوك مصر وبخاصة أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع (بين عامى ١٨٥٠ و ١٧٩٢ ق . م) . في مقبرتي الملكين « أبى شمو ، و « إيشعوبى » . كما عثر من العصر نفسه تقريباً في حفائر أوجاويت (رأس الشعرة) على آثار أخرى هامة ، عثر فيها على آثار مصرية من عهد سنوسرت الأول ، كما كان يقوم عند مدخل معبد الإله بعث في تلك المدينة تمثال على صورة أبو الهول باسم أمنمحات الثالث ،

كما عثر أيضاً على غيره من التماثيل في قطنا (تل المشرقة بجنوبي حمص) وفي المنطقة الوسطى من سوريا قريباً من دمشق وفي غيرها من البلاد .

حفائر ماري :

وفي مناطق مختلفة أخرى ، غير منطقة الشاطئ ، قامت دول هامة ربما كان أهمها دولة مدينة ماري التي كانت مزدهرة في عصر حوراني ، ثم هاجمها ذلك الحاكم البابلي نخبربا وظلت منسية حتى عثر عليها بطريق الصدفة عندما ذهب بعض الناس لدفن أحد الموتى فصادفهم ما دعا إلى إخطار الجهات المسئولة ثم بدأت فيها بعد ذلك الحفائر العلمية برئاسة الأستاذ د. پارو ، من أمناء متحف اللوفر بفرنسا ، وكان ذلك قبيل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٥ - ١٩٣٨) ، فأتضح أن تل الحريري ليس إلا موقع تلك المدينة الهامة . ولم تتم الحفائر هناك حتى الآن وقد كشف فيها قبل عشرين عاماً عن قصر د. زمرى - ليم ، ملكها وفيه نحو ٣٠٠ حجرة كانت جدران بعضها مزخرفة بمناظر جميلة ملونة أهمها ما يمثل ملكها يتقبل من الإلهة عشتار رموز الملك والسيادة ، ونرى فيها أثر اختلاط الفنون العراقية والمصرية ، وربما بعض التأثيرات الأخرى . وتشغل مساحة القصر وحده نحو ستة أفدنة وفيه جميع المرافق الصحية المتقدمة ، ولكن أهم ما عثر عليه في ذلك القصر إذ ذاك ما يقرب من ٢٠,٠٠٠ لوحة مكتوبة ، يحتمل أن بعضها على خطابات ووثائق وأنشيد دينية ، وقد كشفت دراستها عن كثير من الجوانب الحضارية في سوريا في ذلك العصر . وذكرت فيها أسماء كثير من دويلات المدن التي كانت هامة إذ ذاك مثل مدينة خلبو (حلب) التي كانت عاصمة لدولة د. يمشد ، ومدينة جبلة (جبيل) التي كانت مركزاً هاماً لصناعة الثياب والمنسوجات ، ومدينة قطنا (تل المشرقة) وحرانو (حران الحالية) وكلها دول أمورية . كانت هذه اللوحات في مكتبة القصر ، وإن وجودها هناك ووجود تلك الرسوم الملونة والآثار الأخرى ، وتلك الحضارة الواضحة في القصر ومبانيه ، تجعلنا نتوقع الكثير من

زيادة معلوماتنا عند إتمام حفائر المناطق الأثرية الأخرى التي ورد ذكرها في الوثائق التي عثر عليها في تل الحربي وفي غيرها من المدن العراقية والسورية^(١).

ثم نزلت بعد ذلك جحافل الكاسيين وغيرهم مما أدى إلى تغيير الأوضاع في هذا الجزء من العالم . وحدث مثل ذلك في مصر أيضاً على أيدي الهكسوس فلم نعد نسمع أو نعرف شيئاً ذا أهمية حتى ظهرت الإمبراطورية المصرية وبدأنا مرة أخرى ، وكان ذلك في القرن الخامس عشر قبل الميلاد (تقريباً الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦) ، قرأ الكثير من أسماء المدن السورية في النصوص المصرية .

ومن دراسة النصوص المصرية في ذلك العهد نقف على الكثير من الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك البلاد ، كما نعرف من دراستنا لمقابر طيبة الشيء الكثير عن ملابس الشعوب المختلفة وصناعاتها وحاصلاتها . ولا يتسع المجال لإحاطة الحديث عن تلك الحروب المختلفة أو ما تلا ذلك من نشر الثقافة المصرية في تلك المناطق ، أو أثر الديانة والصناعة والحضارة السورية في مصر مع من جاءها للاستيطان فيها ، فقد أشرنا إلى ذلك من قبل . ولكن يجدر بنا قبل أن نتابع سرد قصة تاريخ سوريا أن نقف قليلاً لتتحدث ولو قليلاً عن موضوعين هامين مقترنين بمصر ازدهار الإمبراطورية المصرية ، وهما نتائج حفائر رأس الشمرة ثم رسائل العمارنة .

(١) هناك مؤلفات كثيرة عن ماري ومن أهمها ما نشره مكتشفها عن صور المناظر المختلفة سواء ما كان منها على الجدران بألوانها أو مناظر الحفائر .

Parrot, Mari, Coll. des ides photographiques (Neuchâtel 1953).

أما عن مجموعة اللوحات فأهم ما نشره عنها نجده في المجموعة الشهيرة Archives Royales de Mari (ARM) وقد نشرها منها بين أعوام ١٩٤١ و ١٩٥٧ ثمانية مجلدات من النصوص السامرية وسبعة أجزاء خاصة بترجمتها . وفي كتاب Dossin, Studia Mariana (1950) وقد نشرت بعض الخطابات الهامة في Pritchard, Ancient Near Eastern Texts (1950) p. 482-3 وهناك بحث هام عن نتائج حفائر ماري بوجه عام وما أضافته على تاريخ المشرق وهو منشور في مجلة George, E. Mendenhall, Mari, Biblical Archaeologist, XI (1948) p. 1-19.

حفائر رأس الشجرة :

في عام ١٩٢٨ اكتشف أحد الفلاحين بطريق الصدفة في مكان يسمى « المينا البيضاء » على الشاطئ في شمال سوريا على بعد ثلاثة عشر كيلومترا شمال اللاذقية ، اكتشاف سرداباً تحت الأرض يؤدي إلى مقبرة ، فكان هذا الاكتشاف بداية لفحص المنطقة كلها في السنوات التالية . فعثر على بعد ثمانمائة مترا من الشاطئ على تل أثرى كان يصل إليه خليجان من البحر في العصر القديم ، ويسمى هذا التل رأس شجرة أو رأس الشجرة ، ولم يمض غير قليل حتى تأكد الباحثون أن هذا المكان ليس إلا موقع مدينة أوجاريت التي وردت في النصوص المصرية وفي النصوص الحيثية منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . وعثر في الحفائر على كثير من التماثيل والحلى والفخار وما كان مدفونا في المقابر من الآثار المختلفة ، ولكن أهم ما عثر عليه هو ذلك العدد الكبير من اللوحات الطينية الصغيرة المكتوبة بالمسارية ، وكانت هذه البداية الموقفة باعثا على استمرار الحفائر سنوات كثيرة بعد ذلك ، بل إنها ما زالت مستمرة حتى الآن .

وكانت النقوش التي عثر عليها ، نقوشاً مكتوبة بكتابات ولغات مختلفة ، بعضها بالأكدية وبعضها بالمصرية وبعضها بالحيثية ، ولكن عددا كبيرا يبلغ بضيع مئات من اللوحات كان مكتوبا بكتابة لم تتضح في بداية الأمر، وظن أنها من نوع غير معروف . ولكن سرعان ما توصل أكثر من باحث واحد في عام ١٩٣٠ إلى حل لغزها (فيرولو ، وباور ، ودورم - Virolleaud, Bauer, Dhrom) عند مقارنتها بالأبجدية الكنعانية . كانت تلك اللوحات الطينية جزءاً من مكتبة القصر الملكي وقد ألفت دراستها ضوءاً كبيراً على الحياة الدينية والاجتماعية في مدينة أوجاريت القديمة ، وفي هذا الجزء من الشرق كله . وكان أكثر الذي عثر عليه في مبدأ الأمر أساطيراً وقصصاً بطولية عن الإله « بعل » وأخته « عنت » ، كما تتناول أيضاً بعض الآلهة الكنعانية الأخرى ، واتضح من دراسة بعض تلك

اللوحات أنها تتعلق بمراسلات سياسية وإدارية . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فتوقفت الحفائر في عام ١٩٣٩ ، ونظراً لجلاء الفرنسيين عن سوريا فإن الحفائر لم تستأنف إلا في عام ١٩٤٨ ، وأخيراً منذ عام ١٩٥٠ عاد مكتشفها الأول كلوديت شيفر Schaeffer ، وهو فرنسي ، إلى الحفر فيها . وقد تركزت حفائره في القصر الملكي ، عثر فيه على كثير من الوثائق ذات الأهمية السياسية والإدارية والقانونية وأكثرها مكتوب بالأكادية . وفي عام ١٩٥٣ عثر على مجموعة من المراسلات الدبلوماسية بين ملوك أوجاريت وملوك الحيثيين وغير ذلك من دول شمال سوريا ، ومن بينها معاهدة صداقة عقدت بين ملك أوجاريت والملك الحيثي سوبيلو ليوما الذي سنعود إلى ذكره عند الحديث على رسائل تل العمارنة . وإذا كانت المراسلات السياسية ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فإن ما عثر عليه من لوحات الأساطير والقصص الدينية ترجع أصولها إلى أبعد من ذلك ، ونرى فيها الشيء الكثير الذي يثبت بصوبة قاطعة أثرها على أدب التوراة كما أوضحت لنا الشيء الكثير عن الآلهة السورية القديمة (١) .

ولا تقتصر أهمية حفائر أوجاريت على ذلك فقط بل لها أهمية أخرى لأنه اتضح أن محاولة إيجاد أبجدية حروف هجائية ، عدد حروفها محدود ، وقليل ، لم يقتصر على الفينيقيين في الجنوب بل حدث أيضاً في الشمال ، وإذا كانت أبجدية سيناء ، قد تأثرت كثيراً بالكتابة المصرية القديمة فإن أبجدية أوجاريت تأثرت ، بل قامت على أساس الاقتباس من الأكادية (٢) .

(١) C. F. A. Schaeffer, *Ugaritica 1 - III Paris 1939-1956* R. De Langhe, *Les textes de Ras Shamra Ugarit et Leurs rapports avec le milieu biblique de l'Ancien Testament*, 2 Vols. 1945 H. L. Ginsberg, *Ugaritic Myths, Epics and Legends-in Pritchard, Ancient Near Eastern Texts* (1950). p. 129-155.

أما التقارير الأخيرة عن نتائج الحفائر التي جرت في المنطقة منذ عام ١٩٥٠ منشورة في مجلة *Syria* وفي مجلة الحوليات الأثرية السورية التي تصدر بالعربية وبعض اللغات الأجنبية .

(٢) عن موضوع الكتابة السامية G. R. Driver *Semilic Writing - From Pictograph to Alphabet*, (revised edition 1954).

رسائل العمارنة :

وصلت الإمبراطورية المصرية إلى قمة مجدها في عهد تحوتمس الثالث ، وقد أحسن هذا الملك تنظيمها وترك كثيرا من حكام الدويلات السورية يحكمون أقاليمهم بعد أن أقسموا له يمين الطاعة ، وعين بعض حكام مصريين في أماكن أخرى ، كما ترك بعض الحاميات المصرية هناك . وكان من بين إصلاحات تحوتمس الثالث إحضاره عددا كبيرا من أبناء الحكام السوريين لتعليمهم في مصر ، وكانوا يقيمون في قصره ويتعلمون مع أبنائه وأبناء كبار رجال الدولة المصريين . فلما جاء اليوم الذي رجع فيه هؤلاء الأمراء إلى بلادهم وتولوا شئونهم ظل كثير منهم على صداقته لمصر . وظلت الإمبراطورية على قوتها بعد موت تحوتمس إذ كان ابنه أمنحوتب الثاني وابن ابنه تحوتمس الرابع من الملوك المحاربين ، ولكن حدث أن من تولى بعد ذلك وهو أمنحوتب الثالث كان منصرفا عن الحرب وتفقد شئون الإمبراطورية ، مهتما بإقامة المباني الفخمة وحياة البذخ ، فبدأت الحالة في أواخر أيامه تتأرجح بعض الشيء . ووجد خصوم مصر من الحيثيين الفرصة سانحة أمامهم للقيام ببعض المؤامرات هناك للقضاء على نفوذ مصر والتوسع في سوريا . وشاءت الظروف أيضا أن يتولى إخناتون ملك مصر بعد أبيه ، فانصرف انصرافا تاما عن شئون الإمبراطورية ، وقام نزاع داخلي في مصر فزاد ذلك من ضعف نفوذها السياسي في تلك المناطق . وعندما هجر إخناتون مدينة طيبة وأقام مدينته الجديدة المعروفة الآن باسم تل العمارنة نقل إليها الوثائق الخاصة بالمراسلات الدبلوماسية .

وجاء اليوم الذي انتهت فيه ثورة إخناتون الدينية وعادت العاصمة إلى طيبة ، واسكن تل العمارنة (أخت - أتون) هجرت وهدمت واعتبرها المصريون مكانا نجسا ، إلى أن حدث في عام ١٨٨٧ أن عثرت إحدى الفلاحات عندما كانت تبحث عن بعض الأحجار والطوب لبناء فرن لها على مكان تلك الوثائق . وقضى سوء الحظ أنه لم يعرف أحد في ذلك الوقت أهميتها ، بل حدث عندما وصل بعضها إلى تجار الآثار ، ووصلت منهم إلى بعض العلماء حكموا بأنها مقلدة ، ولا قيمة لها ، وأن ما عليها من نقوش ليس إلا عبث أطفال مقلدين . ولهذا لم يبق من المئات الكثيرة

التي عثر عليها إذ ذاك إلا عدد قليل . وعند ما جاء الوقت الذي عرف فيه العالم قيمتها كان أكثر من نصفها قد تحطم ، ولم يبق منها إلا نحو ثلثائة لوحا ، موزعة الآن بين متاحف مصر ولندن وبرلين وفيينا وباريس وغيرها من المتاحف ، وعرف الناس أنها المراسلات الدبلوماسية التي كانت بين ملوك مصر وملوك آسيا الغربية ، وبعض الولاة المصريين . وعند ما بدأ قلندرز بترى في عام ١٨٩١ في حفائره في المنطقة باحثاً عن بعض منها لم يجد إلا القليل (العهد الكلي الآن ٣٧٧) . ومن أهم ما عثر عليه إذ ذاك ؛ جزء من قاموس كانت كل صفحاته ، وهو أحد الألواح طبعاً ، مقسمة إلى ثلاثة أعمدة في واحد منها الكلمة المصرية وأمامها معناها بالأكدية المتأخرة ، وهي لغة المراسلات الدولية في ذلك العهد ، وفي العامود الثالث ؛ النطق الأكدي مكتوباً بالعلامات المصرية . وكان هذا القاموس في أيدي كتبة قسم العلاقات الخارجية للاستعانة به عند تحرير تلك المراسلات .

ويمكن تقسيم هذه المجموعة من الرسائل إلى ثلاث أقسام : أولها ما بعث به الولاة المصريون إلى فرعون ، وثانيها مراسلات الملوك الذين لم يخضعوا لحكم مصر المباشر ، أما القسم الثالث فهو الخاص بالمصاهرات الملكية (١) .

القسم الأول : كان الحكم المصري لا يميل بأي حال من الأحوال إلى التدخل في عقائد الشعوب أو في عاداتها ، بل كانوا يتركون الشعوب المحكومة تفعل ما تشاء وتمتع بحريتها الداخلية طالما تكون مصر منتفعة الانتفاع التجاري وأمنة على حدودها ، ومن أظهر أنواع الدين التي كان يظهرها الفراعنة نحو البلاد الخاضعة لهم أن المراسلات بينهم وبين مصر كانت بلغة غير اللغة المصرية ، ثم كانت هناك

(١) أفضل ترجمة لهذه الرسائل مع التقيب والشرح نجدها في كتاب كينتسون العالم النوبي في الأشوريات ١٩٠٧-١٩١٥ ، ٢ vols J. A. Kundtson, *Die El-Amarna-Tafeln*, 2 vols 1907-1915 وهناك ترجمة لها باللغة الإنجليزية نشرها العالم السكندى مهرس (Mercer *The Tell El-Amarna Tablets*, 1939) ولكنها أقل بكثير في مستواها العلمي من مؤلف كينتسون الذي استمدت منه وتسربت إليها بعض الأخطاء . وفي كتاب (ANET, 1950) نجد ترجمة دقيقة لأهم سبعة وعشرين منها نشرها أولبرايت بالتعاون مع مندنهول (Albright-Mendenhall (p 483-490)،

أيضاً ظاهرة أخرى وهي أنهم إذا وجدوا في بلد ما أسرة حاكمة قوية يأنسون إلى إخلاصها جعلوا رئيسها حاكماً باسم فرعون مصر ، وتركوا معه من يستعين بهم من الموظفين المصريين ، أما إذا كان من الأوفق وضع إقليم تحت الإشراف المباشر فإن الملك كان يعين موظفاً مصرياً ليكون حاكماً على هذا الإقليم .

ظلت سهول وجبال آسيا عشرات الأعوام لا ترى جيش فرعون القوي . وأهل ملوك مصر الإشراف الفعلي على ممتلكاتهم مادامت الجزية تؤدي إليهم ، فلما تولى إخناتون عرش مصر وثار ثورته الدينية على الإله آمون وكهننته ، امتد هشيم الثورة الداخلية إلى جميع مرافق البلاد ، وانصرف إخناتون إلى التفكير في ديانتته الجديدة وحكف على عبادة « أتون » ، وتأليف الأناشيد والصلوات له ، فانتهز أمراء بعض الولايات السورية هذه الفرصة وأرادوا التخلص من الحكم المصري لأن البلاد المغلوبة على أمرها لا يمكن أن تخضع لمثل هذا الفيلسوف .

لم تكن الأقاليم السورية تعيش على وفاق مع بعضها البعض بل كان يحكمها يتنازعون غمياً بينهم ، وكان يطلب كل منهم معونة فرعون مصر مهما قلت لأنه كان في ظهور الجنود المصريين ما يكفي لإرهاب الأعداء ، وها هو حاكم « مجدو » ، يطلب من فرعون إرسال اثنين من الرماة ، ويطلب حاكم « بيروت » أربعة ومعهم عشرون عربية حربية ، ويطلب حاكم « صيدا » عشرين رامياً .

وكان هؤلاء الأمراء السوريون يرسلون أمنحوتب الثالث دائماً ، ومن هذه المراسلات ندرك المركز العظيم الذي كان يتمتع به ملك مصر . فها هو أحد الحكام يكتب إليه قائلاً : « أنا خادمك والتراب الذي تحت قدميك والأرض التي تظوها وخشب العرش الذي تجلس عليه والكروني الذي تضعه تحت رجليك ، إنني حافر جوادك ، إنني أتمرغ سبع مرات في تراب قدمي مولاي الملك شمس السماء » . وفي رسالة أخرى نرى حاكماً يسمى نفسه « خادم جواد عربية فرعون » . وكتب ثالث يؤكد ولائه وإخلاصه : « أنا خادم الملك والكلب الذي يحرس بيته ، إنني أحافظ على هذا البلد لمولاي الملك » . وكثيراً ما نقرأ في هذه الرسائل أشياء غير تأكيد الوفاء والإخلاص مثل كتاب من حاكم « صيدا » يقول فيه : « أخبر مولاي أن

عبدته التي جعلها وديعة عندي وبين يدي وهي مدينة صيدا هادئة . وبعد جمل كثيرة
تلي عن فرحه بورود كتاب مولاه يقول : إن خادماك يبعث إليك بمائة ثور كما
يبعث أيضاً ببعض النساء الجميلات ، وكانت هي الجزية السنوية المقررة على هذه
المدينة . ومن المراسلات الأخرى نعرف أن جزية كل بلد كانت تختلف
عن الآخر .

لنترك الآن الولاية وخضوعهم وتتقدم قليلاً لنشهد انحلال هذه الولايات
بانصراف إخناتون إلى ديارته . لقد ترك الحيثيين يتأملون على مملكته في آسيا
دون أن يهرك ساكناً . لقد اشتروا ضمير بعض الحكام ومنهم حاكم مدينة
عمورية ، واسمه « عزير » ، فلما اتصل بإخناتون تأمره مع الحيثيين وإغارته
بمساعدهم على المدن المجاورة لمدينته لم يفعل ما كان يفعله أبوه أو جده فيذهب
إلى سوريا بنفسه على رأس جيشه أو يرسل على الأقل جيشاً تحت إمرة أحد
قواده بل اتخذ طريقاً آخر . لقد كلف أحد موظفيه بالكتابة إلى « عزير »
ليسأله عن حقيقة ما اتصل بالملك وطلب منه إرسال ابنه إلى مصر ليوضح موقف
أبيه ، وكان « عزير » ، ما كراً ، فكتب يتنصل بما عزي إليه وأخذ يسوف في
إرسال ابنه ، وأخذ حكام الولايات يوالون الشكوى طالبين من فرعون أن
يتقدم من « عزير » ، صنيعه الحيثيين ، ولكن « إخناتون » وضع أصابعه في أذنه .
من ذا الذي لا يتأثر عندما يقرأ استصراخ أهالي « تونيبو » ^(١) إلى إخناتون :
« إلى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيبو عبيدك ندعوك بالحياة والسعادة
وقبل قدميك ، إن عبدتك مدينة تونيبو تقول من ذا الذي كان يستطيع فيما
مضى أن ينهب تونيبو دون أن يقتحم لها « منخبيريا » (تحوتمس الثالث واسمه
بالمصرية من - خبر - رع) ويفعل مع الناهب مثل ما فعل معها ، إن آلهة مولانا

(١) لا نعرف حق الآن موقع هذه المدينة (وتكتب Tunip وتسكتب أيضاً بالبابلية
كنلك) وكل ما يمكن قوله أنها كانت واقعة بين قادش (تل النبي مند على مقربة من
حمص) وحلب — أنظر المراجع التي ذكرها جوبيسه Gauthier, *Dictionnaire
Géographique* VI, p. 49).

وما كتبه عنها أخيراً جاردنر Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, I, p. 179.

الملك وتماثيله موجودة لدينا ، وليسأل مولانا في ذلك المتقدمين في السن من رجاله ليعرف ما إذا كنا نقول الحقيقة أو لا نقولها . إذا لم تدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيزو سيصنع معنا مثل ما صنع مع مدينة « نى » . وحينئذ لا نبكى وحدنا بل سيبكى معنا أيضاً ملك مصر عما يأتيه عزيزو من أعمال لأنه سيرفع عندئذ ذراعه ضد سيدنا .

لقد أرسل أهالى تونيبو رسالة وراء أخرى ، كل منها مع رسل خاصين ، حتى بلغ عدد هذه الرسائل عشرين دون أن يعود إليهم واحد منهم . وهذه آخر رسائهم « والآن فإن مـ يتك تونيبو تبكى ودموعها تسيل وليس من ينصرنا ، لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم تتلق رداً منه » .

إن مثل هذه المراسلات تلقى ضوءاً صحيحاً على علاقة مصر بسوريا في ذلك العهد ، وانترك الآن هذه الناحية ولنعالج الصلات الأخرى .

القسم الثانى : وهو خاص بالصدقة بين ملوك مصر وملوك البلاد التي لا تخضع لحكمهم المباشر . كانت هذه الممالك أربعة في آسيا وهى : آشور وبابل وميتانى وخيتا ، وكانت علاقات الثلاثة الأولى بمصر علاقات مودة وصفاء ، ينشيدون ودها وهدايا ملوكها ولا يتأخرون عن تعزيز الصداقة بالمصاهرة . أما ملوك خيتا فكان لهم شأن آخر .

كتب ملك « ميتانى » إلى أمنحوتب الثالث يقول : « إلى أمنحوتب العظيم ملك مصر ، وأخى وصهرى الذى أحبه ويحبنى ، أقول أنا دوشراتا ملك ميتانى العظيم وأخوك ووالد زوجتك الذى يحبك . صحتى جيدة وإنى أبعث إليك بتحياتى يا أخى وصهرى ، وكذلك إلى أقاربك وزوجاتك وأبنائك ورجالك » .

وكتب ملك آشور إلى أمنحوتب الرابع : « إلى أمنحوتب أخى أقول : أنا آشوروباليت ملك آشور وأخوك ، أدعو بالخير لك ولأهلك وبلادك » .

وكتب ملك بابل « بورنادبور ياش » يقول في كتاب به بعد الديباجة :
« لقد جاء إلى رسول أخى وقد انخرقت صحتى بعد حضوره عندى ولم يسأل عنى
أخى فى كل المدة التى مرضتها ، ولهذا استأثت من أخى وقلت لما ذا لم يبعث إلى
رسولا ولم يظهر اهتماماً بى . ولكن رسول أخى أجاب على ذلك بأن مصر ليست
قريبة حتى يسمع أخوك بمرضك . ويرسل من يسأل عن أخبارك ، وسألت بعد
ذلك رسولى فقال لى بأنها مرحلة طويلة جداً ، ومنذ سمعت بذلك لم يبق فى نفسى
استياء من أخى . » وكتب الملك دوشراتا عند تولى أمنحوتب الرابع العرش
بعد وفاة أبيه أمنحوتب الثالث معزياً : « حينما مات والدك بكيت يوم علت
بوفاته وسقطت مريضاً وأشرفت على الهلاك ، ولكن عندما علت بأن أكبر أنجال
الملك أمنحوتب والمملكة تى قد جلس على العرش قلت الآن لم يمت أمنحوتب . »

كان كل من ملكى بابل وأشور يتنافسان فيما بينهما ، وكان كل منهما يود أن
يكون حليف مصر ليضمن لنفسه القوة ، فلما مات أمنحوتب الثالث كتب كل
منهما إلى الملك الجديد معلناً تأييده لمصر ومذكراً بمساعدته وولائه لها .

ونحن نقتطف جزءاً من كتاب ملك بابل وهو يقص على فرعون كيف أن
الكنعانيين أرادوا حمل أبيه على معاداة ملك مصر فرفض ، ثم يطلب منه ألا
يؤازر ملك أشور ضده ، ويختتم كتابته بقوله : « وأنت تعرف لما ذا يريد
صداقتك . فإن كنت تحببى فلا تعقد معه أى معاهدة . واطرده بعيداً عنك . »
ولكن رأى ملك مصر إذ ذاك أن خير سياسة هو تقريب الإثنين إياه وعقد مع
كل منهما معاهدة صداقة ، ورضى بها كل منهما . وبقيت لمصر هيبتها ومقامها
الامتياز إلى حين .

كان ملوك ميثاق وأشور وبابل يرسلون الجزية ويطلبون من ملك مصر أن
يرسل إليهم الذهب ويلحون فى ذلك حتى أن أحدهم يقول فى كتاب له : « أرسل
إلىَّ ذهباً ، إن الذهب فى مصر فى كثرة الرمال . » أما ملك خيتا فكانت صلته
بمصر غير الممالك الأخرى ولكنه كان يصانع ملوكها ولا يجرؤ على مناوأة الحكم

المصرية في آسيا . عندما تولى أمنحوتب الرابع العرش أرسل إليه ملك خيتا رسالة تهنئة فلم يتلق رداً عليها . وأعاد الكتابة مرة بعد مرة متسائلاً عن سبب قطع المراسلات عنه . ونحن نعلم الآن أن سبب قطع مصر علاقاتها بخيتا هو ما كانت تعلمه من أن هذه المملكة كانت المحرك لثورة عزرو لهدم الحكم المصري في سوريا ، وقد تم لهم ما أرادوه .

القسم الثالث : كان هم ملوك بابل وأشور وميتاني في الأسرة الثامنة عشرة أن تبقى صلاتهم بمصر صلات ودية ، وقد رأى الفراعنة أن تثبيت هذه الصداقة يستدعى بعد إبرام المعاهدات أن يقوموا بمصاهرة هؤلاء الملوك . وتنفيذاً لهذه السياسة نرى تحوتمس الرابع يتزوج ابنة ملك ميتاني ، وكذلك فعل أمنحوتب الثالث إذ تزوج ابنة هذا الملك أيضاً ثم ضم إليها أخته بعد أن كاتبه بشأنها ست مرات ، وكذلك ضم إلى نسائه أخت ملك بابل وأراد أن يتزوج ابنته أيضاً .

وكانت العادة أن تأتي كل أميرة من هؤلاء الأميرات ومعها حاشية كبيرة فمثلاً الأميرة دكيلو جيبيا ، ابنة ملك ميتاني حضرت إلى مصر ومعها ٣١٧ وصيفة كحاشية لها تزوج أكثرهن من المصريين الذين كانوا في خدمة فرعون .

وإذا كان ملوك مصر قد شجعوا الزواج من أميرات آسيا ، فهل كانوا يزوجون الأميرات المصريات من هؤلاء الملوك ؟ الجواب على ذلك نراه ماثلاً فيما حدث عندما طلب ملك بابل الزواج من إحدى بنات أمنحوتب الثالث . لقد رد عليه ملك مصر قائلاً : « إنه لم يحدث أن زُفّت ابنة ملك مصر زوجة إلى أحد » . ونحن نعلم حق العلم أن كثيراً من المصريين الذين لا يمتون بصلة إلى البيت المالكان كانوا يزوجون من أميرات ، ولذلك فإن الذي نفهمه من زفّض الملك أنه رغم اتخاذهم بعض الأميرات الآسيويات زوجات لهم فإنهم كانوا لا يسمحون للملوك بابل وميتاني وأشور أن يرتفعوا إلى المرتبة التي تخولهم زواج بنات الفراعين . لم يستمر هذا الإباء والاعتزاز طويلاً ، لأن اعتلاء إخناتون العرش غير كثيراً

من أساليب ونظم الحياة المصرية ، إذ أنه سمح لأمير من بابل أن يتزوج إحدى بناته ، ولكنه لم يسمح بأن تسافر معه ، بل بقيت وبقى معها في تل العمارنة .

مات إخناتون دون أن يكون له ولد يخلفه على العرش ، فتولاه من بعده زوج كبرى بناته ولكنه لم يعمر إلا قليلا ثم خلفه زوج الابنة الثالثة المعروف باسم « توت عنخ آمون » ، ومات هو الآخر قبل أن يتم تسعة عشر عاماً ، وخلف وراءه زوجة شابة . تلفتت الأرملة الشابة حولها فلم تجد إلا أعداء طامعين . فالكهنة اضطروا زوجها لهجرة تل العمارنة والعودة إلى طيبة ، وكانوا يكرهون عائلة إخناتون ويصبون لعناتهم عليه وعلى ذكراه . وكان اثنان من رجال بلاط أبيها يدبران المؤامرات ليكي يفوزا بالعرش . لم تجد هذه الفتاة أحداً قادراً على حمايتها وحماية العرش من الطامعين فيه ، ففسكرت في الالتجاء إلى ملك « خيتا » التي كانت تعرف بحكم صاتها بأبيها وزوجها أنه ملك قوى مرهوب الجانب أمكنه أن يقضى على سمعة الحكم المصرى في آسيا . كتبت إلى الملك كتاباً عثر عليه في خرائب « بوغاز كوى » حيث كانت العاصمة الحيثية القديمة ، وجاء في هذا الكتاب : « لقد مات زوجى ، وقيل لي بأن لك أولاداً كباراً ، أرسل إلى أحدهم فأزوجه وأجعله ملكاً على مصر » . فأجابها ملك خيتا متسائلاً عن ابن الملك المتوفى وماذا حدث له . إنه كان يخشى أن تكون هناك مؤامرة وثورة فيستعرض ابنه لبعض نارها . فأجابته الملكة الشابة : « ليس هناك ما يدعو للتمويه عليك ، ليس لي ابن وقد مات زوجى ، أرسل لي أحد أبنائك وأنا أجعله ملكاً » . عز على الشابة الصغيرة أن ترى امرأة غيرها ملكة على البلاد ، أو أن ترى الملك يقتل من بيت أبيها وأجدادها إلى بيت آخر . على أى حال فإن الزواج لم يتم لأن سر المؤامرة اقتضح ، فأرسلوا من ترصد للأمير الأجنبى فقتله في سوريا . أما أرملة توت عنخ آمون فلا نعرف ماذا حدث لها ولم يعثر أحد على قبر لها حتى الآن .

كانت ملكات مصر يشتغلن بالسياسة ويوجهن إلى بعض ما يرغبن فيه ، وكان من تقاليد المكاتبات السياسية في ذلك العهد أن يحيى ملوك البلاد الأجنبية

ملكة مصر في مراسلاتهم ، بل لقد كان يكتب بعض هؤلاء الملوك إلى الملكات ، كما فعل ملك أشور عندما كتب إلى الملكة « تي » بعد وفاة زوجها طالباً منها أن تبذل نفوذها لدى ابنها حتى تبقى الصلات السياسية بينه وبين مصر كما كانت من قبل . كان فرضاً على الملوك الأجانب أن يبدأوا كتبهم بتحية فرعون وزوجه ، ولكن كان لأحدهم وهو ملك قبرص طريقته الخاصة في إهداء التحية ، إذ كتب إلى أمنحوتب الثالث ، باعثاً إليه بالتحية ثم أضاف « وإلى أقاربك وعادمتك وأبنائك وزوجاتك ، وأبست بتهاني إليك على عرباتك العديدة وخيولك ، كما أبعث أيضاً بسلامي إلى بلادك » .

من ذلك نرى أن الصلات السياسية بين مصر وجاراتها في آسيا وفي بلاد البحر الأبيض المتوسط كانت قائمة على قواعد مرعية ، وكانت لغة المراسلات الرسمية هي اللغة البابلية وكانت تعقد معاهدات صداقة بين مصر وتلك البلاد يؤكدتها لإرسال الهدايا مع رسل من الجانبيين ، وعقد أواصر المصاهرات ، إذ أن ملوك بابل وأشور وميتاني كانوا على حدود أملاك مصر الآسيوية ، وفضل المصريون أن يكونوا على صفاء معهم .

سوريا في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد :

ولسنا نعرف على وجه التحقيق إلى أي مدى وصل تألب الولايات السورية في آخر عهد إخناتون فإن الوثائق التاريخية تنقصنا ، ولسنا نعرف إلى أي مدى وصلت الحالة في داخلية البلاد السورية بعد خروج عزير على الحكم المصري واستيلائه على كثير من مدن شمالي الشاطئ ، وربما كان للحملة التي قام بها القائد حور محب في العام الأول من حكم توت عنخ آمون أثر في الموقف ولو إلى حين^(١) .

(١) ربما كانت المناظر المرسومة على حدران مقبرة حور محب التي كانت في منف ، وعلى صندوق توت عنخ آمون تشير إلى ذلك .

وعلى أية حال فإن خيتا كانت في صنفوان مجدها وربما حققت بعض أطماعها في شمال سوريا ، أما الجزء الجنوبي ، بما في ذلك فلسطين ، فظل كما كان قبل ذلك موالياً لمصر .

التعشت مصر في آخر أيام الأسرة الثامنة عشرة عند تولى القائد حور محب للملك ، وبالرغم من أنه كان على رأس الجيش فإنه أدرك أن مصر في حاجة ماسة إلى الإصلاح الداخلي . ويلوح أنه قد توصل إلى اتفاق مع الخيبيين وانصرف إلى إصلاحاته الداخلية ، ولكن بعد موته وتأسيس الأسرة التاسعة عشرة تجدد نشاط مصر لاستعادة إمبراطوريتها وبدأ سبقي الأول حملاته الحربية هناك واستعاد كما قال ، سمعة مصر وبلاد جده تحوتمس . ولكن بعد تولى ابنه رمسيس الثاني للحكم تجددت الاضطرابات هناك فذهب لقمعها في العام الخامس من حكمه ، وحدثت معركة قادش المشهورة التي نرى مناظرها وتفصيلها على كثير من المعابد المصرية . وفي المصادر المصرية نرى رمسيس الثاني يدعى أنه قد انتصر على ذلك التحالف الكبير الذي كان تحت رئاسة أمير قادش ويؤازره الخيبيون . وفي المصادر الحقيقية ، نراهم يذكرون العكس وأنهم هزموا الجيوش المصرية وطاردوها حتى دمشق . ولو وازنا بين القولين ، فإننا نرى أن المصادر الخيبيية أقرب إلى الصدق ، وإذا كان رمسيس الثاني يستحق أن يفخر بشيء فليس بمعركة قادش أى حملته في العام الخامس وإنما بحملته في العام الثامن التي استطاع فيها أن يثأر لنفسه بعد أن قامت الثورة وامتدت حتى فلسطين . ولكن هذه الحروب الطويلة انتهت عندما استقر رأى كل من مصر وخيتا على عقد محالفة بينهما . وقد وصلتنا نصوص هذه المعاهدة كاملة من كل من مصر وخيتا ، وقد اتفق فيها كل منهما على وضع حد للحروب بينهما وذكرها فيها أنه كان هناك حد فاصل ، ولكننا لسوء الحظ لا نعرف أين كان هذا الحد^(١) وأراد « غاتوسيلي » ملك خيتا أن يوثق

(١) النصفان المصري والحيقي منشوران في مقال Gardiner-Langdon, *Journal of Egyptian Archaeology*, VI (1920), p. 179 H. وقد نشرنا حديثاً مع بعض التصحيحات والمراجع في كتاب *Ancient Near Eastern Texts* (1950) وترجم النص المصري جون ويلسون (ص ١٩٩ - ٢٠٠) وترجم النص الحيقي ألبرشت جونزه (ص ٢٠١ - ٢٠٣) .

الصلة بينه وبين مصر لجاء لزيارتها وكانت معه ابنته ليزفا عروسا إلى رمسيس ،
وكان ذلك في العام الرابع والثلاثين من حكمه (في عام ١٢٦٧ ق . م .) .

ولكن الحالة السياسية العامة في بلاد الشرق الأدنى كانت تسير في طريق آخر
غير ما قدرته خيتا وما قدرته مصر . لقد بدأت في ذلك الوقت هجرات هامة
للشعوب الهندو - أوروبية ، كما بدأت أيضاً إحدى دول ما بين النهرين وهي مملكة
أشور تدخل في دور نهضة بعد زوال مملكة ميتاني . واجتاحت الشعوب
الهندو - أوروبية كثيراً من البلاد وقضت في النهاية على دولة خيتا .

الحيثيون :

ذكرت الحيثيون أكثر من مرة وسيرد ذكرهم مرات ومرات ، وربما كان
من الخير تناول موضوع أصلهم وفترات نهضتهم بشيء من التحديد . فن المرجح
أنهم وفدوا إلى هضبة الأناضول في بداية الألف الثاني قبل الميلاد من موطنهم في
أواسط آسيا إلى الشرق من البحر الأسود ، وأنهم فرع من فروع الشعوب
الهندو - أوروبية ، وأصبحوا في القرون الأخيرة من الألف الثاني قوة مدت
تقوذا على ما جاورها من البلاد .

احتل الحيثيون عند مقدمهم جزءاً كبيراً من وسط هضبة الأناضول عند
منحني نهر الحاليس Halys وكانت عاصمتهم تسمى « خاتوساس » وموقعها الحالي
المدينة الأثرية المعروفة باسم « بوغاز كوى » على مسافة سبعين كيلو مترا تقريبا إلى
الشرق من أنقرة في وسط منطقة جبلية وعرة ما زالت بقايا تحصيناتها وقصورها
باقية إلى الآن ، وقد عثر فيها في أوائل سنوات هذا القرن على كثير من الوثائق
الهامة وبخاصة الألواح التي تشمل الأرشيف الملكي .

وحوالى عام ١٦٤٠ قبل الميلاد استطاع أحد ملوكهم ويسمى « لابارناس »
مد نفوذه على أجزاء أخرى كثيرة في داخل الأناضول ثم تمكن « خاتوسيل الأول »
من توسيع رقعة مملكة ، ورمى بعينه إلى إخضاع شمالي سوريا والسيطرة على

طرق التجارة بينها وبين آشور وبابل ، وقد تمكن خليفته «مورسيليس الأول» من تحقيق فكرته باستيلائه على حلب وغزوه أراضي الفرات واستيلائه على بابل ، ولكن هذا الغزو لم يعمر وقتا طويلا .

ومرت فترة على هذه الأسرة استطاعت خلالها أن توطد وتقوى ملكها داخل حدود آسيا الصغرى ، ثم قام الملك «شوبيلوليوما» Shubbiluliuma (حوالى عام ١٣٨٠ ق.م.) من مد نفوذ الحيثيين على منطقة واسعة في شمالي سوريا واصطدم بالميتانيين، ونصب حكاما مواليين له في المدن ، وحاول مد سلطانه أيضا على بلاد وادي نهر العاصي ومدن فينيقيا وجنوبي لبنان التي كانت موالية لمصر .

ووصلت قوة الحيثيين أوجها حوالى عام ١٣٥٠ ق.م. ولكن اتساع رقعة ملكهم كانت سببا في ظهور الضعف فيها . ولم تكن هناك مندوحة من وقوع الصدام بين خيتا ومصر، ودارت بينهما الحروب - كما ذكرنا من قبل - وانتهت أخيرا بالصلح وتوقيع المعاهدة الشهيرة بينهم وبين رمسيس الثانى ، وأصبحت الصلة بين البلدين صلة مودة وصداقة ، بل ومصاهرة بين البيتين المالكين . وحوالى عام ١٢٥٠ قبل الميلاد سقطت الإمبراطورية الحيثية تحت الضربات التي تلقتها من هجرات وغزوات قام بها على الأرجح فرع من فروع شعوب البحر .

وإذا كانت الامبراطورية الحيثية قد زالت وانتهت أيامها ، فإن عناصر الحضارة الحيثية ظلت حية لا فى مضى الأناضول فحسب ، بل وفى شمالي سوريا أيضا ، حيث تأثرت كثير من مدنها وبخاصة فى حلب وفى غيرها بتلك الحضارة .

وأمكن معرفة اللغة الحيثية من دراسة الآلاف العديدة من ألواح الطين التي عثر عليها فى بوزاز كوى ، واتضح أنهم كانوا يستخدمون فيما بينهم لغتين يتحدثون بهما ترجعان إلى أصل واحد أولاهما اللغة النسية (Nesite) وكانت لغة البيت المالك ، والثانية اللغة اللوفية (Luvite) التي كان يستخدمها عامة الشعب ومنتشرة انتشارا كبيرا فى البلاد .

ومن دراسة نصوص بوغاز كوى وقف العلماء على الكثير من أساليب إدارة البلاد ، كما عرفوا أيضا الكثير عن ديانة هذا الشعب واقتصادياته .

لم يكن الملك رئيس الدولة لحسب ، بل كان أيضا السكاهن الأكبر ، ورئيس الجيش الذى يقوده فى المعارك ، وكان القاضى الأكبر الذى يحكم بين الناس فى منازعاتهم ، وكان لآله الحق فى تولي مهام منصبه عند غيابه .

وكان يحيط بالملك مجلس استشارى من النبلاء ، وكان حكام الأقاليم يقومون بالحكم باسم الملك ، ومن أهم واجبات كل حاكم منهم أن يمد الجيش الامبراطورى بما يلزمه من جنود عند الحاجة مع الاحتفاظ بحامية ثابتة لصيانة الأمن والنظام .

ونعرف بما وصل إلينا من قوانينهم أنه كانت توجد طبقتان ، طبقة الأحرار وطبقة الأرقاء ، ولكن الجميع كانوا مكلفين بحكم القانون بالعمل فى إنجاز المشروعات العامة .

ومعلوماتنا عن ديانتهم قليلة نسبيا ، ولكن من الحقائق المعروفة أن بعض المعبودات السورية والخورية ، وربما بعض الآلهة التى كان يعبدها سكان آسيا الصغرى قبل قدومهم ، وجدت لها مكانا بين معبوداتهم . وكانت لهم معابد ، ومع ذلك فكانوا يقيمون كثيراً من احتفالاتهم الدينية ومراسم الديانة وطقوسها فى الهواء الطلق وعلى الأخص إلى جانب مجارى الأنهار .

وكانت لهم مدن محصنة تحصينا قويا ومحاطة بأسوار ضخمة ، ومن مظاهر عمارتهم زخرفة الجدران بأحجار منقوشة وعمل بوابات كبيرة على جانبيها تماثيل ضخمة .

كان المجتمع الحثي مجتمعاً يقوم على الزراعة وتربية الحيوان ، وكان فى قوانينهم ما يكفى لحماية هذه الثروة مثل تحديد أثمان المحاصيل ، كما نعرف أيضا أن قوانينهم حددت أجور بعض فئات الصناعات .

ولكن ثروة الحيثيين لم تكن مستمدة من الزراعة أو تربية الحيوان ، بل كانت في الواقع من المعادن التي تحتوى عليها بلادهم والتي كانوا يستخرجونها وعرفوا طرق صنعها ، ومنها النحاس والفضة والرصاص . وعلى الأرجح أنهم عرفوا أيضاً صنع الحديد ، وكان لهذا المعدن أثر كبير في حياتهم ، ويعتقد كثير من الباحثين في تاريخ الصناعة أن الحيثيين هم أول من عرفوا صناعة الحديد ، وأنهم جمعوا ثروة من الأسلحة المصنوعة منه التي كانت تفضل الأسلحة المصنوعة من النحاس أو من البرونز .

يكفيينا هذا القدر عن الحيثيين ، وانعد الآن إلى استئناف سرد قصتنا عن سوريا .

سوريا في الألف الأول قبل الميلاد :

أوضحت في الفصل السابق ما تعرضت له مصر من أخطار ، عندما تقدمت شعوب البحر لمهاجمتها من الغرب في البر ومن البحر ، وكيف استطاع الملك رمسيس الثالث أن ينقذها من خطر لم يقل عن خطر غزو الهكسوس .

وعلى أية حال ، فقد كان لهذا كله أثره المباشر على سوريا ، إذ انتهت سيطرة كل من خيتا ومصر السياسية ولم تكن آشور أو بابل قوية إلى درجة تسمح لها باقتهاز الفرصة ، وكانت النتيجة الطبيعية أن جميع البلاد السورية انقسمت إلى دول وولايات ، كان بعضها الذي يقع على الشاطئ تحت رحمة الشعوب المهاجرة التي استقرت فيها واختلطت ببقا السكان ، وكان البعض الآخر مستقلاً بنفسه . وفي هذا الوقت أيضاً ، أي عند انهيار سلطة الدول الكبرى ، هاجرت شعوب سامية أخرى وأخذت تحارب وتستقر هناك .

وخير ما يمثل لنا ضعف سلطة مصر في نهاية الأسرة العشرين وبداية الأسرة الواحدة والعشرين (أى حوالي ١٠٩٠ ق.م .) قصة الكاهن المصري « ونامون »

الذى قام برحلة إلى جبيل لإحضار أخشاب الأرز اللازمة لتجديد سفينة أمون وما لاقاه هناك من متاعب وسخرية . ولكن هذه القصة نفسها ترينا أنه بالرغم من زوال النهوض السياسى لمصر واستقلال أمراء البلاد عنها فإن نفوذها الثقافى والدينى كان سائدا هناك .

عثر على هذه البردية فى خرائب قرية الحبيبة^(١) فى محافظة المنيا عام ١٨٩٩ ، وهى محفوظة حاليا فى متحف الأرميتاج فى مدينة لينتجراد بالانحاد السوفيتى^(٢) ، ونظراً لأهميتها فى توضيح ما كانت عليه حالة كل من مصر والشاطئ السورى فى ذلك العهد ، وحقيقة الصلات التى كانت بينها ، فإنى أقدمها كاملة وترك الكاهن « ونأمون » يحدثنا بأسلوبه السلس عن رحلته وما صادفه فيها مع المعذرة لركاكة بعض التعابير وذلك لاجتهادنا فى المحافظة التامة على روح النص المصرى ، وإذا احتاج الأمر لإيضاح ما ، فإن القارىء يجده موضوعاً بين قوسين :

نص قصة « ونأمون » :

العام الخامس اليوم السادس عشر من الشهر الثالث من الصيف . (كان قدما المصريين يؤرخون بحكم كل ملك على حدة كما أنهم كانوا يقسمون العام إلى ثلاثة فصول وهى الصيف والفيضان والشتاء . وكل من هذه الفصول أربعة شهور وهى الشهور القبطية التى ما زالت مستعملة إلى الآن . والحكم المشار إليه هنا هو حكم « حريحور » الذى كان رئيساً للكهنة وملكا فى آن واحد) . فى هذا اليوم قام « ون أمون » رئيس إدارة معبد الإله أمون بالكرنك ، برحلته لى يحصل على الخشب اللازم لسفينة الإله أمون ملك الآلهة وهى التى فى النهر والمسماة « أوسرحات أمون » .

(١) الحبيبة قرية صغيرة فى الوقت الحاضر ولكنها كانت مدينة حلقة فى الأسرة الحادية والعشرين وكانت مقر ولى العهد فى ذلك الوقت .

(٢) اشتراها العالم الأثرى جوليلشف فى ذلك الوقت ، ولقد قام السكتمون بترجمتها ونجدنا بأنهم المراجع عنها فى كتاب Pritchard, Near Eastern Texts (1955) p. 25. كما ظهرت حديثاً ترجمة جديدة باللغة الروسية نشرها « كروستوفست » ولكنى لم أرها بعد .

في اليوم الذي وصلت فيه إلى صان الحجر، مقر «مهندس» و «تنت آمون» (الملك الذي كان يحكم القسم الشمالي من مصر وزوجته) أبلغتهما رسالة « آمون رع ، ملك الآلهة فأمرأ بقراءتها في حضرتها وقال « سنقوم بأداء ماطلبه آمون رع ملك الآلهة ، وبقيت في صان الحجر حتى الشهر الرابع من أشهر الصيف حتى مهد لي «مهندس» و «تنت آمون» السفر على مركب بقيادة القائد « منحييت » (الاسم سورى) . وفي أول يوم من الشهر نزلت إلى بحر سورييا الكبير (يقصد البحر الأبيض المتوسط) . وعند ما وصلنا إلى « دُر » ، إحدى مدن « زكار » ، قدم لي أميرها « بدار » ، خمسين رغيفا ، وقدرًا من النبيذ ونخذ ثور ولكن أحد رجال السفينة فر وسرق معه الآتي بيانه :

ذهب — أواني زنتها ٥ دين

فضة — ٤ أواني زنتها ٢٠ دين

فضة — داخل كيس زنتها ١١ دين

فيكون مجموعها ٥ دين ذهب و ٣١ دين فضة .^(١) وفي الصباح ذاته نهضت وذهبت إلى حيث يجلس الأمير وقلت له « لقد سُْرِقت في مينائك وأنت أمير هذا البلد وقاضيه فأبحث عن تقودي . إنها في الحقيقة تخص آمون رع ملك الآلهة وسيد الممالك ، إنها تخص «مهندس» وتخص « حريحور » ، سيدي كما تخص كبار رجال مصر . إنها تخصك أيضا وتخص «أورت» ، و «مكير» ، و « زكر بعل » ، أمير « جيبيل »^(٢) . فأجاني « هل أنت آت لكي تتشاجر أم آت لتتفاهم ؟ إنني لا أفهم شيئا مما تقول ، ولو كان أحد رجال إمارتي هو الذي صعد إلى ظهر سفينتك وسرق تقودك لدفعت لك من خزانتي قيمة ما ضاع منك حتى أعثر عليه ، ولكن اللص الذي سرقك هو رجل من رجالك وتابع لسفينتك فإذا ذلك ابق معي بضعة أيام حتى

(١) الدين وزن قديم قيمته ٩١ جراما .

(٢) كانت مصر في ذلك الوقت كما أسلفنا منقسمة إلى دويلات صغيرة ودفع كل منهم جانبا من هذه النفود كما أنه يقصد أن يقول للأمير أن هذه النفود كانت ستعطى للأمرء الذين أسماهم .

أبحث عنه ، . وعلى ذلك بقيت تسعة أيام راسيا في مينائه ثم ذهبت إليه وقلت له
« لأنك لم تجد نقودي وسأرحل مع القائد والراجلين . . . » (لسوء الحظ أن
جزءاً من الملف البردى تحطم من تأثير القدم وقد الكثير من كلماته ولكن ما
بقي منها نستطيع أن نفهم أنه قد اشتد الجدل بين الاثنين وفي إحدى الجلسات يذكر
« ون أمون ، أن الأمير قال له « يجب ألا تفوه بكلمة ، ثم يقص بعد ذلك أنه
غادر تلك الميناء ووصل إلى ميناء « صور » وواصل رحلته إلى « ذكر بعل »
أمير « جبيل » ولكن حدث أن قابل أثناء السفر بعض أفراد من قبيلة « زكار »
فهاجمهم انتقاماً منهم لأن اللص كان ينتمى إليهم واستولى على ما معهم وكان يبلغ
٣٠ دين من الفضة فلما شكوا هؤلاء ما أصابهم إلى الأمير أجاب « ون أمون »
« إنها نقودكم حقيقة ولكني سأبقيها وديعة عندي حتى تردوا لي نقودي » .

لم يكن بعد ذلك مناص من نشوب العداوة بينه وبين زجال شعب « زكار »
ولقد فضل الأمير « زكار بعل » ألا يجلب على نفسه عداوة قوم أقوياء ولذلك آثر
أن يقتصر على ما كان « ون أمون » مرضاة لهم فأمره بمغادرة البلاد ولكن « ون أمون »
كان يريد الخشب وفي الوقت ذاته يخشى على نفسه إذا هو غادر الميناء أن يفتك
به أعداؤه . بعد ذلك يستقيم النص المصري ويستمر « ون أمون » في سرد قصته :
« وقضيت تسعة عشر يوماً في مينائه وكان يرسل لي يومياً من يقول لي غادر مينائي ،
وقد حدث أثناء تقديمه القرابين لبعض آلهته أن أخذت أحد أشرف بلاده نوبة
عصبية فنطق أثناء غيبوبته قائلاً « أحضروا الإله هنا ، أحضروا الرسول الذي أتى
معه . إن أمون هو الذي أرسله وقدر عليه الهوى » ، وقضى الشاب ليلته يقول ذلك .
وحدث أن سفينة كانت ذاهبة إلى مصر وكنت منتظراً إلى أن يرخصي الليل سدوله
حتى أتمكن من نقل تمثال الإله دون أن تقع عليه عين إنسان . وحضر إلى
رئيس الميناء قائلاً « ابق حتى الصباح حسب إرادة الأمير » فقلت له « أأنت
أنت الذي كنت تجيء إلى كل صباح قائلاً غادر مينائي والآن تقول لي ابق ؟
ربما يجعل الأمير المركب التي وجدتها ترحل ثم يطلب مني بعد ذلك أن أغادر
بلده » فذهب وقال ذلك للأمير فأرسل إلى قائد المركب يأمره أن ينتظر حتى الصباح

بأمر الأمير . فلما حل الصباح أرسل في طلبى فتركت الإله (فى مخبئه) حيث كان على شاطئ البحر وذهبت إلى الأمير فوجدته جالسا فى حجرتة العليا وظهره إلى الشباك وأمواج بحر سوريا الكبير تتلاطم وراءه ففأجابته قائلا « رحمة أمون ! ، فأجابه « كم مضى عليك من الزمن منذ غادرت مقر أمون ؟ ، فأجبه « خمسة شهور كاملة حتى الآن ، فقال لى « هل أنت صادق فى قولك ؟ أين إذن خطاب الكاهن الأكبر الذى أرسله معك ؟ ، فرددت قائلا أعطيته لى « سمنس ، و « تفت أمون ، فثار ثأره وقال « انظر ! ليس لديك كتب أو خطابات ، أين إذن السفينة التى أعطاه لك « سمنس ؟ ، وأين بحارتها السوريون ؟ إنه لم يسلك إلى قائد السفينة اسكى تقتل ويُلقى بك إلى البحر ، من أين أمكنهم الحصول على الإله ؟ وقل لى أنت من أين حصلوا عليك ؟ ، كان هذا هو قوله لى ، أما أنا فأجبهته « ولكنها سفينة مصرية وبحارتها مصريون ، تلك التى يسيرها « سمنس ، إنه ليس لديه بحارة سوريون ، فأجابه « ولكنه يوجد عشرون سفينة هنا فى مينائى على « خبر ،^(١) مع سمنس . وفى صيدا التى اجتزتها يوجد أيضا خمسون سفينة على « خبر ، مع « بركات إيل^(٢) وتذهب إلى حيث يقيم .

فصمت فى هذه اللحظة الرهيبة ولكنه عاد قائلا « لآى غرض أتيت إلى هنا ؟ ، فقلت له « أتيت فى طلب الخشب لسفينة أمون رع ملك الآلهة . لقد اعتاد أبوك أن يفعل ذلك ، وكذلك كان يفعل جدك ، وستفعل أنت أيضا . فلما قلت له ذلك أجابنى « لقد فعلوا ذلك حقيقة فإذا أعطيتنى شيئا فعلت أنا أيضا . لقد كان أهلى حقيقة يلبون هذا الطلب ولكن فرعون كان يرسل ستة سفن محملة من خيرات مصر وكانوا يفرغونها فى مخازنهم ، فعليك أنت بإحضار شئ لى ، وأمر بإحضار دقاتر القيد اليومى ، وأمر أن تُقرأ بصوت مرتفع أمامى ووجدنا أنها كانت ألف دين من كل نوع من أنواع الفضة ، تلك التى قيدت فى دفتره . سم قال لى

(١) كلمة قينية معناها « اتصال » أو « مصاحبة » استعملت فى اللغة المصرية القديمة فى ذلك العهد .

(٢) ربما كان أحد كبار التجار السوريين المستوطنين فى مصر إذ دأب .

ولو كان حاءً صر هو المتصرف فيما أمرك وأما عند له لما أرسل ذهباً
 ولا فصة عندما أرسل قائلاً : لبوا طلب أمون ، كما أنها لم تكن هدية ملك أرسلها
 إلى أبي (يقصد بذلك أن يقول له : ون أمون ، أن المسئلة لم تكن في الماضي جزية
 أو هدية ولكنها كانت تجارة) ، وأنا لست خادماً لك كما أني لست خادماً لمن
 أرسلك . لأنني إذا وجهت القول إلى لبنان تفتحت السماء ووجت الأشجار على
 شاطئ البحر . أرنى القلوع التي أحضرتها معك لكي تستعين بها لتسير سفنك
 التي تحمل الخشب . أرنى الجبال التي ستربط الخشب بها لأنه بدون ذلك لا يمكن أن
 تصل الأخشاب سالمة إلى مصر . بل ربما كان هناك خطر أن تتحطم سفنك في وسط
 البحر لأن أمون يرسل الصواعق من السماء ويأمر سوتخ ، بن يشور في الفصل
 المعين له . لأن أدون هو الذي أنشأ الأراضي . أنشأها جميعاً . ومصر التي أنيت
 منها هي التي بدأ بها . لقد أتت الصناعات عن طريق مصر حتى هنا كما وصلتنا
 حضارتها في هذا البلد ولكن ما هذه الرحلة الصديانية التي جعلوك تقوم بها ؟ ،
 فرددت عليه قائلاً : لا تقل ذلك ! إن ما قمت به ليس رحلة صديانية ، وليس
 هناك سفينة فوق الماء لا يملكها أمون . إنه هو البحر ويمت لبنان التي تدعى
 بأنها ملكك وما هي في الحقيقة إلا حقول لأجل الخشب اللازم للسفينة أو سرحات -
 أمون ، سيادة السفن جميعاً . لقد نطق أمون روع منك الآفة بالحق عندما قال
 لخرينحور سيدى أن يرسلنى وجعنى أسافر ، ونصحتى هذا الإله العظيم . ولكن
 أنظر ! لقد جعلت هذا الإله العظيم يقضى تسعة وعشرين يوماً منذ أن رسا في
 مينائك وأنت تعلم حق العلم بأنه هنا . إنه باق كما هو . بينما أنت تقف تناضل .
 تناضل في أشياء هي له . وأن لبنان ما هي إلا ملك لسيدتها أمون . وأما ما قلته بشأن
 الملوك السابقين وما أرسلوه من ذهب وفضة فإن أمون أمرهم بإرسال هذه الأشياء
 بدلاً من أن يمنح أجدادك الحياة والصحة . وهو الله الأعظم المانح للحياة
 والصحة ، وكان سيد آبائك الذين نالوا حياتهم بتقديم قرابينهم له وما أنت أيضاً
 إلا خادماً لأمون . فإذا قلت : حسناً سأفعل هذا ، وتجيئ من ضده فستحيا وتكتب
 لك الصحة والسعادة وستكون شخصاً مباركاً لأرضك وتقومك . بل كنى أحذرك

من أن يطعم قلبك في شيء. يخص أمون رع فإن الأسد لا يترك ما يملكه لغيره .
 وأضمت قائلًا ادع كاتبك إلى لكي أوفده إلى سمنس ، و دنت أمون ،
 سيادة أرض أمون الشمالية حتى يرسلوا لك ما تريده . سأكتب إليهم قائلًا
 د أرسلوا ما أطلبه حتى أصل إلى الجنوب وأرد لكم ما أخذته . فأخذ كتابي
 وسلته إلى رسوله وأمر بالبحث عن الأخشاب اللازمة وجمعها سبع كتل لكي
 تحمل إلى مصر . وانتظرت عودة رسوله . فلما رجع من مصر إلى سوريا في أول
 أشهر الشتاء أحضر ما أرسله سمنس ودنت أمون إلى وهو كالآتي :

ذهب : أربع أباريق وإناء من نوع د كاكنت ، .
 فضة . خمس أباريق .

ملابس من الكتان الملكي .	—	١٠ قطع
كتان من نسيج الصعيد	—	١٠ لفات
ملفات بردى	—	٥٠٠ ملف
جلود ثيران	—	٥٠٠ جلد
عسدس	—	٢٠ جوال
سمك	—	٣٠ سلة

وأما ما أرسله إلى شخصيا فهو :

ملابس كتان من نسيج الصعيد	—	٥ قطع
كتان من نسيج الصعيد	—	٥ لفات
عسدس	—	١ جوال
سمك	—	٥ سلات

وقد سر قلب الأمير وأمر في الحال بتخصيص ثلاثمائة رجل وثلاثمائة ثور
 وعلى رأسهم الملاحظون لكي يقطعوا الأشجار ، وقد قطعوها وبقيت طيلة الشتاء
 وفي الشهر الثالث من شهور الصيف جروها إلى شاطئ البحر

وخرج الأمير ووقف بجوارها وأرسل من يدعو قائلًا: « تعال » ، فلما أحضرني إليه اقتربت منه حتى وقع ظل مظلته على « بنامون » ، ساقيه ووقف بيننا قائلًا . « لقد وقع عليك ظل فرعون سيدك » ،^(١) . فغضب الأمير من ذلك وصاح به : « اتركه وشأنه » . فقربوني منه وقال يخاطبني : « انظر ! إن المهمة التي كان يقوم بها آباءني فيما مضى قد قت بها رغم أني لم آخذ ما كانوا يأخذون . لقد وصلت آخر قطعة من الخشب وتجده كله هناك فنفذ رغبتى الآن . حملها لأنها صارت لك ولا تخف من البحر ، فإذا خفت منه فلا تنس الخوف من غضبي . إنى تسامحت معك ولم أفعل بك ما فعلوه مع رسل « خبمواس » ، عندما قضوا سبعة عشر عاماً في هذه البلاد حتى ماتوا . وصاح بساقيه قائلًا : « خذه وأره مقابرهم حيث يرقدون » ،^(٢) . فأجبت : « لا تريئها ! فأما خبمواس فلم يكن إلا إنساناً ، ورسله رجال مثله ، وأنا لست واحداً منهم ، ومع ذلك تقول أذهب والى انظرة على زملائك . أليس الأجدر بك أن تفرح وأن تأمر بلوحة يكتب فيها « أن أمون رع ملك الآلهة أرسل إلى رسوله « أمون سيد الطريق » ، مع « ون أمون » ، رسوله الإنسانى في طلب الخشب اللازم لسفينة أمون رع العظيمة . لقد قطعته وأعدته وحملته بواسطة سفنى وبجارتى حتى وصلت إلى مصر لأحصل لنفسى من أمون على عشرة آلاف سنة زيادة عن عمرى المقرر لى . وهكذا سيكون » ، فإذا جاء يوماً ما في مستقبل الأيام رسول من مصر يعرف القراءة وقرأ اسمك على اللوحة فستنتعش روحك ويصلك ماء الشرب في العالم الآخر كالآلهة الذين يقيمون هناك » . فقال لى : « هذه بينة كبيرة على ما قصصته على » (المعنى الذى يقصده الأمير غامض ولكن من إجابة الكاهن يتضح أنه لا يهمه أمر الدين كثيراً) . فأجبت : « عندما أصل إلى مقام كاهن أمون الأكبر ويرى ما قت به فستصلك أشياء أخرى ، وهذا رد على ما جاء على لسانك ، وطلبته » .

(١) قد استخدم الأمير ساقيا مصريا كما يتضح من اسمه وهذا الساقى يريد أن يحىى تقاليد البلاط المصرى التى كانت لا تسمح لأى فرد من الرعية أن يقترب من الجالس على العرش .

(٢) تشير إلى قصة رسل أرسلهم أحد ملوك الرعامسة ، وردنا كان رئيس التاسع ، وهى قصة لا يعرف شيئاً عنها ، لا ما هو مذكور هنا .

وذهبت إلى الشاطئ حيث وضعوا الخشب ورأيت أحد عشر سفينة آتية من البحر وهي تخص أهل د زكر ، آتية ومعها الأمر : د حدوه أسيراً ولا تجعلوا أى سفينة له نصل مصر ، فلم يسعى إلا الجلوس والبكاء .

لجاء في كاتب الأمير وسألني : د ماذا أصابك ، ، فأجبت : د وأيم الحق لقد رأيت الطيور تعود لليرة الثانية ميممة نحو مصر . أنظر إليها طائفة نحو البحيرة المنعشة ، ولست أعلم كم أبقى من الوقت هنا ، وها أنت تراهم أتوا لأخذى أسيراً .

فذهب وأخبر الأمير بذلك فحزن الأمير وبكى لهذه الأخبار المحزنة ، وأرسل إلى كاتبه معه دنان من النبيذ وخروب ، كما أرسل د ثلث نوت ، وهي مفضية مصرية كانت عنده وقال لها : د غش له ولا تجعلى الحزن يتطرق إلى قلبه ، وأرسل رسوله يقول لى : د كل واشرب ولا تجعل لله سبيلا إلى قلبك وستسمع رأى غدا ، . فلما أصبح الصباح دعا أصحاب سفن د زكار ، ووقف في وسطهم قائلاً : د ما معنى مجيئكم ؟ ، فأجابوه : د لقد جئنا في طلب السفن التعسة التي سترسلها إلى مصر مع زملائنا ، . فقال لهم : د أنا لا يمكنى أخذ رسول أمون أسيراً في بلادى . دعوني أرسله بعيداً ويمكنكم أن تتبعوه وتأسروه .

ومكننى من السفر من الميناء إلى البحر ، وساقنى الريح إلى بلاد د أرسا ،^(١) ، فخرج أهل المدينة لذبى لحرير منهم حتى وصلت إلى مسكن د حتب ، ملكة البلدة والتقيت بها عندما كانت خارجة من أحد بيوتها ذاهبة إلى الآخر . فحييتها وقلت للذين حولها : د أليس فيكم من يفهم اللغة المصرية ؟ ، فأجاب أحدهم : د أنا أفهمها ، فقلت له : د قل لسيدتك بأنى سمعت الناس يقولون فى كل مكان حتى وصل قولهم إلى طيبة مقر أمون ، بأن الظلم يرتكب فى كل بلد إلا فى مدينة أرسا حيث يسود العدل ، ولكنى أرى الظلم يصيب الناس كل يوم . فأجابت د ماذا يعنى قولك

(١) د أرسا ، هى قبرس ولم يوصح د ون أمون ، السبب الذى دعا أهل الجزيرة لأن يقفوا منه هذا الموقف العدائى .

هذا؟ ، فقلت لها : « إذا ثار البحر واضطربني الريح أن أرسى على البلد الذي تقيمين فيه فأرجو ألا تقبضني على لتقتليني ، علما بأنى رسول الإله أمون . تدبرى جيذا فأنى شخص سوف يبحث قومه عنه . وأما بحارة أمير جبيل الذين سيدبحونهم أيضا فإن سيدهم سوف يشار لهم ، وإذا وجد عشرة من بحارتك فسيقتلهم » . عند ذلك دعت الناس فحضروا إليها فخطبتهم قائلة « اذهبوا لتناموا . . . » . هنا ينتهى النص لفقد باقيه لسوء الحظ . وقد بقيت القصة دون أن نعرف ماذا حدث له وكيف تغلب على صعوبته الجديدة ولو أننا على ثقة أنه وصل إلى مصر ورفع تقريره .

الآن وقد انتهينا من ترجمة هذه القصة ترجمة حرفية نرأينا لونا من ألوان الأدب المصرى القديم فى سرد الحكاية والمحاورة وروح الدعاية التى فيها ، وجب علينا أن نتحدث قليلا عما احتوته .

ليست هذه القصة فى حقيقه الامر غير جزء من التقرير الذى رفعه الكاهن « ون أمون » عن رحلته غير الموفقة . لقد صادفه النحس من البداية وظل ملازماً له ، وكان ذلك بسبب سوء تصرفه إذ أنه هو الذى بدأ بالعدوان . وتكشف لنا هذه القصة أيضا عن حوار تمتع بين شخص لا يعتمد على شيء إلا على حسن منطقته ويريد أن يلقى فى روح كل إنسان أنه موفد من قبل الإله أمون وأن رحلته لها ميزة إلهية . ولكننا نلص من حديث « ون أمون » نفسه أن هذه الدعوة لم تلق سامعا ، كما أن التمثال الذى كان معه لم يفده شيئا ، بل كان على العكس مصدر تعب له ليقظته المستمرة عليه وحرصه على ألا تقع عليه عين إنسان أثناء نقله . ولكن مهما قلنا عن عدم توفيق الرحلة فإننا لا يسعنا إلا الإعجاب بفصاحة « ون أمون » وحسن تصرفه وسرعة بديته فى كل المواقف التى مرت عليه وجلده الذى لم يخنه إلا مرة واحدة عندما جلس ليبنى على شاطئ البحر لما رأى سفن أعدائه آتية لأخذه أسيرا والاستيلاء على ما معه فى اليوم الذى تحقق فيه غرضه وكان على وشك الإقلاع بسفنه عائداً إلى مصر .

إننا نلح في ثانيا هذا التقرير أو هذه القصة الكثير من نفوذ مصر الأدبي في فينيقيا رغم أنه قد مضت نحو مائتي عام على الوقت الذي كان يرى فيه أهالي تلك البلاد الجنود المصرية تروح وتعدو بينهم كان الأمير يتكلم اللغة المصرية كما أن ساقيه كان مصرياً وكتبه كان مصرياً وفي قصره مغنية مصرية ، وهي التي أرسلها إلى الكاهن لتسرى عنه همومه بغنائها ورقصها . كانت الموسيقى المصرية ذائعة في جميع الأمم القديمة ، واعترف اليونان بأنهم نقلوا عن مصر أصول هذا الفن فليس من المستغرب أن نجد أمير لبنان لا يرى سييلا إلى إشباع نفسه من هذه الموسيقى إلا بإحضار مغنية تقيم في بلاطه .

كان موقف هذا الأمير مع الكاهن ، و « أمون » ، مملوءا بالمتناقضات ، ولكنها متناقضات يفسرها أمر واحد ، وهو حب هذا الأمير للبال . كان غرضه الأساسي هو الحصول على الثمن ، فلما وصله لم يعد يهمه الكاهن في شيء . وأراد التخلص منه لئلا يجلب عليه عداوة أناس ربما كان في حاجة إلى صداقتهم ، ولكنه ساعده في اللحظة الأخيرة على الإفلات من يدهم ، وعطف عليه في محنته وساعدت الأقدار هذا الكاهن السيي الحظ فيما بعد فنجا من أعدائه الذين يريدون هلاكه .

لقد رأينا من كلمات الأمير أنه رغم عدم اعترافه بسلطة الإله أمون رع على بلاده فإن حديثه يتم على معرفته التامة لمصر وآلهتها . ويجب ألا يغيب عنا أن هذه القصة ترينا أن سكان الشاطئ السوري في هذا العصر كانوا على كثير من الحضارة وكان لامرأتهم قصور تطل على البحر ، كما أنه كان لهؤلاء الأمراء دواوين منظمة تحفظ فيها جميع الأوراق الهامة لمئات السنين ، كما يجب ألا ننسى أيضا أن هذه الأوراق كانت تحرر على البردي الذي كان يأتي من مصر كما ينص هذا التقرير على وجود خط ملاحى منتظم بين جبيل وصال الحجر في ذلك الوقت ووجود تجار سوريين أغنياء في الموانئ المصرية .

ولإن هذه القصة ، ولو أنها لا تعد في المرتبة الأولى بين ما وصل إلينا من الأدب المصري القديم ، ليست إلا صورة لتقرير رفعه مضرى عن مهمة أداها ، ونحن

لا يسعنا الآن عند قراءتها إلا العطف على « ون أمون » لما لاقاه من صعاب كما نحس في كل جملة من جملة روح الدعاية الغالبة على أسلوبه ، واعتماده على حسن منطقته . وهى تصور لنا فى الوقت ذاته جانبا من جوانب التاريخ المصرى وصلة مصر بالشاطئ السورى قبل ثلاثة آلاف سنة .

ضعف الإمبراطوريات الثلاثة وازدهار بعض الدول السورية :

كان لضعف كل من العراق ومصر وخيتا أثره المباشر ، كما قلنا ، كما كان لأحداث القرنين السابقين اللذين أعقبا ضعف الإمبراطورية المصرية تأثيرهما المباشر أيضاً ، إذ حدثت أثناءها هجرات سامية جديدة . فإذا ما انتشع الغبار نجد أن ثلاثة شعوب قد بدأت توطد أقدامها فى البلاد السورية ، وربما كانت هناك شعوب أخرى ولكن هذه الشعوب الثلاثة احتلت مكان الصدارة ، وكان لكل منها شأن كبير فيما بعد . وهذه الدول الثلاثة هى : الآراميون و الفينيقيون و العبرانيون ، ولم تكن هذه الشعوب جديدة على المنطقة بل كانت فيها منذ قرون كثيرة ، ولكنها بدأت فى هذا الوقت بالذات تدخل فى أدوار جديدة هامة من تاريخها .

ويحسن بنا الآن ، وقد وصانا إلى هذا الحد ، أن نتناول كلا منها أو بعضها على حدة ، ولكن قبل أن نفعل ذلك يجب أن نقف وقفة قصيرة لنلقى نظرة عامة على حالة البلاد . فنجد فى التاريخ أى حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد أخذت الهجرات السامية تتوالى على هذا الجزء من بلاد الشرق كما توالى أيضا على العراق وإلى حد قليل على مصر . وليس معنى ذلك أن البلاد السورية كانت خالية من الساميين فى ذلك الوقت بل كان فيها دون شك أقوام ساميون اختلطوا بسكانها الأصليين الذين كانت لهم لغات وديانات غير سامية الأصل ، ولكن سرعان ما طغت اللغات السامية على غيرها . ويتضح لنا ذلك من دراسة تاريخ كل من الآموريين

(ويكتبها البعض العموريين في بعض المؤلفات) والكنعانيين ، وبما عثر عليه في البلاد التي تم حفرها في فلسطين في الجنوب ، وفي راس الشجرة في الشمال وفي تل الحريري في الشرق وفي كثير من مدن الشياطين في الغرب . ومنذ هذا الوقت أيضا حتم موقع سوريا الجغرافي عليها أن تتصل بالمدينتين الكبيرتين التي كانت حولها ، فكان لكل من مدينتي مصر والعراق بنوع خاص أثرهما الكبير ، كما كان للمدينة المينوية وبلاد الأناضول أثرهما أيضا . ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك فإن هجرات الشعوب الهندو - أوروبية واستيطانها في كثير من المناطق السورية كان لها هي الأخرى أثر غير قليل . ولكن جميع هذه التأثيرات لم تؤثر إلا أثرأ محدوداً على قوة العنصر السامي ، وإن كان اتصالها بكل هذه المدينتين ترك في المدينة السورية أثره في الدين وفي الصناعة وفي العادات ، بل أن التقاء هذه المدينتين في سوريا وامتزاجها فيها جعل لها طابعاً خاصاً تميزت به في بعض عصورها وتبضح ذلك بجلاء منذ الألف الأول قبل الميلاد بنوع خاص .

الآراميون :

وإن يتسع نطاق هذا البحث لذكر الكثير عن الآراميين أو غيرهم ولكن تكفي هنا بعض لمحات قليلة للتعريف بهم . لقد ظهر اسم « آرام » في المصادر التاريخية منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد^(١) ، كما ورد أيضاً في وثائق مدينة ماري وفي وثائق أوجاريت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، وفي الوثائق الآشورية المبكرة في القرن الرابع عشر عندما يتحدث الملك الآشوري « اريك - دين ايلو » (١٣١٧ - ١٣٠٦) عن اقتصاره على الآراميين وما ذكره تيجلات بلسر الأول (١١٢٠ - ١٠٧٤) عن الآراميين - الأخلامو الذين جاءوا من الصحراء وبشوا الفوضى على شواطئ الفرات^(٢) .

(١) ورد ذكر « آرام » للمرة الأولى في نصوص من عهد الملك نرام سين حفيد سرجون الأول .

(٢) جاء ذكر الأخلامو في رسائل تل العمارنة ومعناها الرفاق ، وربما كان هذا هو الاسم الذي أطلقه الآشوريون على بعض قبائل كوت من نفسها اتحاداً فأصبحوا يسمون بهذا الاسم .

أخذ الآراميون يقيمون «دول - مدن» تجارية في بلاد الفرات الأوسط ، وفي منطقة سوريا الوسطى منذ نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وكان اسم إحدى دولهم «أرام - نهرايم» ، أى أرام النهرين . ولكن الآشوريين قضوا على هذه الدولة في القرن التاسع قبل الميلاد . من هذه الدول أيضاً كانت دولة أخرى عاصمتها في حران^(١) وتسمى فدان أرام . ولكن الدولة التي أصبح لها شأن كبير كانت مملكة دمشق «أرام دمشق» التي تأسست في أواخر القرن الحادى عشر قبل الميلاد أى في وقت تأسيس مملكة العبرانيين على الساحل ، وأصبحت لها مكانة كبيرة واتسعت رقعتها .

كانت عاصمة الآراميين في ذلك الوقت في مكان يسمى صوبا (زوباه) ويرجح أن مكانها الآن بلدة عنجر في البقاع جنوبى زحلة^(٢) . وقامت حروب كثيرة بينهم وبين العبرانيين ، وقد استولى الملك داوود أثناء هذه الحرب ، لفترة قصيرة ، على مدينة دمشق ولكنها سرعان ما تخلصت من ذلك . وبعد موت سليمان وتفرق كلبة العبرانيين استطاع الآراميون الاستيلاء على بلادهم وأصبحت مملكة إسرائيل نفسها تحت حمايتهم ، وكان ذلك حوالى عام ٨٧٥ ق.م . كما نعرف من رواية التوراة^(٣) .

وعندما بدأت الدولة الآشورية في توسعها في القرن التاسع قبل الميلاد . وأصطدمت بالآراميين وهددت جميع البلاد السورية ، كون ملك دمشق اتحاداً من اثني عشر ملكاً كان على رأسه ملكها «بن - هدد» ، وكان من أشهر الذين انضموا إلى هذا الاتحاد أحاب ملك إسرائيل ، وملك حماة وبعض المدن الفينيقية . وبلغ عدد جيشهم ٦٠,٠٠٠ فقاتلوا الآشوريين في معركة القرقار على نهر العاصى .

(١) نعرف من قصص التوراة أن اسحق بن سيدنا إبراهيم تزوج من رقة - وكانت مرائية كما أرسل ابنه يعقوب ليتزوج من حرائية أيضاً (سفر التكوين ٢٤ : ٤ ، ٢٩ : ٢١) .

(٢) Kraeling, *Aram and Israel*, p. 40

(٣) سفر الملوك الأول ١٥ : ١٨ وسفر الأيام الثانى ١٦ : ٢ - انظر أيضاً سفر الملوك الأول ٢٠ : ١ .

ولم يكتب النصر الكامل لأحد الجيشين وانسحب الآشوريون . واتسع نفوذ مملكة دمشق في عهد « بن هدد » ، ويسمى أيضاً « حزائيل » ، فهاجم مملكة إسرائيل ووسع سلطانه جنوباً حتى ضم شرق الأردن ووصل إلى سهل فلسطين الساحلي وتمكن بذلك من السيطرة على طرق التجارة التي كانت تسير في ذلك الوقت بين بلاد العراق ، والساحل ، ومصر ، وبلاد العرب ، وأصبحت مملكة إسرائيل تحت رحمتها ، كما قبلت مملكة يهوذا دفع الجزية لها . ولكن حروب حزائيل المستمرة أضعفت مملكة دمشق فاستطاع يربعام الثاني أن يستقل ثانية ، بل استطاع مهاجمة بعض بلاد المملكة الآرامية نفسها ، ومن بينها دمشق وحماة ، حوالي عام ٧٥٨ ق م .

وأخيراً انتهز أحد ملوك آشور العظام وهو تيجلات - بلسر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ قبل الميلاد) فرصة النزاع بين ممالك دمشق وإسرائيل ويهوذا فاستطاع ذلك الملك الآشوري أن يهزم الآراميين ، وصب غضبه ونقمته على دمشق فحرقها وأحاطها إلى حطام ، وحرق بسايتها وأجلى عنها أهلها^(١) . سقطت دمشق في عام ٧٢٢ ق م . ولكن مملكتي إسرائيل ويهوذا اللتين ساعدتا على ذلك جاء دورها فيما بعد ، وانتهتا على يد الملك الآشوري نفسه ، ومن جاء بعده ، وبخاصة سرجون الثاني .

ولم تبق للمملكة الآرامية بعد ذلك قائمة ، وأصبحت المنطقة كلها منذ ذلك الحين حتى ظهور الإسكندر الأكبر تدور في فلك الدول الكبرى التي أخذت تتصارع ، فظهر الكلدان ثم جاء الفرس وأخيراً الإسكندر الأكبر . ولكن إذا كانت المملكة الآرامية قد زالت كقوة سياسية فقد بقيت آثارها الثقافية في بلاد الشرق وقتاً طويلاً بعد زوالها ويتمثل ذلك في ديانة الآراميين ولغتهم .

كان الآراميون أهل تجارة فانتشرت معهم اللغة الآرامية ، وكانت بين اللغات التي انتشرت مع التوسع الآشوري ، وزاد انتشارها حتى أصبحت لغة التجارة

(١) جاء وصف أعمال تيجلات بلسر الثالث و نقوشه — انظر تلامبيليا Luckenbill
Ancient Records I, 777

الرسمية في جميع بلاد الهلال الخصيب قبل القرن الخامس قبل الميلاد . وكانت اللغة شبه الرسمية في عهد الفرس ، وكانت اللغة التي يستخدمها يهود فلسطين في جميع البلاد التي تفرقوا فيها بعد سبي بابل ، وبعد استقرارهم في كثير من البلاد في عهد الفرس . بل يذهب بعض الذين عنوا بتاريخ الآراميين إلى أنها كانت منتشرة من الهند حتى بلاد الحبشة ، كما كانت اللغة التي يتحدث بها الناس في كل من سوريا وفلسطين عند ظهور المسيحية ، وكتبت بها الأناجيل . وانتشرت مع اللغة الآرامية الكتابة الآرامية أيضا فاستخدم اليهود من الآراميين ، بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، الكتابة الآرامية وكانوا قبل ذلك يستخدمون الكتابة الفينيقية . كما أخذ العرب الشماليون من الأنباط كتابتهم التي كانوا يستخدمونها ، وهذه بدورها مشتقة من الكتابة الآرامية . ومن المعروف أن أقدم نسخ القرآن كتبت بهذا الخط وأن الكتابة العربية الحديثة قد تطورت عن تلك الكتابة ، كما نعلم أيضا أن الكتابة الآرامية قد انتشرت بين الفرس والآراميين والهنود . أما اللغة الآرامية فقد بقيت - كما قلنا - فترة طويلة من بعدهم ، وظلت في مملكة شمال (في سنجرلي بين أنطاكية ودمشق) وفي حماة ، وفي تدمر بل وفي فلسطين ، وفي الجنوب بين الأنباط ، وقد ظلت حتى اليوم اللغة الرسمية في الكنيسة السوربانية ، بل وما زال بعض أهل سوريا يتحدثون بها الآن ، وليست السوربانية إلا إحدى اللهجات الآرامية (١) .

أما عن ديانتهم فإننا نعرف أنه كان لهم إله رئيسي يسمى « هدد » (ويكتب أحيانا حدد ، أو أدد) ويرجح أنه انتقل منهم إلى الآموريين وإلى البابليين كما انتقل أيضا من الآموريين إلى الكنعانيين . وكان من ألقابه « رمون » ، أو « رمان » ، ومعناها المرعد وكان مختصا بالزوابع والرعد والأمطار وكان معبده الرئيسي في

(١) من أفضل المراجع عن تاريخ الآراميين الكتاب الذي وضعه A. Dupont-Sommer, *Les Araméens*, Paris 1949, وقد عرض فيه ديون — سوميه تاريخ الآراميين وثقافتهم وديانتهم وأثرهم في بلاد الشرق عرضا مختصرا يتسم بالدقة وسعة الاطلاع ، وفيه أهم المراجع الهامة ، كما يجد القارئ أيضا بعض النقط الهامة في الفصل الخاص بالآراميين في كتاب Moscati, *Geschichte und Kultur der Semitischen Völker* (1955), p. 148-168.

في المدينة التي كانت تسمى في العصور اليونانية - الرومانية باسم «هيراپوليس»
وذكرت في المصادر العربية باسم «منبج» .

ولم تكن عبادته قاصرة على هذه المدينة بل انتشرت في مدن كثيرة في بقاع
مختلفة من سوريا ، وقد توحد مع عبادة الشمس ، ومن المحتمل أنه أصبح فيما بعد
الإله جوبتر الذي كان يعبد في دمشق وفي بعلبك

ويجاء ذكر معبد «هدد» في دمشق في التوراة (الملوك الثاني : ١٨٠ هـ) وكان
يشغل المكان الذي أقيم فيه المسجد الأموي ، وقد ذكر الاصطخري (في منتصف
القرن العاشر الميلادي) أن هذا الهيكل كان يتعبد فيه الصابئة ثم اليونان واليهود . وكان
لهدد زوجة تعبد إلى جانبه وذكرت في المصادر اليونانية الرومانية باسم «أترجاتيس»
(Atargatis) وتقابل الإلهة «عشتار» . ونعرف أيضاً من أخبار التوراة أن معبد
«هدد» في عهد الآشوريين كان معبداً فخماً أعجب به الملك الآشوري تيغلات بلسر
وأمر بأن تؤخذ أبعاده ليقام معبد مماثل له في أورشليم ، كما نعرف أيضاً أن
هذا المعبد كان معبداً هاماً في العهد الفارسي ، وقد أرسلوا إليه تمثالاً للإلهة
«عنت» . ولم يكن «هدد» وزوجته «أترجاتيس» هما الإلهين الأوحدتين لدى
الآراميين بل عبدوا معهما آلهة أخرى أخذوا عبادتها من الشعوب المجاورة لهم
مثل الإله «ايل» ، والإله «ركب - ايل» ، أو «ركب» فقط ، والإله «شمش» ،
والإله «رشف» الذي يعرف أيضاً باسم «بعل شمين» أي رب السماوات .

ومن دراسة الآثار السورية نعرف أن الإله «هدد» كان المعبود الأكبر في
منطقة حلب وزنجرلي ، وقد حلت عبادته محل إله آخر كان معروفاً في شمال
سوريا وهو الإله «خاني» (Hamani) وقد اشتهرت عبادته في حلب منذ منتصف
الألف الثاني قبل الميلاد . وكان لهذا المعبد وحى يقصده جميع سكان المناطق
المجاورة القامسا للشورة ، وقد توقف شلمنصر الثالث ملك آشور في حلب ليقيم
له القرايين . وعثر في مدينة زنجرلي على نقوش بالسكنعانية (من القرن
التاسع ق . م .) وبالآرامية (القرن الثامن ق . م .) وكلها تشير إلى احتلال هذا
الإله للمكان الأول كإله لتلك المناطق الشمالية . ومن أهم ما عثر عليه في زنجرلي

تمثال من عهد ملك يسمى « بنامو » نرى فيها هذا الإله واقفا وله لحية وقد حلى رأسه بقرنين ، وقد جاء في النقوش التي أسر الملك بنقشها على هذا التمثال « لتأكل روح (نقش) بنامو مع هدد وتشرب روح (نقش) بنامو مع هدد » .

ولكن في العصور المتأخرة ، كان معبده في هيرابوليس (مدينة منبج) هو المركز الرئيسي لعبادته . وقبل مجيء الإسكندر إلى سوريا كانت حملة تلك المدينة في عهد ملكها « عبد هدد » أصك وعلى أحد وجهيها اسم هذا الملك وعلى الوجه الآخر اسم الإله أتا (عنت) أو أتا جرتا ، التي كتبها اليونان « اتارجاتيس » أو « در سو » ويكمل ثالث هدد وزوجته ابنيهما سيميوس ، وقد كان لهذا الثالث شأن كبير في جميع البلاد السورية في العصور المتأخرة

الفيثيقيون :

كثيرا ما أشرت إلى مدن الشاطئ وصلتها القديمة بمصر منذ أبعاد العصور ، وسواء أطلقنا عليه اسم الشاطئ السوري أو أرض فينيقيا أو بلاد الكنعانيين^(١) ،

(١) سكان هذه المنطقة كانوا يسمون الكنعانيين وقد سماهم اليونان فيما بعد باسم الفينيقيين ، وهم من قبيلة سامية كبيرة تزحمت على الأرجح خلال الهجرة السامية الكبرى ، وكان منها الأموريون الذين استوطنوا في داخل سوريا وتأثرت ثقافتهم تأثرا كبيرا ببلاد الرافدين ، ومنها أولئك الكنعانيون الذين استوطنوا الشاطئ وتأثرت ثقافتهم تأثرا واضحا كبيرا بحضارة مصر . وقد حاول بعض أساتذة الساميات تفسير أصل اسم كنعان بأنها مشتقة من أصل سامي « خنع » ، فنع ، كنع « إشارة إلى الضعة ومنها مجازا إلى الأرض الواسعة لسكانهم على الساحل . ولكن الرأي المقبول الآن من أكثر المشتغلين بهذه الدراسات هو أن أصل كلمة . . كنعان . . غير سامي ويرجعون اشتقاقه من كلمة هندو - أوروبية (في اللغة الحرية) تعني الصبغة القرمزية إذ كانت هذه المنطقة تشتهر بهذه الصبغة عندما اتصل الحريون ببلاد في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد . وفي اللغة البابلية كتبوا اسمها « كنعان » ومنذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد أصبحت كلمة اسم « كينع » وفي العبرانية « كنعان » ومنذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد أصبحت كلمة « كنعاني » مرادفة لكلمة « فينيقي » . أما أصل اسم « فينيقيا » *phoinix* فهي مشتقة على الأرجح من كلمة يونانية تعني القرمز أو اللون الأرجواني ، وذلك لصبرة هذا الساحل بصناعة الأصباغ القرمزية والملابس الأرجوانية اللون . ومن يريد التفصيل عن هذا الموضوع فليرجع إلى كتاب PH. K. Hitti, *History of Syria* (London, 1951), p. 79-81 وما ذكره من مراجع .

فإن الحقيقة الواضحة في تاريخ هذه البقعة من مناطق العالم هي كثرة اشتغال أهل مدنها الساحلية بالتجارة ، وأنها كانت تعتمد اعتمادا أساسيا على صلتها التجارية بغيرها من البلاد ، وبخاصة مصر ، عن طريق البحر وبالبلاد الواقعة في داخل آسيا عن طريق البر .

ولو خلفنا وراءنا كلا من الألف الثالث قبل الميلاد وكذلك الألف الثاني ووصلنا إلى أوائل الألف الأول نجد أنه قد نشأت في كثير من موانئ هذا الشاطئ دويلات كانت مستقلة عن بعضها البعض وإن جمعت بين البعض منها ، من حين إلى آخر ، انحدارات أو كتل متحالفة . لم يعد هناك خطر على استقلال تلك المدن من ناحية مصر ، ولكن الخطر كان متوقعا من ناحية أخرى ، من ناحية آشور ، ولكن آشور لم تدخل في دور توسعها إلا حوالي عام ٨٠٠ قبل الميلاد ، أي بعد مائتي سنة تقريبا من بداية الألف الأول قبل الميلاد . وفي هذه الفترة بالذات أي في القرنين الأولين من الألف الأول كانت مدن الشاطئ بوجه عام تجتاز فترة ازدهار ، وبخاصة مدينة صور التي تمتعت إذ ذاك بعصر ذهبي في تاريخها ووصلت إلى قمة مجدها في التجارة ، ولم تقتصر أساطيلها التجارية على نقل التجارة بين الموانئ المعروفة في البحر الأبيض المتوسط ، بل أسست مستعمرات تجارية جديدة في مناطق نائية كما خرجت من المضيق الذي نسميه الآن جبل طارق إلى عرض الأطلس لنقل التجارة إلى الشواطئ الغربية من كل من قارتي أوروبا وأفريقيا .

كان ملك صور في عام ١٠٠٠ قبل الميلاد يسمى « أبي - بعل » ثم خلفه على العرش ابنه أحيرام (ويكتب أحيانا حيرام) الذي حكم بين عامي ٩٨٠ ، ٩٣٦ ق . م . وكان معاصرا للملك سليمان بن داود . اهتم أحيرام بتجميل مدينة صور وتوسيع رقعتها ، وشيد فيها عددا من القصور والمعابد الجديدة ، كما اهتم بترميم بعض المعابد القديمة . ومن أهم أعماله ما قام به من تحسينات وإنشاءات لتوسيع الميناء إذ جعل لمدينته ميناءين أحدهما في شمالها والثاني في جنوبها كمعادة الفينيقيين كما أقام جسرا يوصل بين الشاطئ وبين الجزيرة الصخرة التي أمامه .

كان عهد أحيرام عهد نهضة كبيرة في شتى النواحي ، وأشهر الأعمال التي اقترنت باسمه صداقته للملك سليمان بن داوود وقبوله عن طيب خاطر مده بالمهارين والعمال الفنيين ومواد البناء اللازمة لإقامة هيكل أورشليم ، وإقامة قصر له ، وقد استغرق بناؤهما عشرين عاما . وظل أحيرام وسليمان صديقين حميمين وشريكين في التجارة ، وساعد سليمان أيضا في إنشاء أسطول تجارى في البحر الأحمر وأمدّه ببجارة فينيقيين للعمل على السفن مع بحارة سليمان ولم يقتصر نشاطه التجارى في البحر على مشاركته سليمان بل اتسعت صلاته البحرية وازدادت في البحر الأبيض المتوسط وبخاصة مع جزيرة قبرص وأسبانيا .

وبعد موت أحيرام تولى ابنه الحكم من بعده ولكنه لم يحكم غير سبع سنوات ثم تلاه آخرون من العائلة ، كانوا يتمازحون فيما بينهم إلى أن جاء الوقت الذي اشتد فيه النزاع بين أفراد البيت المالك واضطرت ابنة أحد الملوك وكانت تسمى « ليلسا » إلى الهرب إلى قبرص ثم تركتها إلى شمال أفريقيا حيث أسست مدينة جديدة وهى مدينة « قرطاجنة » Carthage على الشاطئ القريب من مدينة تونس الحالية ، وقد ساعدها في ذلك مؤيدوها السياسيون من أهل مدينة صور ، وكان ذلك حوالى عام ٨١٤ قبل الميلاد .

ويمكننا أن نسمى الفترة بين عامى ١٠٠٠ . ٥٠٠ ق . م . فترة الاستقلال في تاريخ فينيقيا إذ ظهرت في تلك الفترة كثير من دويلات المدن وكان أهمها صور وصيدا ثم جبيل (بيبيلوس) وأرود ، وكان لكل منها أسطولها وعرشها المستقل . ولكن هذه الفترة لم تسكن فترة هدوء وطمأنينة في جميع الأوقات . لم تتعرض فينيقيا خلال هذه المدة لأى غزو مصرى ، اللهم إلى مرة واحدة وذلك في أيام الأسرة الثانية والعشرين عند ما قام الملك شاشنق الأول بحملته في القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكن الإمبراطورية الآشورية كانت من حين لآخر سببا في تعريض الموانئ الفينيقية للغزوات والحروب ونعرف مثلا أن الملك الآشورى « تجلات بلنسر الأول » استولى على « أرود » حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد لتكون منفذا له إلى البحر ولكن هذا الاحتلال لم يستمر وقتا طويلا .

وفي عام ٨٧٦ ق. م. فرص ، آشور بانينبال ، الجزيرة على صور وصيدا ويبييلوس وأرود ، وذكر في نقوشه أنها أرسلت إليه كيات من الفضة والذهب والرصاص والبرونز وخمسة وثلاثين إناء من البرونز وملاسا من أقمشة زاهية الألوان ، وكذلك كمية من العاج وحيوانا من حيوانات البحر وهو الدرفيل . نجد هذه الإشارات إلى جزيرة المدن الفينيقية في نقوش ابنة ، شلنصر الثالث ، (٨٦٠ - ٨٢٥ ق. م.) ، كما نجدها أيضا في نقوش ، تجلات پلسر الثالث ، عام ٧٤١ ق. م. لم تَطأ المدينة الفينيقية رأسها لأشور ، وتستكين ملقاة تحت أقدامها بل كانت تنقلب فيها الثورات من حين لآخر ويجد ملوك آشور أنفسهم مضطرين لإرسال جيوش وحملات لإخضاعها . حدث في عهد ، شلنصر الخامس ، مثلا أن مدينة صور قامت بثورة جامحة فاستطاع شلنصر أن يجمع من الموانئ الأخرى ، صيدا وجبيل وأرود ستين سفينة كبيرة وحاول أن ينزل جنوده في الجزيرة التي أمام الشاطئ . ولكن أهل صور استطاعوا أن ينزلوا الهزيمة بأسطوله بالرغم من أنه لم يكن لديهم إلا اثنتا عشرة سفينة فقط ، لحطموا الأسطول الآخر وأخذوا من المهاجمين ما يقرب من خمسمائة أسير .

وفي أيام الملك سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م.) كانت فينيقيا بأكملها خاضعة للحكم الآشوري ما عدا مدينة صور .

لم تقف مصر مكتوفة الأيدي أمام ما كانت تراه يجرى على حدودها لأنها كانت تخشى على نفسها إذا ما استقر الحكم الآشوري في فلسطين وعلى الشاطئ . السورى ، ولهذا كانت تشجع هذه الثورات . كانت مصر في هذه الفترة بالذات تحتاز فترة من فترات القوة النسبية إذ كانت تحكمها الأسرة الخامسة والعشرون ، وهي الأسرة الكوشية ، وكان يجلس على عرش البلاد حاكم قوى . حدث عند موت « سرجون الثاني ، أب ابنه « سنحريب ، قرر غزو فلسطين فاجتمعت مدنها وعقدت بينها حلفا لمقاومته وأرسلت مصر تساعدهم وتشد أزهرم وأرسلت جيشا إلى الحدود كان على رأسه أحو الملك نفسه ، وقام الجيش الآشوري بمحاصرة

أورشليم ولكن تفشى وباء الطاعون أجبر « سنحريب » على التقهقر بفلول
جيشه عائدا إلى بلاده

وفي عام ٦٨١ ق . م . مات « سنحريب » مقتولا بيد أحد أبنائه خلفه ابنه
أسرحدون على العرش . وفي العام نفسه مات ملك مصر خلفه أخوه « طهرقا »
الذى كان على رأس الجيش الذى ذهب لموازنة ثورة فلسطين قبل ذلك
بسنوات قليلة .

واصل طهرقا جهوده فى خلق المتاعب أمام الحكم الآشورى فى فينيقيا
وفلسطين وذلك بمعاونة المدن على القيام بالثورات وكان المحرض على ثورة كبيرة
قامت بها مدينة صور (عام ٦٧٢ ق . م .) سببت للآشوريين الكثير من المتاعب ،
واضطرب « أسرحدون » أن يأتى بنفسه على رأس جيش لخاصرها ولكنه لم
يستطع التغلب عليها لمناعتها . وقرر « أسرحدون » أنه لا بد من وضع حد
لتدخل مصر فقرر مهاجمتها ، وترك مدينة صور محاصرة وتقدم بجيشه إلى وادى
النيل . وساعده بدو سيناء ، وكانوا أدلاءه فى الطريق ، وأمدوه بآلاف الجمال
لحمل المؤن والمياه اللازمة لجيشه حتى وصل إلى وادى الطميلات فى شرق الدلتا .
وبالرغم من المناوشات التى صادفته فى الطريق فإنه وصل إلى منف بعد خمسة عشر
يوما لخاصرها واستولى عليها ونهب ثرواتها ووقعت عائلة « طهرقا » أسيرة فى يده ،
واعترفت البلاد كلها بسيادته فترة من الزمن حتى تخلصت مصر من الحكم الآشورى
عندما استطاع أمير صا الحجر طرد الحامية الآشورية ثم وحد البلاد وأسس
الأسرة السادسة والعشرين عام ٦٦٣ ق . م .

ولكن بالرغم من استئصال شأفة الآشوريين من مصر فإن نفوذهم فى فينيقيا
وفى فلسطين ظل على ما كان عليه وظلت الثورات تقوم بين حين وآخر فى مدنها ،
وعاد ملوك مصر أيضا إلى حماية أنفسهم وحماية حدودهم بموازنة تلك الثورات ،
وكانت أهم مدينتين فينيقيتين حملتا لواء المقاومة هما مدينتا صور وصيدا . وانهت
أيام دولة آشور وقتلتها فى حكم بلاد الرافدين دولة الكلدانيين التى استمرت أيضا
فى محاولة فرض سيطرتها السياسية على فينيقيا ، ولكن حدث فى عام ٥٣٩ ق . م .

أن مدينة بابل عاصمة دول الكلدان سقطت في يد الفرس فأصبح للدولة الظافرة .
السيادة على فينيقيا

كانت مدينة صور طيلة القرون الخمسة الماضية أهم مدن فينيقيا وأقواها ،
وكان من أهم أسباب قوتها تبعية مدينة قرطاجنة لها . واسكن منذ بداية الحكم
الفارسي تعرضت هذه المدينة للكثير من المصاعب ، فضعفت وقل شأنها
وانفصلت عنها قرطاجنة سياسيا عام ٥٢٠ ق . م . وعند تقسيم الفرس
لإمبراطوريتهم الواسعة ضموا فينيقيا إلى سوريا وقبرص وجعلوا منها ستيرية
واحدة ، وهي الستيرية الخامسة ، وأصبحت صيدا بعد ذلك من أهم مدن
فينيقيا وعاصمتها .

ولم تنج مدن فينيقيا من ويلات الحروب التي استعرت بين الفرس واليونان ،
إذ كثيرا ما هوجمت مدنها وبخاصة صور وصيدا ، بل وصل الأمر إلى احتلال
اليونانيين لها لفترات قصيرة .

وأقام الحكام الفارسيون في مدينة صيدا كثيرا من القصور والمباني ، وقد
عُثر في أواخر سني القرن الماضي في قلب المدينة عند حفر أساسات المدرسة
الأمريكية هناك على أجزاء من أعمدة ومن نيجان الأعمدة وهي فارسية الطراز ،
وتوجد الآن في متحف بيروت ، هي والتوابيت الشهيرة التي كانت ضمن مجموعة
الدكتور فورد .

وفي عام ٣٤٦ ق . م . شبت ثورة جديدة قام بها ملك صيدا (وكان يسمى
تنس Tennes) ضد الحكم الفارسي ، وبدأوا بحرق قصر الستيرب الفارسي
(الحاكم باسم الإمبراطور الفارسي) ونهب ما في حدائقه وملحقاته ، فأثار هذا
العمل غضب أرتاركسيس الثالث ، ملك الفرس ، فسار على رأس جيشه وأحرق
مدينة صور ، وقد ذكرت المصادر القديمة أن أكثر من أربعين ألفاً من سكانها
قد ماتوا في هذا الحادث ، وكان السبب المباشر في هذه الكارثة ما قام به ملك صيدا
الوطني من خيانة شعبه ، ومحاولة إرضائه لملك الفرس ليسجوا بحياته .

ولكن الحوادث كانت تسير في اتجاه آخر ، إذ سرعان ما دخل الصراع بين
الفرس واليونان مرحلة جديدة حاسمة عندما قرر الإسكندر الأكبر القيام بغزواته
التي انتهت بانتصاره على الملك الفارسي داريوس (إيسوس Issus)
عام ٣٣٣ ق . م . وبدلاً من أن يتابع عدوه في هزيمته ويوطد أركان ملكه الجديد
في آسيا نراه يقرر ضرورة استيلائه قبل كل شيء آخر على سوريا وعلى مصر حتى
يقطع على الفرس كل إمدادات محتملة عن طريق البحر . ورحب أمراء المدن
الفينيقية بالإسكندر ، ولكن عند وصوله إلى صور رفضت هذه المدينة أن تقبل
التسليم أو تسمح لحماية يونانية بالإقامة فيها ، وقاومت ببسالة كبيرة كلفت
الإسكندر جهداً عظيماً لم ير مثيلاً له في مدينة أخرى في حروبه في آسيا .

وبعد موت الإسكندر عام ٣٢٣ ق . م . تقاسم قواده ملكه الواسع فيما
بينهم ، وكانت مصر من نصيب واحد منهم ، وسوريا من نصيب قائد آخر ،
ولكن فينيقيا وفلسطين اللتين كانتا دائماً في جميع عصور التاريخ جسراً يربط بين
مصر وآسيا أصبحتا ، وبخاصة فينيقيا ، مصدراً للنزاع بين البطالمة والسلوقيين ،
وكانت المدن الفينيقية المختلفة تتبع هؤلاء فترة من الزمن ، لينتزعها الآخرون
فترة أخرى . ولكن دراسة هذا العصر خارجة عن نطاق موضوع دراستنا ،
ولهذا نكتفي بهذا القدر من تاريخ فينيقيا السياسي . ولكن قبل أن نتحدث عن
بعض مظاهر حضارتها يجدر بنا أن نقف قليلاً لنعرف شيئاً عن المستعمرات
الفينيقية ، لأنها بالرغم من أنها بعيدة عن أرض فينيقيا إلا أنها جزء متمم لها ،
ولا يمكن إغفالها ، سواء عند الحديث عن التاريخ أو عن الآثار الحضارية
للفينيقيين .

المستعمرات الفينيقية^(١) :

لم تقتصر المراكز التجارية التي أسسها الفينيقيون خارج بلادهم على منطقة

(١) ليس المقصود بكلمة المستعمرات الفينيقية أنها ممتلكات اغتصبها الفينيقيون من أهلها
بعد أن هزموم واحتلوا بلادهم كما يفهم الآن من ملول الكلمة لارتباطها بالاستعمار الأوروبي =

معينة ، بل نراها منتشرة في جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط ، بل وفي خارجه ،
ويطلق على هذه المحلات أو المراكز اسم المستعمرات ، ولنبدأ بها كان منها في
شمال أفريقيا .

فأقدم مستعمرة فينيقية في شمال أفريقيا ، حسب ما وصل إلى علمنا حتى الآن ،
هي مستعمرة « أوتيكا Utica » (أو عوثيقة ، بمعنى القديمة أو العتيقة ، تمييزاً
لها من قرطاجنة ، ومعناها المدينة الحديثة وسماها ابن خلدون وطاقة) التي
أسسوها حوالي عام ١١٠٠ ق . م . وقام بذلك أهل مدينة صور ، وكانت قرية
من مصب نهر « مجردة » ولكنها تخربت وهجرها أهلها وغطتها الرمال . وهناك
أيضاً مستعمرات أخرى مثل بزرته ، وسرته . ولكن أهم مستعمرات أفريقيا
الشمالية هي مستعمرة قرطاجنة على مقربة من موقع مدينة تونس ، واسمها الفينيقي
مشتق من كلمتي « قرت جدشت » أي المدينة (القرية أو البلدة) الحديثة . ونعرف
من قصة إنشائها ، أو أسطورة إنشائها ، التي سبق أن أشرنا إليها ، أن مؤسسها
هي الأميرة « إليسا » ابنة « متسان » ملك صور عندما هربت من ظلم أخيها
« بيجاليون » ، وقد ذكرت بعض الروايات تحت اسم « ديدون » ، أي
اللاجئة . ولم يعثر حتى الآن في أطلال قرطاجنة أو في مدينة صور على ما يؤيد
أو ما ينفي هذه الأسطورة .

ومنذ تأسيس هذه المدينة الجديدة عام ٨١٤ ق . م . اعتبرت نفسها جزءاً
من مدينة صور ، أو بعبارة أخرى تابعة لها ، وكانت ترسل كل عام رسولا ليقوم
بتقديم القرابين في صور في معبد « ملك - قارت » ، وكان الرسول في بدء الأمر
يحمل معه أيضاً هدية أخرى هي عشر دخل المدينة الجديدة .

ولم يبدأ التاريخ الحقيقي المدون لمدينة قرطاجنة إلا منذ القرن السادس قبل
الميلاد عندما بدأت صور تضمحل ويقل شأنها تحت تأثير ضربات مختصرة
(٦٠٤ - ٥٦١ ق . م) .

== الحديث ، والسكن المقصود منها تلك المحلات أو المراكز أو المدن التي أسسوها على شواطئ
البلاد الأخرى لتسكنوها كزوايا للتجارة مع أهل تلك البلاد دون أن تكون في ذلك أساس
بهم أو استيلاء عليهم أو اغتصاب لمنازلهم .

لعبت قرطاجنة دوراً هاماً في تجارة البحر الأبيض المتوسط ، وانهاالت عليها
الثروة وأخذت بدورها تؤسس لها مستعمرات جديدة ، مثل المستعمرة التجارية
التي أسسوها في جزيرة « ليفيشا » بين سردينيا وأسبانيا ، حوالي عام ٦٥٠ ق.م .
كما أسسوا مستعمرة أخرى على شواطئ « مينوركا » في جزر البليار . وكانت
قرطاجنة تصطدم دائماً بنفسها في التجارة من اليونانيين ، ولم تكن هناك مندوحة
من قيام الحرب بين الشعبين ، وكان ذلك حوالي عام ٥٥٠ ق.م . عندما استطاع
القائد « ملخوس » طرد اليونانيين من جزيرة صقلية ، ولكنه هزم شر هزيمة
في سردينيا ، فنفاه القرطاجنيون من المدينة عقاباً له . فانقلب على قومه ، وعاد مع
من تعاون معه لحاصره واستولى عليها وأصبح حاكماً لها . وفي عام ٥٣٥ ق.م .
تمكن القرطاجنيون من طرد اليونانيين من جزيرة كورسيكا ، كما ثبتوا أيضاً
أقدامهم في هذه الفترة من توسعهم التجاري في أكثر من موضع على شاطئ أسبانيا .

وكانت روما قد بدأت تظهر كقوة ذات شأن في بداية القرن السادس ،
ويرجع تاريخ أول معاهدة صداقة بين روما وقرطاجنة إلى عام ٥٠٩ ق.م .
وقضت قرطاجنة القرنين الخامس والرابع وهي تسير في طريقها الذي رسمته
لنفسها في التجارة ، وكانت أكثر الحروب التي خاضتها من أجل جزيرة صقلية .

وكان القضاء على قرطاجنة على أيدي الرومان عندما دخلت معها في الحروب
الطويلة القاسية المعروفة باسم الحروب البونية التي بدأت في القرن الثالث قبل الميلاد .
كانت الحرب البونية الأولى بين أعوام ٢٦٨ ، ٢٤١ ق.م . وانتهت بانتصار
قرطاجنة ، ولكن لم تلبث الحرب البونية الثانية (٢١٩ — ٢٠٢ ق.م .) حتى
اندلعت وظهرت فيها مواهب القائد القرطاجني « هانيبال » الذي اشتهر بغزوته
الشهيرة التي سار فيها بجيشه الكبير عبر أسبانيا وبلاد الغال وقل ميدان الحرب
إلى إيطاليا نفسها ، ولكنه لم يحقق أمنيته باحتلال روما ، إذ اضطر لترك
الجيش تحت قيادة أخيه وقفل راجعاً إلى قرطاجنة عندما علم بمهاجمة الرومان لها .
وكانت النتيجة انتصار روما على قرطاجنة ، وعقد الإثنان معاهدة صداقة أعقبتها
سلم جلب الخراب على قرطاجنة .

وأخيراً جاء اليوم الذى استعرت فيه الحرب البونية الثالثة التى استمرت ثلاثة أعوام ، وانتهت فى عام ١٤٦ ق . م . بانتصار روما واحتلالهم لقرطاجنة وحرقتها حرقاً تاماً بعد نهبا وتخريبها ، فلم تبق لها بعد ذلك قائمة .

ولكن قرطاجنة لم تكن المستعمرة الفينيقية الوحيدة ، وإن كانت أهم المستعمرات ، فقد أشرنا إلى بعضها فى شمال أفريقيا ، ولكن لا يمكن ترك هذا الموضوع دون الإشارة إلى المستعمرات الأخرى التى أسسها الصوريون فى جزيرة قبرص فى « كيتيون » ، ومنها أسسوا مستعمرة أخرى فى « إيداليون » ، وفى « تمساسوس » وغيرها . وأسسوا مستعمرات أخرى فى كليليا وفى جزيرة رودس ، كما كانت لهم مراكز تجارية ، وليست مستعمرات ، عند مصبات النيل فى الدلتا ، وكان لتجارهم حتى خاص فى مدينة منف اسمه « معسكر الصوريين » ، وأقاموا فى هذا الحى معبداً باسم الالهة عشتار .

ولم يقف نشاطهم عند هذا الحد ، بل أسسوا مستعمرات تجارية أخرى فى صقلية وجعلوا منها مركزاً لتجارتهن خارج أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) ، كما أسسوا مستعمرة هامة فى فالرمو فى صقلية ، وفى مالطة ، كما ثبتوا أقدامها فى أسبانيا فى أكثر من موضع ، وبخاصة فى قادس ، وبعبارة أخرى انتشرت مستعمراتهم التجارية فى جميع أرجاء البحر المتوسط ، ولهذا لم تكن هناك مندوحة من اصطدامهم باليونانيين ثم بالرومان بعد ذلك .

بعض مظاهر الحضارة الفينيقية :

ولن يتسع مجال هذا البحث عن الفينيقيين لذكر أى تفصيلات عن مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية أو المظاهر الحضارية الأخرى لأن الهدف منها قبل أى شئ آخر هو التاريخ السياسى العام ، ولكن مهما حار لنا الوقوف عند حد معين فلا يمكن ترك موضوع الفينيقيين دون ذكر شئ مختصر عن نقطتين ، وهما الحروف الهجائية الفينيقية ، ثم أثر الفينيقيين فى نشر الحضارة ، وبخاصة الحضارة المصرية القديمة فى مختلف أرجاء العالم

الحروف الهجائية الفينيقية :

للفينيقيين مآثر كثيرة على التقدم الإنساني ، ولا شك أن نشرهم للحروف الهجائية في أرجاء العالم القديم هو أهم ما قاموا به . كان قدماء المصريين ، وكذلك قدماء سكان بلاد الرافدين ، يكتبون وثائقهم بكتابات مكونة من مئات من العلامات والمقاطع وكل علامة منها صورة لشيء في الطبيعة سواء أكان نباتا أو حيوانا أو جمادا . . . الخ ، ولهذا كان الإمام بها يحتاج إلى تخصص ودراسة ، وقد سالت هذه الصعوبات دون انتشار الكتابة .

ولكن اليوم الذى اهتمدى فيه البشر إلى مبدأ استخدام الحروف الهجائية ، أى الذى يمثل كل منها صوتا معينا دون نظر إلى موقعه في الكلمة أو أصله أو معناه ، إن كان له معنى ، كان يوما من الأيام العظيمة في تاريخ الإنسانية لأن هذا الاختراع كان من أعظم ما عرفه الإنسان في تاريخه الطويل .

وحدث في عام ١٩٠٥ أن ، فلندرز پترى ، الأثرى البريطانى الشهير ، كان يعمل في منطقة سراييط الخادم في سيناء عند ما عثر على كتابات غريبة على جوانب بعض مناجم الفيروز القديمة وعلى بعض النصب المقامة في المعبد . كانت هذه الكتابات مكتوبة بحروف يشبه بعضها الكتابة المصرية القديمة ، وبعضها الآخر لا يشبهها . وحدثت محاولات كثيرة لفك رموزها ، ولكن منذ البداية أطلق عليها علماء الدراسات اللغوية اسم الكتابة السينائية وأدركوا الصلة بينها وبين بعض ما كان معروفا من الكتابات الفينيقية واليونانية القديمة . وليس معناها الآن سرد المحاولات الكثيرة لفك رموزها ولكن يكفى القول بأن آخر محاولة للوصول إلى ترجمتها هي المحاولة الناجحة التي قام بها العالم الأمريكى دأولبريت ، عام ١٩٤٨ .

وتاريخ هذه النقوش السينائية هو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد أى حوالى عام ١٥٠٠ - ١٤٠٠ ق.م. وأن الذين استخدموها هم بعض العمال أو الأسرى السوريين الذين كانوا يعملون مع المصريين في تلك المناجم ، ولا يوجد أى دليل على الإطلاق بأن الفينيقيين بالذات هم الذين حققوا هذا الاختراع دون غيرهم من الشعوب ، بل الأرجح هو أن هذه الخطوة ، أى خطوة الوصول

إلى استخدام الحروف الهجائية للكتابة قام بها شعب أو أكثر من الشعوب السامية في داخل سوريا في أوقات متقاربة إذ عثر على كتابات مختلفة في مناطق متعددة من أهمها ما عثر عليه في أوجاريت (رأس الشجرة) من كتابات بالطريقة المسماة ولكنها حروف هجائية عددها ٢٩ حرفاً ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب .

وهناك أيضاً كتابة أبجدية أخرى كتبت بها نقوش « أحيرام » ملك مدينة جبيل (بيلوس) ، وكانت مكونة من ٢٢ حرفاً هجائياً ، ويرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٠٠٠ ق.م . وكانت أنجح الطرق ، ويرجح أنها كانت الأصل الذي اشتقت منه الكتابات السامية الهجائية الأخرى وأهمها الفينيقية والعبرية القديمة والآرامية والسبائية (العبرية الجسرية) . وكان للفينيقيين الفضل الأول في نشر هذه الطريقة في الكتابة في العالم القديم ، فقد كانت الحروف الفينيقية هي الأصل الذي أخذ الإغريق عنه أبجديتهم ، وعندهم أخذ الآتروسيون ، وعن هؤلاء جاءت الحروف اللاتينية التي أصبحت حروف الكتابة لأكثر الدول الأوروبية منذ القرون الوسطى . وعن الخط الآرامي تفرع الخط الهندي ، وكذلك التدمري والسورياني والنبطي ، ومن النبطي تفرع الخط العربي . وتفرع أيضاً من الآرامي الخط الهلوي والأفسي والأرمني والجورجاني (نسبة إلى إقليم جورجيا في جنوبي الاتحاد السوفيتي) وغيره من الخطوط . أما الفودى و اللجاني و الصفوى و الحبشي فهي متفرعة كلها من الخط العربي الجنوبي .

ومن المعروف أن الكتابات السامية بوجه عام تسقط حروف العلة ولا تكتب إلا الحروف الصحيحة ، وقد أدخل الإغريق تحسيناً كبيراً على الكتابة الفينيقية فأخذوا بعض الحروف السامية المعروفة باسم الحروف الصحيحة الضعيفة وجعلوها حروفاً للعلة واستخدموا ذلك منذ القرن التاسع قبل الميلاد أي منذ انتقال الكتابة الفينيقية إليهم كما اعترفوا هم بذلك .

فضل الفينيقيين في نشر الحضارة :

لم يكن نشر الكتابة الأبجدية هو الفضل الاوحد للفينيقيين ، ولكنه كان أهمها دون شك ، ولنتق الآن نظرة سريعة على بعض النواحي الأخرى .

لقد أحب سكان هذا الجزء من العالم (كنعان أو فينيقيا) البحر والتجارة الخارجية ، وإقامة المستعمرات البعيدة ، وسرعان ما أصبحوا من اقدر الشعوب الملاحية التي عرفها العالم القديم ، بل ربما كانوا أقدرهم جميعاً ، وإن كان البعض يريد أن يترك المكان الأول للينويين ، ذلك الشعب العظيم الذي كان في جزيرة كريت وازدهر ازدهاراً كبيراً بين عامي ٢٠٠٠ ، ١٥٠٠ قبل الميلاد ، وكان لم دون شك فضل غير قليل على حضارة الكنعانيين .

ولم يهمل الفينيقيون أمر الزراعة بل استغلوا كل شبر يمكن زراعته في بلادهم كما أحدثوا تطوراً غير قليل في بعض الصناعات وأتقنوا صناعة بعض المعادن إذ عرفوا تمدين النحاس والبرونز منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، وبدأوا يستخدمون الحديد منذ الألف الأول قبل الميلاد ، كما نعرف أنهم كانوا يحصلون أيضاً على الذهب والفضة والقصدير من أسفارهم البعيدة ، وأنهم تقدموا تقدماً غير قليل في صناعة الحلي وفي صنع أدوات الزينة أو صنع القطع الفنية من العاج ، كما تفوقوا تفوقاً كبيراً في صناعة الزجاج .

وبرع الفينيقيون في صناعة النسيج ، وكانوا يصنعون الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وعرفوا المنسوجات القطنية بعد ذلك بوقت طويل ، ربما في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد ، كما يرجح بعض المشتغلين بتاريخ الصناعات أن مدينة صور كانت تعرف صناعة الحرير في القرن السادس قبل الميلاد .

وبما ساعد على رواج النسيج الفينيقي إتقانهم لصنعه بالألوان الزاهية ، وبخاصة اللون الأرجواني .

عرف الفينيقيون كثيراً من هذه الصناعات من مصر على وجه الخصوص ، ولهذا لم يكن يكتفى الفينيقيون بحمل السلع والحلي المصرية وأدوات الزينة من مصر لبيعها والكسب منها في مختلف أنحاء العالم ، بل تراهم يقلدون الكثير من الأشياء المصرية ويكتبون عليها ما يشبه اللغة الهيروغليفية ، ويبيعونه على أنه سلع مصرية

لراغبين فيها . وفي جميع متاحف العالم الكبيرة كثير من الجعارين والتماثيل الصغيرة من القاشاني والتماثيل والخزف المصنوع من الزجاج أو القاشاني بل والتماثيل الصغيرة البرونزية وأدوات مصنوعة من العاج ، ومعروف عنها أنها صنعت في فينيقيا تقليدا للصناعة المصرية . والأماكن التي عثر فيها على تلك الأشياء مرتبطة تمام الارتباط بنشاطهم البحري ، فأينما وصلت سفنهم للتجارة ، وصلت الأشياء المصرية الحقيقية أو المقلدة ، وكانت سببا مباشرا في كثير من الأحيان ، لإدخال بعض مظاهر الفن المصري القديم على فنون تلك البلاد . ويكفي القول بأن هذه الآثار الصغيرة الحجم عثر عليها في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وفي كثير من بلاد البلقان ، وفي جنوب الاتحاد السوفيتي ، وفي إنجلترا ، وعلى الساحل الغربي لإفريقيا ، وما زال يوجد حتى الآن لدى بعض الأهالي في غربي إفريقيا حبات من خزف الزجاج المصري أو المصري - الفينيقي يحفظون به حتى الآن يستخدمونه للزينة أحيانا ، وكتائم ضد قوى الشر أحيانا أخرى ، لأنهم يعرفون أنه قديم جدا ولهذا ترتبط به قوة سحرية خاصة .

وهناك كلمة أخيرة . لقد أطلت الحديث بعض الشيء عن فينيقيا منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد ، وذلك لأهمية ما قدمته هذه المنطقة من سوريا إلى الحضارة البشرية في تلك الفترة ، ولكن قبل الانتهاء من موضوع الفينيقيين أحب أن أضيف بضع كلمات أخرى عن أصل حضارة الكنعانيين أو الفينيقيين والعناصر التي كوتتها .

تتكون هذه الحضارة من عناصر متعددة أهمها أربعة وهي : السامية والمصرية والإيجية وإلى حد ما البابلية ، وذلك بالإضافة إلى حضارة سكان المنطقة الأصليين الذين كانوا في هذا الجزء من سوريا قبل الهجرة السامية الكبرى .

ومهما كان أصل أولئك السكان الأصليين فإنهم من جنس البحر الأبيض المتوسط . كما ذكرنا من قبل . وكانت لغتهم الأصلية لغة غير سامية نجدتها في كثير من أسماء البلاد والأنهار والجبال ، إذ ظل الكثير منها محتفظا بتلك الأسماء

القديمة ، بينما نجد بعضها قد غلبت عليه الأسماء الكنعانية السامية الأصل (أنظر صفحة ٤٩) .

ركب الفينيقيون البحر ونشروا الثقافة والتجارة في جميع أرجاء البحر الأبيض المتوسط، وأسسوا لهم مستعمرات تجارية على الشواطئ في شماله وجنوبه ، ولم يكونوا حملة تجارة لحسب ، بل كانوا حملة ثقافة وعلم ، وبخاصة الثقافة السورية ، إلى جميع الأرجاء . وكانت أكبر خدمة أدوها هي نشرهم الحروف الهجائية الفينيقية التي كانت سبباً مباشراً لنشر العلم في أوروبا الجنوبية ، وكان لهم أثر مباشر على نهضة بلاد اليونان فيما بعد .

ونعرف من دراسة تاريخ كل من مصر والعراق وإيران ما مر من أحداث على تلك البلاد ، والدور العظيم الذي لعبته سوريا في تلك الأيام حتى جاء الإسكندر الأكبر ففقد على الفرس .

والواقع أن تاريخ سوريا في الألف الأول قبل الميلاد ليس إلا تاريخ دويلاتها المختلفة وصراعاتها فيما بينها ثم صراعاتها أيضاً مع مصر وأشور ، وتنافس كل من هذين البلدين على بسط نفوذه على بعض مناطقها . ولا شك أن تاريخ تلك الفترة هو من أهم ما مر على سوريا خلال تاريخها الطويل .

والآن وقد انتهينا من هذا العرض السريع، ورأينا تصارع المدينت وامتزاجها فوق أرض سوريا ، ورأينا أيضاً ما استطاع أن يحققه الساميون في تلك البلاد ، وما استطاعوا أن ينقلوه من مدينتهم إلى مختلف بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، يكفي أن نضيف إلى ذلك أن أثر الآداب والديانات السورية على التوراة أثر عظيم لا يمكن التقليل من أهميته ، بل أنه لا يمكننا أن ندرس الديانات السماوية دراسة علمية إلا إذا درسنا الحضارة السورية دراسة صحيحة وافية .

كانت سوريا كما أشرنا أكثر من مرة ملتقى مدينت وديانات كثيرة ، اختلطت فيها مع الديانات والحضارات السامية القديمة ، وكانت معيناً استقت منه

مدنات البحر الأبيض المتوسط ، وعلى أرضها وتحت سمائها نشأت ديانات
وأساطير كان لها الأثر الأكبر على الفكر الإنساني فيما تلا ذلك من عصور .

كانت سوريا مهد كل من الديانتين اليهودية والمسيحية ، واسكن الديانة
السامية الثالثة وهي الإسلام ظهرت في مكان آخر من بلاد الشرق ، وهو الجزيرة
العربية ، التي سيكون تاريخها القديم موضوع الفصلين القادمين



الفصل الرابع

اليمين

مختصر تاريخ اليمين منذ أقدم العصور حتى تاريخ ظهور الإسلام

عصر ما قبل التاريخ :

تكاد تنحصر معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ في بلاد العرب فيما قامت به كل من مس كيتن - تومسون Miss Caton-Thompson والدكتور سليمان حزين من أبحاث في مناطق محدودة من جنوبي الجزيرة ، وقد نشرت المس كيتن تومسون نتائج أبحاثها ، ومن رأيها أن انفصال جنوب غربي بلاد العرب عن إفريقيا الشرقية حدث في حقبة البليستوسين ، أي قبل مليون عام على أقل تقدير ، ولأنها تعتقد أن آلات الظران (حجر الصوان) التي عثرت عليها في حضرموت تشبه كثيراً آلات الظران التي عثر عليها الباحثون في شرق إفريقيا^(١) . وفي رأيها أنه كانت توجد في شرق إفريقيا ثقافة مركزية تفرعت منها ثقافات متعددة ليس في إفريقيا وحدها بل وفي آسيا أيضا . وتدلل مس تومسون على نظريتها في انفصال إفريقيا عن آسيا بأنه لا يوجد بين أدوات الظران التي عثر عليها في جنوبي بلاد العرب بعض الأدوات المعروفة من العصور الحجرية القديمة (باليوليتية) والتي كانت منتشرة في تلك الأيام على طول إفريقيا الشرقية من الشمال إلى الجنوب .

ولم يقبل الدكتور حزين^(٢) هذه النظرية ، وهو يرى أنه إذا كان ولا بد لنا من البحث عن أي الجهتين ، شرق إفريقيا أو جنوبي بلاد العرب ، أقدم ثقافة

(١) Caton - Thompson, *Climate, Irrigation and Early Man in the Hadhramaut*, *Geographical Journal* 93 pp. 18-19 and 29-35 January 1939.

(٢) S. A. Huza'ayin, *Nature*, Vol. *XI*, pp. 513-514, (1937)

فإنه يميل إلى اعتبار بلاد العرب هي الأقدم ، وأن الثقافة قد انتقلت منها في العصور الحجرية القديمة إلى شرق إفريقيا . وسواء أصبحت نظرية حزين أو نظرية كيتن - تومسون ، فإن أماننا حقيقة ثابتة وهي وجود ثقافة من العصر الحجري القديم في بلاد العرب ، وأن هذه الثقافة تشبه إلى حد كبير ما عُثر عليه في إفريقيا ، كما أشبه أيضا - مع وجود اختلافات غير قليلة - ما عُثر عليه الباحثون من رجال عصر ما قبل التاريخ في سوريا والعراق .

أقدم الحضارات في بلاد العرب :

ولا تسمح لنا معلوماتنا الحالية بتحديد التاريخ الذي ينتهي فيه العصر الحجري القديم في بلاد العرب ، والتاريخ الذي يتبدى فيه العصر الحجري الحديث أو العصر الناري ، فإن ذلك ما زال رهينا بالأبحاث الأثرية المقبلة . ولكن هناك حقيقة هامة وهي إنه في الألف الرابع قبل الميلاد وصلت هجرات من جنوبي بلاد العرب إلى مصر ، وكان هؤلاء المهاجرون على قدر غير قليل من الثقافة . كما أننا نعلم أيضا إنه ابتداء من حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، بدأت بعض القبائل السامية تهاجر إلى العراق ، واستقرت في بلاد بابل ، ولم يمض عليها إلا قرون قليلة حتى أصبحت صاحبة الأمر في البلاد . وأسس الملك سرجون الأول حوالي عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد مملكة أكد السامية التي اتسعت فتوحاتها حتى وصلت إلى آسيا الصغرى .

وليس من المعقول أن يتمكن المهاجرون من فرض أنفسهم على شعب ذى حضارة مثل الشعب السومري ، إلا إذا كان هؤلاء المهاجرون قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم ، وتصبح لهم السيطرة على البلاد ، وأن تظل لغتهم الأصلية وكثير من مظاهر ثقافتهم ملازمة لهم قرونا طويلة . فإن في هذا التماسك وهذه المحافظة على المميزات دليل على أن الساميين الذين وصلوا إلى العراق قبل خمسة آلاف عام من جزيرة العرب لم يكونوا قوما بدائيين ، بل كانوا ذوى ثقافة خاصة ولهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية .

وعلينا أن ننتظر حتى تكشف لنا الأبحاث عن أسس هذه الحضارة ، فإنه فيما عدا إشارة قدماء المصريين إلى بلاد بونت (وهى بلاد تشمل الشاطئين الإفريقى والأسوى حول باب المنسب) وتجارة البخور والعطور من بلاد العرب ، والإشارة إلى بعض آلهتهم التى جاءتهم أيضاً من بلاد العرب لم نعرف أخباراً تاريخية صحيحة إلا بعد فترة طويلة . ونحن فى غير حاجة إلى التدليل على معرفة قدماء المصريين ، وقدماء سكان بلاد الرافدين لسكان بلاد العرب ، فإن هؤلاء كانوا التجار الذين اعتادوا على نقل البخور من بلادهم إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط ، بل أنهم كانوا فى الحقيقة همزة الوصل بين إفريقيا والهند من ناحية والعراق وسوريا ومصر من ناحية أخرى ، إذ أن البخور كان مادة أساسية لطقوس العبادة فى جميع الديانات القديمة .

أقدم التواريخ المعروفة :

ومنذ قرن واحد من الزمان كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام تعتمد فقط على ما جاء فى التوراة ، وما كتبه كتاب اليونان والرومان عنهم ، وكان هذا كله شيئاً قليلاً لا يشفى غليل العلماء ، حتى لو أضفنا إليه بعض ما كتبه العرب عن تاريخهم قبل الإسلام ، أو ما يستطيع أن نحصل عليه من معلومات إذا درسنا الشعر الجاهلى . ولكن الأمر أخذ يتغير منذ بدأت النقوش اليمنية تصل إلى أيدي العلماء ، وقد أصبح عددها الآن أكثر من ٥٠٠٠ نقشاً فيها معلومات كثيرة عن ممالك الجزيرة العربية فى الجنوب ، كما وصل أيضاً إلى أيدي العلماء عشرات الآلاف من المخربشات القصيرة على واجهات الصخور فى شمالى بلاد العرب بين يمنية ولحيانية وسبأية وغيرها ، جعلتنا نعرف الشيء الكثير عن شعوب الشمال .

وأقدم ما وصل إلى أيدينا من هذه النقوش يساعدنا فى الحصول على صورة واضحة إلى حد ما عما كان جارياً فى تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد حتى

ظهور الإسلام أى مدى ألف وخمسمائة سنة ، سواء من الناحية السياسية أو الدينية أو الاقتصادية .

قد كانت هناك عدة دويلات تعاصر بعضها البعض في جنوبي بلاد العرب ، وبخاصة في البلاد التي أطلق عليها فيما بعد اسم « بلاد العرب السعيدة » Arabia Felix وكان أهم هذه الدويلات سبأ ومعين وقتبان وحضرموت . ولكن كانت هناك دويلات أقل أهمية من هذه الأربعة مثل أوزان وسمعاى وأربع . ولكن هذه الدويلات الصغيرة لم تترك أثرا هاما في حياة البلاد ، وآل أمرها إلى انضمامها إلى غيرها من الدول القوية . وكانت هناك قبيلة قوية وهى قبيلة « حير » التي كان لها نفوذ كبير في آخر أيام دولة سبأ ، وقبيل ظهور المسيحية ، ولهذا ظل اسمها يتردد دائما في كتابات المؤرخين الرومان ، وفي كتابات العرب . وأصبح اسمهم صفة لكل ما يعثر عليه في جنوبي جزيرة العرب ، وصار اسم النقوش التي بدأ العلماء في حل رموزها هى النقوش الحيرية ، بل أن كلمة الحضارة الحيرية أصبحت علما على كل شئ في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام .

ونحن نعرف أن بمالك سبأ وقتبان وحضرموت كانت تعاصر بعضها البعض ، وأنه كان يحكم كلا منها رئيس اسمه « مكرب » كان يجمع في يديه السلطتين الدينية والزمنية ، أى أنه كان الكاهن الأكبر وكان الحاكم المطلق . وكان آخر هؤلاء المكربين معاصرا للمكبين الاشوريين سرجون الثانى وسنحاريب . وقد ورد ذكر « لى - قى - إم - را » بين زعماء القبائل العربية التي هزمها سرجون حوالى عام ٧١٥ ق . م ، كما نعرف أيضا من الوثائق الآشورية أن « كا - رى - بى - ايلو » ملك سبأ دفع الجزية إلى سنحاريب وهذان السبأيان ليسا إلا المكربين « يشع - أمر - وتار » و « كريب - ايل - بين » (١) .

(١) هناك رأى حديث له مؤيدوه بأن اسمى هذين الملكين اللذين وردا في الوثائق الآشورية غير المكبين المعروفين لنا من الآثار السبئية ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد ، ويمكن أن نقول هنا أن هذه النظرية الجديدة تميل إلى جعل حكم كل من « يشع - أمر » و « كريب - ايل » بعد مائتى سنة أو أكثر ، وبعبارة أخرى حفص التاريخ السبأى قرنين من الزمان .

ونعرف أيضا من النقوش السبائية أن دولة معين هزمتها دولة سبأ في أواخر عهد المسكرين الذين يبلغ عددهم المعروف حتى الآن اثني عشر مكربا ، وكان آخرهم « كريب - ليل - وتار ، بن ديشع - أمر - بين ، الذي اتخذ لنفسه لقب « ملك » بعد أن هزم « معين » ، كما سئى عند حديثنا عن نقش النصر في معبد صرواح . واتسعت مملكة سبأ حتى شملت أوزان وقطبان وحضرموت . واستمرت هذه المملكة تقوى حيناً وتضعف حيناً آخر ، وتوسع تارة وتنكش تارة أخرى حتى إذا ما حل القرن الثالث الميلادي نجد مملكة كبيرة في جنوبي بلاد العرب كانت تشمل بلاد نجران وعسير واليمن الحالية وحضرموت وجميع المحميات ، وكذلك جميع البلاد التي على شاطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي . ولكن هذه المملكة لم تلبث إلا قليلا حتى بدأت تتطلع إليها أنظار مملكة أكسوم في الحبشة . وأخذ الأحباش منذ أواخر القرن الثالث يضعون أقدامهم في جنوبي الجزيرة وانتهى الأمر باحتلالهم لليمن عام ٥٢٥ ميلادية . أما في الجزء الشمالي من الجزيرة ، فإننا نعرف أنه منذ القرن الأول قبل الميلاد ، بدأت كثير من المدن الواقعة على طرق القوافل تزدهر وتنشأ فيها المعابد والقصور ، وكان أهم تلك المدن هي التي كانت محطات هامة على الطريق الرئيسي للقوافل ، ذلك الطريق الذي كان يمر بصنعاء ومارب ثم يمر بمكة والمدينة ثم بمدائن صالح إلى بصرى (في جنوبي سوريا) ومنها يأخذ طريقه شمالا حتى غزه .

وعاشت في الشمال شعوب وقبائل ، اشتهر من بينها الثوديون الذين خلفوا وراءهم آثارا هامة في الحجر (مدائن صالح) ، كما خلفوا وراءهم نقوشا في كثير من دروب نجد والحجاز . كما اشتهر أيضا اللحيانيون الذين عاشوا في المنطقة التي حول بلدة العلا ، القرية من مدائن صالح ، وتركوا أيضا نقوشا كثيرة وخلفوا وراءهم آثارا غير قليلة منها بعض التماثيل واللوحات وغيرها . وقد اختلف علماء الساميات في تحديد تواريخ هؤلاء الثوديين واللحيانيين وغيرهم ممن كانوا إلى الشمال منهم مثل الصفويين (أهم مراكزهم في حوران في جنوبي سوريا) ، ورأى بعضهم أنهم عاشوا وازدهرت ثقافتهم قبل ظهور المسيحية بضع قرون من

الزمان كما رأى البعض الآخر أنهم لم يظهروا إلا في القرن الأول المسيحي ،
ورأى فريق ثالث أنهم لم تكن لهم أى ثقافة إلا قبل الإسلام بقليل ، ولم يتفقوا
إلا في أمر واحد ، وهو أنهم كانوا وثنيين وعاشوا قبل ظهور الإسلام ، وأن لغتهم
تنتمى إلى مجموعة اللغات السامية .

ونرى أثر السبأيين في أكثر من مكان في شمال الجزيرة ، فإنهم كانوا أهل
تجارة ، وكان تفوقهم عن البدو في الحضارة يجمع بين أيديهم كثيراً من أسباب
القوة والنفوذ . ولكن مع ذلك فأننا نعرف أيضاً من دراسة التاريخ أن القبائل
العربية إذا هاجرت من أوطانها . استقرت على حافة بلاد ذات مدنية ، فإنها سرعان
ما تبدأ في الاقتباس ، فتتخضر ولسكنها تظل متماسكة فلا يمضى عليها إلا أجيال
قليلة حتى تكون دولا ذات نفوذ . وقد أشرت إلى الساميين الأكديين في العراق ،
وأشير هنا إلى إمارة اللخمين في الحيرة التي نشأت على نهر الفرات ، ولإمارة
الغساسنة في الشام فإن كلا القبيلتين كانت أصلاً من جنوبي الجزيرة طوح بهما
طلب العيش إلى الشمال . وربما كانت هذه الهجرات بعد سنوات من الجفاف
أو عقب تدمير السدود العظيمة أمثال سد مأرب التي كان يتوقف عليها رخاء بعض
المناطق ، فأست إمارات في أماكن هجرتها الجديدة وكان لزعمائها منزلة وقوة ،
ولعبت إحداهما دوراً كبيراً مع الفرس ولعبت الأخرى دوراً ذا شأن مع الروم .

المسيحية واليهودية في بلاد العرب :

ومن الثابت أيضاً أن كلا من المسيحية واليهودية وصلت إلى بلاد العرب فأما
اليهودية فإنها جاءت حتماً من الشمال ، ومن المرجح أن يكون أول مهاجرين جاءوا
في القرن الأول قبل الميلاد ، وقد استقرت جاليات كثيرة منهم على طريق القوافل
وبخاصة في المدن التي كانت حولها أرض زراعية مثل يثرب ، وكانت أهم مراكزهم
في اليمن حيث زاد عددهم وأصبحوا ذوي نفوذ تجارى وصناعى في البلاد .

وأخذت المسيحية تفتح لها طريقاً في شبه الجزيرة ، ومن المرجح جداً أن
تكون قد وصلت عن طريق سوريا ، وأصبح عدد كبير من العرب يعرف

ويؤمن بالدين الجديد . كما أنه من الجائز أيضاً أن تكون قد وصلت إلى جنوب الجزيرة من طريق ثان وهو طريق الحبشة . وأخذت الديانة الجديدة تنتشر ، وشيدوا الكنائس في مدن كثيرة من اليمن ، وكانت أهمها جميعاً كنيسة القليس في صنعاء التي قصد من بنائها أن تنافس الكعبة في مكة لتحويل السوق التجارية إلى الجنوب . وازدهرت المسيحية كثيراً في بلاد نجران ، وكان من الطبيعي أن يتنافس المسيحيون واليهود وأن يحدث بينهما العداء ، فلما قويت شوكة اليهود باعتناق أحد ملوك الحيريين لهذا الدين ، وبدأ ذو نواس في اضطهاد المسيحيين لإجبارهم على ترك دينهم واعتناق اليهودية ، كانت أكثر اضطهاداته لنصارى نجران الذين حفر لهم أخدوداً ملاء بالنار وكان يلقيهم فيه ، ولم ينته ذلك إلا بعد أن تدخل البيزنطيون وطلبوا من نجاشي الحبشة أن يهب لإقناذ إخوانه في الدين .

كان هذا كله قبيل ظهور الإسلام ، ولم يمض غير بضعة عشرات من السنين حتى ظهر دين جديد قضى على كل ما كان في بلاد العرب من أديان ووجد بين قبائلهم وبلادهم ، وكون منهم للمرة الأولى والأخيرة مملكة متحدة تخضع لحاكم واحد .

ديانات بلاد العرب :

إذا لمحصنا ديانة السبأيين أو غيرهم من شعوب الجزيرة العربية لوجدنا أنها تقوم في أساسها على عبادة الكواكب فقد كانت الديانة الرئيسية تقوم على أساس ثلاث من الكواكب ، فكان الإله الأب هو القمر ، وكانت الإلهة الأم هي الشمس ، أما الإله الابن فقد كان نجم الزهراء ، وهذا الثلاث هو الموقاه وذات حميم (وأحياناً ذات بعدان حسب الصيف أو الشتاء) وعشتر . ولكن إلى جانب هؤلاء الآلهة الثلاثة كانت توجد آلهة عديدة أخرى . فقد كان لأكثر البلاد أو القبائل آلهة محلية ، كما كانت هناك معبودات أخرى للبطر أو المحاصيل أو غير ذلك ، مثل العناصر الجوية . بل أنه كان لبعض العائلات آلهة خاصة يقدمون لها

القرايين ويننون لها اغنيا كل . وكان كل إله من الآلهة هو السيد الحاكم لمعبده والمسيطر على أملاك هذا المعبد . وكان الكهنة ذوى نفوذ كبير ولهم امتيازات خاصة ، وكان هناك أرقاء يعملون فى حقول المعبد وحدائقه ، كما كان يقيم فى المعابد طائفة خاصة من النساء للقيام ببعض الطقوس المعينة مثلما كان يحدث فى معابد بابل ، وكانت هذه المعابد — وخاصة ما بنى فى العصور القديمة — على درجة عظيمة من الفخامة ، وهى جديرة بمقارنتها بما خلفته الحضارات الأخرى من آثار .

فإذا نظرنا إلى بقايا المعابد العظيمة فى صرواح ، أو فى مأرب ، أو فى براقش ، أو معين ، أو الحزم ، فإننا نؤمن فى الحال أنه كان يعيش فى جنوبى جزيرة العرب قوم ذوو حضارة وذو ثروة ، ويزداد إيماننا بهذه الحقائق إذا رأينا بقايا آثار أعمالهم فى استخدام مياه السيول وبخاصة سد مأرب العظيم . ولكن حضارة العرب القدماء لم تقتصر فقط على فن البناء بل أن دراسة النقوش بدأت تنير أمامنا الطريق لمعرفة حياتهم الاجتماعية وطرق معاملاتهم وعاداتهم ، وصلة القوم برؤسائهم وصلة القبائل ببعضها البعض .

ولهذا أصبح لزاماً علينا أن ندرس بإمعان هذه الحياة الاجتماعية فى جنوبى الجزيرة ، وندرس أيضاً ما كان سائداً فيها من أديان وآداب لأن هذه الحضارة وتلك الآراء والعادات والتقاليد ، هى التى كونت عقلية ونفسية العرب قبل أن ينتشر بينهم الإسلام . وإن يستطيع مؤرخ منصف أن يقول إنه من الميسور لأى باحث أن يوفى هذا الدين الجديد ، وهذا النبىء العربى ، وهذا الشعب الذى كون إمبراطوريته العظيمة فى زمن قصير ، لا يمكن للباحث أن يوفى ذلك كله حقه إذا لم يلم بما كان فى بلاد العرب من ديانات وتقاليد وحضارة قبل ظهور الإسلام ، بل من الواجب علينا لى ندرس حياة النبىء العربى الكريم ، ونقف على مواطن القوة والعظمة فى خلقه وفى دعوته ، أن نلم بشئ من الحياة الاجتماعية والدينية التى نشأ فيها وفتحت عليها عيناه قبل رسالته الكريمة . ولهذا فإن دراسة تاريخ وآثار

بلاد العرب قبل الإسلام ليست دواسة عادية لبلد من البلاد ، بل أن هذه الدراسة كبيرة الأهمية لا للعرب فقط بل ولجميع المسلمين في العالم .

أقدم العلاقات بين اليمن والحضارات القديمة :

أصل الآن إلى نقطة هامة في تاريخ اليمن ، وهي موضوع الصلات التي كانت بين تلك البلاد ومراكز الحضارات الأخرى في بلاد الشرق القديم .

فلو ألقينا نظرة على خريطة الشرق لوجدنا أن شبه الجزيرة العربية تتوسط أقدم حضارات العالم ، وهي حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين وحضارة وادي السند في الباكستان . ففي الألف الرابع قبل الميلاد - وربما قبل ذلك - أخذ الإنسان في كل بلد من هذه البلاد يسير نحو المدنية بخطى ثابتة مستقلاً عن الآخر ، ولكن لا بد لتقدم المدنية من مظاهر ، ومن أهم هذه المظاهر الاتصال بالبلاد المجاورة ، فاتصلت تلك الحضارات ببعضها البعض في ذلك العهد البعيد ، واستفادت من هذا الاتصال الشعوب التي كانت على الطريق أو الطرق التي بينها .

وتنقسم بلاد العرب إلى وحدتين جغرافيتين أولاهما في الشمال وتشمل الحجاز ونجد ، وأكثر أهلها يفضلون حياة البداوة ولا يؤثرون شيئاً على استقلال الفرد وحرية ، ولهذا لم يتهياً لسكان هذا الجزء من جزيرة العرب أن يصبحوا قوة متماسكة ذات نفوذ إلا عند ظهور الإسلام . أما سكان الجنوب فيختلفون عن سكان الشمال ، فهم سكان سهول ومدن ، وهم متباينون عن جيرانهم الشماليين في أصل جنسهم وفي مظهرهم وعاداتهم ، وبين الإثنين تماثل قديمة فمسكان الشمال هم بنو عدنان ومن العرب المستعربة ، أما سكان الجنوب فهم بنو قحطان ومن العرب العاربة .

ونجح سكان الجنوب - أي اليمنيون - في التجارة وأسسوا مراكز تجارية كانت تقيم فيها تجاليات من اليمنيين على طرق القوافل ، في وسط الجزيرة

وشمالها ، وكانت جنسياتهم تلاحقهم فكانوا يعرفون في مواطنهم الجديدة باسم الميعينيين أو السبأيين ، كما عبر بعضهم منذ أقدم العصور إلى الشاطئ الإفريقي ، وتاجروا واستقرت جاليات منهم في إريتريا والصومال ، إذ أن عبور البحر الأحمر عند بוגاز باب المندب لا يمكن أن يقف عقبة دون هذا الاتصال لأنه لا يزيد عن ٢٤ كيلو مترا في عرضه ، ويستطيع كل من يقف على أحد الشاطئين أن يرى جبال الشاطئ الآخر .

ولو رجعنا إلى الآثار المصرية والبابلية لوجدنا أدلة واضحة على صلة مصر ببابل عن طريق البحر من الجنوب قبل صلتها بها عن طريق البر من الشرق ، وسنرى بعد قليل أن سكان جنوبي الجزيرة — وهم ملاحون موهوبون — هم الذين قاموا بهذا الاتصال على الأرجح ولم يكونوا هم الذين أوصلوا بابل بمصر فقط، بل هم الذين أوصلوا حضارة وادي السند ببابل وبمصر عن طريق التجارة^(١) ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن اليمينيين القدماء كان لهم نصيب من المدنية ربما وصل منه شيء إلى بابل وإلى مصر^(٢) .

الطرق التجارية :

كان البحر الأحمر منذ أقدم العصور هو الطريق الذي حمل إلى العالم القديم أول مبادئ الاتصال الفكري والتجاري ، إذ كانت تبحر عبابه منذ عصر ما قبل الأسرات المصرية (أى قبل عام ٣٢٠٠ ق. م.) سفن ترتفع مقدمتها ومؤخرتها ، سفن لم تكن معروفة في وادي النيل ، ولكنها كانت معروفة في بلاد ما بين النهرين وفي شواطئ المحيط الهندي . ووجد إلى مصر قوم في هذه السفن ، ووصلوا إلى وادي النيل من الجنوب ومن الشرق واتخذوا طريق القصير — فقط في رحلاتهم ،

(١) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (3rd ed 1946) p. 32.

(٢) لدراسة أقدم العلاقات بين مصر وبابل وتأثير الحضارتين على بعضهما — انظر مقال

الأستاذ شارف — A. Scharff, *Neues zur Frage der Ältesten Agyptisch*

babylonischen Kulturbeziehungen, A. Z 71, p. 89-106.

وترك لنا هؤلاء الوافدون رسوماً لسفنهم على صخور بعض دروب الصحراء الشرقية ، وعلى الكثير من الصخور المطلة على النيل ، كما توغل بعضهم في ذلك العهد البعيد في الصحراء الغربية وتركوا لنا صوراً على بعض صخور الدروب وبخاصة في الواحات الخارجة ، في جبل الطير ، وعلى صخور درب الغبارى بين الخارجة والداخلية ، إذ كانت هذه السفن في نظرهم رمزاً لحياتهم السابقة في موطنهم سواء في جنوب الجزيرة العربية ، أو في بلاد العراق أو غير ذلك .

وثانى الطريقين هو الطريق البرى ، وكان لهم في ذلك طريقان : فيما أن تسير القوافل مخترة البادية رأساً من بابل إلى الشام فتعرض للبصائب الكثيرة وأولها نهب البدو لهم ، ولما أن تنقل التجارة في البحر إلى عدن ، وهناك يشتريها تجار ويحملونها بقوافلهم مخترقين الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها حتى يصلوا إلى الشام (غالباً في غزة) ، ومن هناك يحملها تجار آخرون إلى مختلف أرجاء العالم القديم .

وكان الطريق البحرى هو الطريق المفضل منذ أقن الإنسان فن الملاحة ، وكان أكثر أمناً وأقل نفقة . وكان ملاحو اليمن القدماء هم الذين يحملون التجارة في سفنهم فيعبرون البحر الأحمر إلى الشاطئ الإفريقى ، كما يفعلون اليوم ، ثم يسيرون حذاء الشاطئ من ميناء إلى آخر حتى يصلوا إلى القصير ، ومن هناك تنقلها القوافل إلى النيل . ومنذ الأسرة الثانية عشرة على الأرجح (أى منذ أربعة آلاف سنة) أوصل الفراعنة النيل بالبحر الأحمر بواسطة قناة ، فانتظمت أحوال التجارة أكثر من ذى قبل .

أقدم العلاقات بين اليمن وبلاد الرافدين :

وإذا رجعنا إلى تاريخ بلاد الرافدين لوجدنا أن السومريين قد اتصلوا ببلاد العرب منذ فجر تاريخهم ، وهذا أمر متوقع لأن بلاد العرب هي الجار الغربى للعراق ، وليس هناك حواجز طبيعية تعوق الاتصال غير البادية ، وهذه لم تعوق ولن

نعوق البدويوما من الأيام . فعلى أحد تماثيل الملك « نرام - سين » (حوالى ٢٣٠٠ ق. م .) يقص الملك أنه أخضع بلاد « ماجان » وهزم زعيمها « ماينوم » ويرد ذكر « ماجان » فى نص آخر عندما ذهب إليها « جوديا » كبير كهنة « لجش » وحاكمها ، ليحضر منها ومن بلدة « ملوغا » خشباً وحجارة لبناء معبده . وليس هذان البلدان إلا اسمين لبلدين من البلاد التى أسسها الفينيون على الطريق التجارى فى شمالى الجزيرة العربية فى ذلك العهد البعيد (١) .

وبالرغم من أن أهل اليمن ميالون بطبعهم إلى السلم ، وسياستهم هى المسالمة وحسن الصلة بالناس ، فإن ذلك لم يمنع الجاليات اليمنية : شمالى الجزيرة من قيامهم بما يفرضه عليهم حب الكسب ، وربما أيضاً واجبات الصلة بالجار والدفاع عن الوطن الجديد . فعندما أغار الملك الآشورى « شلنصر » على دمشق عام ٨٥٤ ق.م هب إهاب وجندب ، وهما زعيما لقبيلتين عربيتين من الجنوب ، ووقفوا إلى جانب ملك دمشق فى الموقعة الفاصلة عند « قرقر » شمالى حماة . وتوالت الإشارات إلى الجزية والهدايا التى كان يقدمها السبأيون فى القرن الثامن قبل الميلاد إلى ملوك آشور ، ولكن هذه الأشياء المذكورة لا يمكن إلا أن تكون هدايا أرسلها ملوك سبأ فى اليمن لتوطيد صلات الصداقة ، ومحافظة على العلاقات التجارية ، أو أن تكون جزية حقيقية فرضها ملوك آشور المنتصرون على الجاليات السبائية التى كانت مستقرة على طول الطرق التجارية فى شمالى الجزيرة وسوريا ، لأنه لا الجيوش الآشورية ولا الجيوش الكلدانية استطاعت أن تخترق الجزيرة العربية وتغزو بلاد اليمن .

أقدم العلاقات بين مصر واليمن :

اختلفت آراء العلماء فى أصل قدماء المصريين ، وأكبر الظن أنها ستظل مختلفة إلى حين . ولكن مهما كان اختلافها فإن هناك حقائق لا يمكن إنكارها ، وإحدى

F. Thureau - Danguin, *Les Inscriptions de Sumer et d'Akkad* (١)
pp. 238, 239

وهناك رأى آخر بأن هذين السكان فى منطقة الخليج العربى (الفارسى) .

هذه الحقائق أن المصريين في جميع عصورهم كانوا يظهرون احتراما كبيرا للذكرى
الـ « شمسو - حور » أي أتباع حور أو حورس . وروى قدماء المصريين في العصر
المتأخر لبعض الرحالة أنهم جاءوا من الشرق ومن الجنوب ، وأنهم علموا الحضارة
لأن كانوا في البلاد وأخضعوها لسلطانهم . ويصفون الطريق الذي جاءوا منه
وصفا غامضا لا نعرف عنه شيئا على وجه التحقيق في بدايته ولكنهم استخدموا
الطريق الموصل بين البحر الأحمر والنيل مارا بوادي الحمامات بعد ذلك ، وقد
ظل هذا الوادي إلى آخر عهد الفراعنة يتمتع بشيء من التقديس يشبه تقديس
البرانيين لجبل سيناء^(١) .

ولكن من هو الإله حورس وما أصله ؟ الجواب على ذلك أن هذا الإله ،
لم تكن له في الأصل أية صلة بعبادة الشمس ، وأنه كان رمزاً اتخذته إحدى
القبائل كمعبود لها على هيئة الصقر وأنه جاء مع الفاتحين كما أسلفنا . وفي نصوص
الآهرام (وهي من أهم وأقدم المراجع الدينية ٢٥٠٠ - ٢٢٥٠ ق . م .) يصفون
هذا الإله تارة بكلمة « أختي » وتارة بكلمة « أيتي » و « أبت » معناها الشرق
و « أخت » معناها أفق الشمس وكلا الكلمتين تشير إلى المشرق .

ولسنا الآن في مقام الإفاضة في مثل هذا البحث الطويل ، ولكن يكفي أن أشير
إلى ثلاث نقاط :

الأولى أن هناك إشارات كثيرة إلى أن الموطن الأصلي لحورس هو
بلاد بونت .

والنقطة الثانية أن اسم حورس غريب على اللغة المصرية ولكنه موجود في
اللغة السامية ، وبعبارة أدق في اللغة العربية . وقد نقل الديميري عن ابن سيده بأن :
« الحر طائر صغير أنمر أصقع قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس » ، وقيل إنه

Charles Kuentz, *autour d'une Conception Egyptienne méconnue* (١)

L'Akhî ou soi - disant Horizon, B. I. F. A. O. T, XVIII, p. 183.

يضرب إلى الحضرة وهو يصيد ، ، وأما الصقر فهو كلبة عامة لكل طير يصيد من
البزاة والشواهين ^(١) . وما زالت كلبة « حر » مستعملة إلى الآن في كثير من
جهات الجزيرة العربية وشمال أفريقيا لهذا الطير .

والنقطة الثالثة أن هؤلاء الوافدين — أتباع حورس — عبروا من جزيرة
العرب إلى الشاطئ الأفريقي في إريتريا ثم ساروا يخترقن البلاد حتى وصلوا إلى
صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادي الحمامات ^(٢) .

وهنا يحق لنا التساؤل إذا كان الباحثون قد وجدوا ما يثبت أن عبادة
حورس كانت معروفة في جزيرة العرب ، أو ما يثبت على الأقل أن حضارة اليمن
ترجع إلى هذا العهد البعيد ؟ وإلى أجيب على ذلك بأن الإله حورس لم يكن الإله
الوحيد الذي قال المصريون بأن أصله من بلاد العرب ، بل هناك آلهة أخرى منها
الإله « بس » ^(٣) . أما معلوماتنا عن تاريخ اليمن القديم فهو قليل نادر لأن أطلال
المدن الأثرية في اليمن ما زالت باقية كما تركتها عوادي السنين ولم يفحصها أحد ،
وإذا كنا نعرف عما عثر عليه الرحالة من نقوش أن تاريخ بعض المعابد يرجع إلى
القرن الثامن أو السابع أو الخامس قبل الميلاد ، فإننا نكون محقين إذا قلنا إن
هناك أملا كبيرا في العثور على آثار من عصور أقدم عهداً من ذلك ، عند ما يتم
حفر المناطق الأثرية وبخاصة في بلاد الجوف والمشرق .

(١) كتاب حياة الحيوان الكبرى لسكّال الدين الدميرى (طبعة صبيح) ، الجزء الأول
مادة حر ، ص — ٤٣٤ ؛ الجزء الثاني مادة صقر ص ٩١ .

(٢) V. Lorei, *Quelques idées sur la forme primitive de certaines religions égyptiennes*, *Revue Egyptologique*, T. XI, p. 69 ff.

(٣) Ballod, *Prologomena zur Geschichte der bartigen zwerghaften Götter in Agypten*, Ahmed Fakhry, *Bahria Oasi*. Vol. 1 (Cairo 1942), p. 166.

بلاد پونت :

لم يوجد في يوم من الأيام حاجز طبيعي يفصل بدو شرق مصر عن بدو سيناء أو بدو فلسطين أو شرق الأردن أو شمالى الجزيرة العربية . ولهذا كان طبيعياً أن يتصل المصريون منذ بدء تاريخهم ببُدو سيناء ، ونرى أثر هذه الصلة في بعض التماثيل التى عثر عليها وترى في أبيدوس وهى بلا شك لبدو من سكان شبه الجزيرة ، كما نراهم أيضاً في أقدم الرسوم في وادى المغارة في سيناء حيث يضرب الملك زعيم البدو تأدياً له ، أو رمزاً لسيادته على المنطقة ، ولكن إلى جانب صلة مصر ببُدو سيناء وشمالى الحجاز ، كانت هناك صلة أخرى أهم وأبعد أثراً وهى صلة المصريين ببلاد پونت .

وأقدم ما ورد مسطراً على الآثار عن مصر وصلتها ببلاد پونت هى البعثة التى أمر بإرسالها الملك ساحورع من الأسرة الخامسة (حوالى عام ٢٥٥٠ ق.م.) إلى تلك البلاد وبقيت بعض مناظرها على بقايا جدران معبده في أبو صير^(١) . ثم جاء ذكرها مرة ثانية على حجر بالرمو وفيه تفصيل لما عادت به الحملة من خيرات پونت مثل جلود الحيوانات والعاج وريش النعام وبعض الأحجار نصف الكريمة ، وذلك إلى جانب البخور وبعض أنواع العطور التى كانت السبب الرئيسى لقيام بهذه الرحلة^(٢) . وزادت الصلة بين مصر وبلاد پونت في الأسرة السادسة إلى حد كبير ، وفي إحدى مقابر أسوان يذكر أحد الموظفين أنه ذهب مع سيده إحدى عشرة مرة إلى تلك البلاد^(٣) .

وفي الأسرة الحادية عشرة (حوالى عام ٢١٠٠ ق.م.) بلغ من اهتمام الملوك بالتجارة مع پونت أن الملك منتوحتب الرابع أرسل مدير خزانته واسمه دحنتو لإحضار البخور ، فذهب ومعه ثلاثة آلاف رجل عن طريق وادى الحسامات

(١) L. Borchardt, *Das Grabdenkmal des Königs Sahure*, Vol II, PL 19 ff

Schaefer, *Palermostein*, R. Z. 4 No. 1,

Sethe, *Urkunden I*, 140

(٢)

(٣)

والبحر الأحمر ونجح نجاحاً عظيماً في مهمته . وتكررت الحملات في الأسيرة الثانية عشرة وما بعدها . ونرى في قصة الملاح الغريق (ويرجع تاريخها إلى الأسيرة الثالثة عشرة) صدى لما كان يلاقيه البحارة المصريون في البحر الأحمر من مصاعب ومتاعب عند سفرهم إلى بلاد بونت (١) .

وأشهر رحلات المصريين إلى تلك البلاد هي الرحلة التي أمرت بها الملكة حتشبسوت في الأسيرة الثامنة عشرة (حوالي ١٤٩٠ ق . م .) تحت قيادة الوزير نفسي ، ونقشت مناظرها على جدران معبد الدير البحري في طيبة . أعدت حتشبسوت سفناً كبيرة لهذه الرحلة غادرت طيبة في النيل وربما وصلت إلى البحر الأحمر عن طريق القناة التي كانت مستخدمة في ذلك العهد بخرقة وادي الطميلات ، ثم عادت إلى مصر محملة بخيرات بونت من بخور وعطور وأخشاب وحيوانات ، كما أحضرت إحدى وثلاثين شجرة لزروعها في حديقة معبد آمون بالدير البحري . واهتم المصريون بتدوين تفاصيل هذه الرحلة ، فنرى استقبال مندوب الملكة لزعماء بونت والهدايا التي قدمها إليهم ، كما رسموا أيضاً القرية الساحلية التي رسوا عندها . وعنوا عناية خاصة برسم جميع أنواع الأسماك التي رأوها في البحر الأحمر .

وقبل أن نحدد موقع بونت يجب أن نضع نصب أعيننا الحقائق الآتية :

(أ) إن مناظر أهل بونت في معبد ساحورع في الأسيرة الخامسة ، ومناظرهم على جدران الدير البحري وبعض مقابر طيبة في الأسيرة الثامنة عشرة تبين أنهم من جنس يشبه كثيراً جنس المصريين ويتفق معهم في أكثر الملامح والملبس .

(ب) جميع ما ذكره المصريون بخيرات بونت يمكن الحصول عليه من الشاطئ الآسيوي وأكثره بحلي ، وبعضه يأتي إليها بوساطة التجارة .

(١) Pap. Petersburg 1115; ERMAN, The Literature of the Ancient Egyptians, p. 29.

(ج) إن خير أنواع البخور واللبان لا تنبت في الشاطئ الإفريقي بل في بلاد الشحر والمكلا وظفار وجزيرة سوقطرة ، وكلها على الشاطئ الجنوبي لجزيرة العرب .

(د) لخص الإخصائيون رسوم الأشجار المرسومة على جدران معبد الدير البحري ووجدوا أنها من نوعين أحدهما ذو أوراق كثيفة من نوع *Boswellia Carteri* ويقول الأستاذ مشف ، Schoff أنه من نوع أشجار ظفار ولا يمكن أن ينبت في الشاطئ الإفريقي^(١) . أما النوع الآخر فهو قليل الأوراق بل يكاد يكون عارياً منها ، ويشبه أشجار اللبان التي تنبت في بلاد الصومال^(٢) .

(هـ) بدأت هجرة سكان جنوب الجزيرة إلى الشاطئ الإفريقي منذ أقدم العصور ، وانتشروا هناك وأصبحوا يحكم ذكائهم وتقدمهم في الحضارة أهل النفوذ بين السكان الزنوج .

وهناك نقطة أخرى جديرة بالاعتبار . ففي المناظر التي تسجل صلة المصريين بأهل بونت مثل رحلة حتشيسوت ، ومناظر الجزيرة في بعض المقابر ، نرى بعض الأهلالي يرتدون ملابسهم التقليدية ، ونرى فيها شها كبيراً بين الإزار الذي كان اليونانيون القدماء يلفونه حول وسطهم ، وبين ذلك الإزار نفسه الذي ما زال يستخدمه حتى يومنا هذا بعض رجال القبائل في جنوب اليمن ، وعلى الأخص في مناطق الساحل الجنوبي ، ولإني أرجو أن تكون هذه الملاحظة موضع دراسة جدية في المستقبل .

فإذا وضعنا في ذهننا جميع هذه الحقائق ، وأردنا أن نحدد مكان بلاد بونت ، لوجدنا أن رأى علماء القرن الماضي وصدر القرن الحاضر ، وهو أن بونت هي بلاد اليمن الجنوبية ، لا يخلو من القيمة والصدق . ولكن مع تقدم الزمن ظهر معارضون لهذه الفكرة وأخذوا يشككون فيها بانين نظريتهم على اعتراضين ، أولهما أن كثيراً من الأشياء التي ذكر المصريون أنهم أحضروها من بلاد بونت لا يكثر

H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea*, p. 218 (١)

A. Lucas. *Ancient Egyptian Materials and Industries*, p. 93. (٢)

وجودها إلا في أريتريا والصومال . أما الاعتراض الثاني ، فهو أن بعض الأشجار المرسومة في الدّير البحري يسكّر وجودها في الصومال ويخالف في مظهره النوع الذي يثبت في ظفار . وأول هذين الاعتراضين لا يقوم على أساس ، لأن كل ما أحضرته البعثات المصرية من بونت من نباتات أو أشجار أو حيوانات يوجد في الشاطئ الآسيوي ، كما يوجد في الشاطئ الإفريقي ، وفضلا عن ذلك فإن التبادل التجاري بين الشاطئين عن طريق باب المندب كفيل في حد ذاته بمجمل هذا الاعتراض لا قيمة له لأن تجار العرب كانوا يجوبون بحار الهند والبحر الأحمر منذ أقدم وأبعد العصور . أما عن الاعتراض الثاني ، فإنه قد ثبت أيضا أن شجر اللبان ذا الأوراق القليلة ينبت أيضا - ولو بكميات قليلة - في الشاطئ الآسيوي . ومهما كان الأمر في رأي أن بلاد بونت اسم عام على المنطقة التي تنبت البخور في جنوبي البحر الأحمر على مقربة من باب المندب ، وتشمل كلا من الشاطئين الإفريقي والآسيوي . أي أن هذه البلاد تشمل ما نعرفه الآن باسم جنوبي جزيرة العرب والصومال وإريتريا ^(١) .

أقدم العلاقات بين اليمن وبين اليونان :

غزا الإسكندر الأكبر بعض بلاد آسيا ، وبعد أن هزم الفرس سارعت الشعوب بإرسال الهدايا لتخطب وده ، مقدمة ولاءها له ما عدا سكان الجزيرة العربية فإنهم أنقوا من ذلك فآثر عملهم في نفسه وتوعدهم بغزو بلادهم ، ولكنه مات قبل أن يتفد ما قاله ^(٢) .

وبقي كثير من رجال الإسكندر في آسيا وعلى الأخص في فارس وسوقطره ، وبعض البلاد الأخرى على المحيط الهندي ، وكونوا جاليات كبيرة تزوجت من

(١) قارن ذلك بما ورد في *The literature of the Ancient Egyptians* ، ^a *Iran* p. 33 footnote 6 Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (3rd ed., 1946) p. 34.

(٢) *Strabo, Geography, Book XVI Ch. 4 § 27.*

أهل البلاد ، فلما عفى البطالمة المصريون بتشجيع التجارة في البحر الأحمر والهند ، اشتغل أكثر هؤلاء اليونانيين بالتجارة جنباً إلى جنب مع أهل البلاد (١) .

وأخذ نجم الرومان يعلو بعد ذلك فثبتوا أقدامهم في مصر وسوريا ، وأخذوا يشجعون التجارة في البحر الأحمر لنقل حاصلات الهند ، ولكنهم رأوا في عرب جنوب الجزيرة منافساً قوياً إذ كانت تجارة الطريق البري في أيديهم يتحكمون فيها كما يريدون ، كما كانوا أيضاً منافساً خطراً شديد الوطأة يعمل له الملاحون الرومان ألف حساب عند اجتيازهم باب المنصب أو عندما يرسون على بعض الموانئ في تلك المناطق .

وأراد دالمير جالوس ، الحاكم الروماني في مصر أن يغزو بلاد العرب مبستينياً بالأنباط حلفاء الرومان ، فأخذ معه الوزير النبطي «سيليموس» وجيشاً مكوناً من ١٠,٠٠٠ جندي بينهم ١٠٠٠ من البدو ، و ٥٠٠ من اليهود ، كما صحبهم الجغرافي الروماني الشهير «سترابون» الذي كان صديقاً حميماً لقائد الحملة .

كان ذلك في عام ٢٤ ق . م . ومن الوصف الذي تركه «سترابون» نعرف ما تعرض له الجنود الرومانيون من صعاب ، مات بسببها أكثرهم ، إذ قضوا أكثر من ستة شهور حتى وصلوا إلى نجران . وأرادوا التقدم إلى مأرب ، وهناك حدثت معركة حطمت جميع أطماع الرومان فعادوا أدراجهم ، أما القليلون الذين وصلوا إلى مصر ، فقد عادوا إليها وهم مرضى منهوكواقوى . وتوالت بعد ذلك كتابات مؤرخي الرومان ورحالهم عن بلاد البحر الأحمر وجنوب الجزيرة ، ولما أنحصر بالذكريات فراسد وسترابون وإراتوستينس وأرتيميدور وأجاناث شيدس وپليني ومؤلف كتاب پريپلوس والجغرافي بطليموس (٢) إذ خلف لنا هؤلاء المؤلفون معلومات كثيرة عن الممالك التي كانت في جنوب الجزيرة مع وصف لها ، كما ذكروا

ED. GLASER, Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, Vol. (١)
II. p. 183-184.

(٢) راجع أسماء هؤلاء المؤلفين وتعليقات جلادز في كتابه السالف الذكر ص ١٤ وما بعدها .

الكثير عن حاصلاتها وتجارتها . ولا شك أن بعض موانئ جنوبي اليمن مثل عدن كانت تدخل تحت النفوذ التجاري الروماني ، ولكن الرومان لم يحتلوا جنوبي الجزيرة في يوم من الأيام^(١) .

اليمن والحبشة :

في القرن الأول الميلادي استقر بعض المهاجرين اليمنيين والحضارة في إفريقيا في « أرض كوش » حيث وضعوا أساس الحضارة الحبشية ، ثم المملكة الحبشية التي بلغت شأنًا كبيراً بين القبائل الزنجية في تلك المناطق .

عبر اليمنيون بحضارتهم الخيرية إلى الحبشة ، وغرسوا النواة التي ترعرعت منها مملكة أكسوم ، ومنذ ذلك العهد لم تنقطع صلة الحبشة باليمن بل أن اغتيم وكتابتهم ليستا إلا السكتاية واللغة الخيرية اللتين كانتا منتشرتين في جنوبي اليمن عند الهجرة . ومن المحتمل أن تكون هجرة اليمنيين إلى الحبشة جاءت عقب اضطرابات داخلية في مملكة حمير ، وكان أحد المطالبين بالملك على رأس أولئك المهاجرين ، أو أن ملكاً غلب ملكاً آخر على أمره ، فهاجر إلى الحبشة لأنه بمجرد استقرار الأمر في مملكة أكسوم الجديدة بدأت توجه نظرها إلى غزو اليمن ، وذلك في القرن الثاني الميلادي ، وأصبحت ألقاب هؤلاء الملوك : « ملك أكسوم وحمير وريدان وسلحين » .

ووصلت الديانة المسيحية إلى الحبشة عن طريق مصر . وأصبح الأحباش مسيحيين متعصبين لدينهم ، بينما لم تجد المسيحية بين أبناء عموماتهم في اليمن إقبالا كبيراً ، وظل أكثر الناس يعبدون القمر والشمس والكواكب الأخرى . وأخذت بيزنطة ترسل مبشرين بالديانة الجديدة إذ وجدت في نشر المسيحية نشرًا لنفوذها السياسي وسيادتها على الشعوب ، فشجعت إرسال المبشرين . وفي منتصف القرن الرابع كانت هناك كنيسة في عدن وكنيستين في أرض حمير ، ولكن لم تصل

(١) أحدث الأبحاث وأولها من الصلة بين اليمن وبلاد اليونان هو كتاب جاكين بيرين Jacqueline Pierenne, *La Grece et Saba*, (Paris, 1955).

المسيحية إلى داخل البلاد إلا بعد ذلك بوقت طويل، إذ ظلت نجران وثنية إلى آخر القرن الخامس، ولم ينجح في التبشير بها هناك إلا راهب سوري اسمه « فيون » .

وفي نفس الوقت بدأت الديانة اليهودية تنتشر في الجزيرة العربية إذ لجأ كثير منهم، بعد أن حطم الإمبراطور « تيتوس » هيكل أورشليم عام ٧٠ ميلادية، إلى هذه البلاد، وبدأوا ينشرون ديانتهم هناك . وكان لابد من تصادم الديانتين الجديدتين، وأخذت المنافسة بينهما طابعاً خطراً عند ما تهود الملك الحميري « ذو نواس » وأعلنها حرباً لا هوادة فيها على المسيحيين الذين كانت تربطهم بالحبشة وبيزنطة صلات روحية . فأمر « ذو نواس » باضطهاد المسيحيين وبخاصة في نجران وحدثت إذ ذاك مذبحة الأخدود الشهيرة في عام ٥٢٣ ميلادية . واهتمت بيزنطة بالأمر وأرسل الإمبراطور جوستينيان إلى النجاشي لمساعدة مسيحي اليمن، فأرسل ملك الحبشة جيشاً تعدادة ٧٠,٠٠٠ مقاتل حسب رواية مؤرخي العرب . وبعد حرب دامت عامين، وجد الملك « ذو نواس » أنه لا أمل له في التغلب على أعدائه ففضل أن يتخلص من حياته على الوقوع في أيديهم، فنزل بجواده إلى البحر وأغرق نفسه .

ويبقى الأحباش في اليمن، وحكها القائد أبرهة باسم حكومة أكسوم، وبدأ يصلح البلاد وأهم أعماله إصلاحه لسد مأرب عندما تمدم عام ٥٤٣ هـ، وبنائه كنيسة عظيمة في صنعاء، ذكرها العرب باسم « القليس » (وهي محرفة عن كلمة أكلسيا بمعنى كنيسة) وبالع في نقشها وزخرفتها ووضع فيها التماثيل، وأراد أن يجعل منها مكاناً شبيهاً بكعبة مكة ليحج إليها العرب فيقلل من شأن كعبة الحجاز، ويجعل من صنعاء سوقاً تجارية، ويساعد في انتشار المسيحية بين القبائل .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن اهتمام بيزنطة بأمور اليمن وغزو الأحباش لتلك البلاد، لم يكن إلا للاستيلاء على أهم طريق تجاري بين الهند والبحر الأبيض المتوسط، وهو الطريق الذي كان دائماً في أيدي اليمنيين . ولم يكن هذا التحمس لنصرة الدين إلا ذريعة استتر وراءها الرومان لئيل ما عجزوا عن الحصول عليه عن طريق حملتهم في القرن الأول قبل الميلاد .

لم تكن بيزنطة وحدها في الميدان ، بل كان لها منافس قوى في فارس فلما هب أحد الأمراء الخميريين وهو سيف بن ذى يزن ، يريد تخليص بلاده من الحكم الحبشى لم يتردد ملك الفرس في مساعدته ، وأرسل معه أحد كبار قواده على رأس جيش عظيم ، فتمكن من هزيمة الأحباش واستئصال شأفتهم ، ثم انسحب الفرس نازكين سيف بن ذى يزن ، ملصكا على البلاد ومعه حاكم فارسي ، ولم يمض غير قليل حتى ظهر الإسلام وانتشر في اليمن ، ودخلت البلاد في عهد جديد .

القبائل اليمنية :

رأينا في مستهل هذا البحث ، كيف كانت القبائل اليمنية تهاجر وتستقر خارج اليمن وبخاصة على الطرق التجارية الهامة . ولم تقتصر هذه الهجرات على العصور الأولى ، بل استمرت على الدوام . وسواء أكانت هذه الهجرات راجعة إلى اضطرابات داخلية أو نتيجة تهدم سد مأرب وغيره من السدود بين حين وآخر ، أو أنها ترجع إلى غير ذلك من الأسباب ، فإننا نعرف أنه قبل ظهور الإسلام بوقت غير قليل ، كان بنو غسان يعيشون في حوران في سوريا ، وبنو لخم يعيشون في الحيرة في العراق ، وكون كل منهما ملكة ذات شأن . وكانت هناك أيضاً قبيلة طيء وقبيلة كندة ، وقد استقرتا في شمال ووسط الحجاز ، وهذه القبائل كلها يمنية ، هاجرت من جنوبي الجزيرة .

جاء بنو غسان متخذين الطريق الموصل بين مأرب ودمشق ، واستقروا في الجنوب الشرقي منها في أواخر القرن الثالث المسيحي ، وسرعان ما كونت هذه القبيلة لنفسها مركزاً ممتازاً . ودارت الأيام واتصلوا ببيزنطة فلم يمض غير قليل حتى انتشرت بينهم المسيحية ، وتركوا حياة البداوة وعاشوا في القصور . ورأت بيزنطة في بني غسان خير معوان على حماية طرق التجارة وإيقاف البدو عند حدهم ، كما وجدت فيهم أداة صالحة لحماية حدودهم ضد توسع الفرس . وأدى بنو لخم المهمة نفسها لحلفائهم الفرس ، وبلغت المملكةتان العربيتان أوج ازدهارهما في القرن الثالث الميلادي وبخاصة في مقتضعه عند ما كان الحارث بن جبلة يحكم غسان

والمنذر بن ماء السماء يحكم الحيرة . ورغم إنهما من موطن واحد فإن السياسة فرقت بينهما ، وكانا يشتبكان — كما اشتبك من سبقهما ومن جاء بعدهما — في حروب لا يستفيد منها إلا قيصر وكسرى . ولم يلق ملوك غسان من أباطرة الروم ما كانوا يرجونه ، وانتهى الأمر باضطهادهم والفضاء عليهم قبيل ظهور الإسلام . وترك الفساسة آثاراً لها طابع خاص إذ أن أصولها ترجع إلى الفن البيني والفن البيزنطى ، وفيه أيضاً شيء غير قبيل من الفن المحلى السورى الذى نشأ وترعرع خلال تاريخها الطويل ، واتصالها بحضارات بابل ومصر والحيثيين . ونعرف من تاريخ الفساسة أنهم أقاموا قصوراً وكنائساً ، وأنشأوا السدود وبنوا الحمامات وأقاموا أقواس النصر ، ولكن زال أكثرها الآن ، وعدت رمال الصحراء فغطت بقاياها ولم يبق فى حوران منها إلا القليل .

لأن بلاد المعينيين والسبأيين والحيريين ملأى بالمناطق الأثرية ، وبقايا معابدهم وسدودهم لا تقل عن آثار الحضارات الأخرى . وكمن مرة وقفت أمام الجدران والأعمدة الجرانيتية الذاهبة فى السماء فى صرواح وفى مأرب ، وكمن مرة وقفت أمام بقايا معابد عشتار فى معين ومدينة هرم ، وساءت نفسى عما تخفيه هذه الأطلال من مفاجآت للتاريخ وعلم الآثار . وسيأتى اليوم — ونرجو ألا يكون بعيداً — عند ما تقص فيه آثار اليمن قصتها الطويلة ، وسيجد فيها العلماء كثيراً مما يودون معرفته .

الفصل الخامس

مَآرِبُ وَأَشَارَهَا

أهم الرحالة الذين زاروا بلاد العرب :

يحفل تاريخ الرحالة الذين زاروا بلاد العرب بأسماء وقصص كثيرة لا يمكن الإحاطة بها كلها في مثل هذا البحث ، ويكفي أن نذكر أن أول اهتمام ببلاد العرب في العصور الحديثة ، كان بسبب الرغبة في معرفة ما كان يجري في مكة والمدينة ، إذ ألهم ذلك الموضوع خيال الأوروبيين ، وخصوصاً لأن المدينتين محرمتان على غير المسلمين . وأقدم ما نعرفه عن هؤلاء الرحالة هو أن دى فرتما (L. de Varthema) وصل إلى مكة قادماً من دمشق في أوائل القرن السادس عشر، وتلاه آخرون . ولكن أكثر الرحالة الذين تركوا لنا وصفاً مسهباً لرحلاتهم وخطراتهم ، كانوا رحالة أوائل القرن التاسع عشر، ويأتي في مقدمة تلك القصص قصة زيارة المغامر الأسباني باديا ني لبلخ (Badia y Leblich) الذي وصل إلى جدة عام ١٨٠٧ تحت اسم د علي بك العباسي ، مدعيًا إنه لم يكن مسلماً فحسب ، بل كان آخر أمير من نسل الخلفاء العباسيين . وقد زار مكة وكتب أول وصف دقيق للكعبة وجميع ما كان يجري أثناء الحج ، ووصف جميع مراسمه ، وكان أول من عين مكان مكة على خريطة العالم .

وكتب هوجارت كتاباً عن تاريخ جميع الرحالة حتى عام ١٩٠٤ لخص فيه جميع نتائجهم . ونحن نقرأ في هذا الكتاب الشيء الكثير عن أمثال نيبوور (Carsten Niebuhr) (١٧٦١ — ١٧٦٤) وهاليفي (Halévy) (١٨٦٩) وجلالزر (Glaser) (١٨٨٢ — ١٨٩٢) الذين زاروا آثار اليمن ، وقدموا

للعالم كثيراً من المعلومات عن حضارتها ، كما تقرأ فيه أخبار رحلات مغامرين
أذكىاء مثل ولستد (Wellsted) (١٨٢٥) وفون فريده (Von Wrede)
وهيرش (Hirsch) وبنت (Bent) ومايلز (Miles) الذي فحص جميع
شواطئ بلاد العرب في عام ١٨٦٧ موقداً من شركة الهند البريطانية . ويخصص
هوجارث صفحات كثيرة لبوركهارت (J. L. Burckhardt) (١٨١٥) الرائد
الأول للحجاز ، وبرتون (Burton) وسنوك هورجونيه (Snouck Hurgonje)
الهولندي ، وبلجريف (Palgrave) (١٨٦٢ - ١٨٦٣) وغيرهم^(١) .

ومن أهم الأسماء والمعالم في تاريخ اكتشاف بلاد العرب اسم دوق
(Doughty) مؤلف كتاب Arabia Deserta (١٨٧٥) ، واسم بلنت
(١٨٨٧ Blunt) ، وهوبر (١٨٨٣ Huber) ، وأيتينج (١٨٨٣ Euting) .

فلما أشرق القرن العشرون بدأت الأبحاث العلمية تزدد ، وأصبح بين أيدينا
مؤلفات هامة ، مثل كتاب موزل (Alois Musil) الذي كتبه في سبعة أجزاء ،
وهو تراث خالد في تاريخ البحث العلمي ، وما نشره أيضاً كل من چاوسين
وسافينيكا الذين نشرتا نتائج أبحاثهما في مؤلفهما الشهير عن آثار الحجاز وبخاصة
مدائن صالح والعلا^(٢) .

وفي الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى كان ديسو (Dussaud) يقوم
بأبحاثه وينقل النقوش في سوريا ، وكان يفعل ذلك أيضاً زملاؤه من العلماء
الألمان ، فلما نشبت الحرب واضطربت الأمور توقفت الأبحاث إلى حين .
ووضعت الحرب أوزارها ، ولكن لم تجر أي حفائر في شمال بلاد العرب أو في

(١) وظهر حديثاً كتاب آخر في الموضوع ذاته وهو كتاب
Jacqueline Pierenne, *A la découverte de l'arabie, Paris 1958,*

(٢) Jaussen - Savignac, *Mission archéologique en Arabie. Tome I, De Jerusalem au Hedjaz, Medain-Saleh, (1907) · Paris 1909, Tome II El-Ela d' Hegra, à Teima, Harrah et Teboik (1909 et 1910) Texte et Atlas (3 Vol, in 4), Paris 1914.*

الحجاز أو في نجد ، ومع ذلك فقد ازدادت معلوماتنا عن النقوش ، وتمكن
كثيرون ومنهم ديسو ، ودينان (Dunand) من نقل كثير من النقوش الصفوية
والثمودية واللحيانية ، وأصبح من اليسور البدء في عمل سجل جامع لها .

وكان أكثر الرحالة نشاطا في نجد وأواسط بلاد العرب ، برترام توماس ، ثم
هنري سان جون فيليبي ، الذي قام بكثير من الرحلات ، كانت آخرها رحلته التي قام
بها في صحبة العالم البلجيكي ج - ريكمانز ومساعديه وعادوا منها (كان ذلك في
شتاء ١٩٥١ - ١٩٥٢) ومعهم ١٢٠٠٠ نقشا جديدا أكثرها ثمودية ، ولكن
من بينها أيضا نقوش لحيانية وسبائية ، وقد مرت هذه البعثة بنجران وزارت كل
ما وجدت من بقايا المدينيات القديمة في المنطقة الواقعة داخل حدود المملكة
العربية السعودية .

أهم الرحالة الذين زاروا اليمن :

تكفيينا هذه المقدمة عن الرحالة الذين اهتموا بدراسة الجزء الشمالي من بلاد
الجزيرة العربية ، ولنتحدث الآن بشيء من التفصيل عن أولئك الذين ركزوا
اهتمامهم في زيارة اليمن ، وكان هدفهم الأول دراسة ما بقي من مدينتها القديمة ،
وذلك أيام القرن الثامن عشر .

كارستن نيبور Carsten Niebuhr ١٧٦١ - ١٧٦٧ :

كانت قصة التوراة عن ملكة سبأ وسليمان ، وما ورد فيها عن أماكن متعددة
في بلاد العرب ، وما حوته من ذهب وأحجار كريمة ، وما كتبه المؤرخون
اليونان والرومان من قصص أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، وما رده بعض
كتاب العرب عما يقوم في بلاد اليمن من قصور وحصون بقيت من عهد الأقدمين
كانت كل هذه الكتابات سببا في إلهاب خيال كثير من الرحالة وحملهم على
التفكير في السفر إلى اليمن . وكانت أولى المحاولات العلمية هي قيام بعثة دانمركية
أوفدها الملك فريدريك الخامس عام ١٧٦١ ، وكانت مكونة من علماء عديدين

من علماء الاستشراق والنبات ، وكان من بينهم ضابط صغير اسمه نيبثور لعمل الخرائط . بدأوا رحلتهم على إحدى السفن الحربية الدانمركية ، فقصدوا أولاً إلى أزمير ومنها إلى استانبول ثم إلى مصر ، وكانوا يدرسون ويحققون كل ما يقع تحت أنظارهم ، لأن الشرق كان جديداً على أوروبا في ذلك الوقت . ولكن ماكدت البعثة توضع أقدامها على أرض اليمن حتى أخذت تحمل بها النكبات ، فمات رئيسها في ميناء المخا بالحصى في مايو ١٧٦٣ ، ومات فورسكال أخصائي النبات بين المخا وصنعاء في بلدة يريم ، ولكن الثلاثة الباقين واصلوا رحلتهم إلى صنعاء وعادوا منها ، وأقلعوا من المخا في طريقهم إلى بومباي . ومرض ثالثهم ومات في البحر أمام جزيرة سوقطره ، ومات الرابع في عام ١٧٦٤ في بومباي ، ولم يبق من الخمسة غير الضابط الصغير نيبثور الذي صمم على إتمام الرحلة بمفرده حسب البرنامج الموضوع ، فوصل إلى ميناء البصرة ثم إلى بغداد والموصل وحلب والقدس وقبرص واستانبول ووصل بعد ذلك سالماً إلى كوبنهاجن . وقد أثبت نيبثور إنه كان من أكفأ الناس لمثل هذا العمل ، وقام بإخلاص بإعداد جميع الأبحاث والرسوم للنشر ، فكانت نتائج هذه البعثة بفضل ذكائه وإخلاصه وعلمه أفضل نتائج البعثات العلمية في ذلك العهد ، وما زالت معلوماته التي دونها مرجعاً من المراجع الأساسية عن اليمن حتى الآن ، شأنها في ذلك شأن جميع ما كتبه في وصف البلاد التي مرت بها البعثة .

وبالرغم من أن زيارة الآثار وبحشها لم تكن من أهداف البعثة إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن نيبثور كان أول أوروبي وقمت عيناه على الكتابة العربية من عهد ما قبل الإسلام . فبينما كان مريضاً في المخا في يوم من الأيام ، جاءه أحد الهولنديين الذين كانوا يقيمون في ذلك الميناء واعتنق الإسلام ، ومعه حجر من الأحجار عليه كتابات بلغة لم يرقها نيبثور ، وذكر هو قصة ذلك الحجر ، وقال إنه كان في تلك اللحظة يعاني أشد الآلام ، وكان يعد نفسه لاستقبال الموت ، فلم يهتم أو يقو على نقل صورة تلك النقوش . وقد وضع هذا الرحالة الممتاز كتابه بالألمانية بعنوان :

Carsten Niebuhr, *Beschreibung von Arabien*. Kopenhagen, 1772.

وقد ظهر له أكثر من ترجمة بالفرنسية كانت الأولى في عام ١٧٧٣
Description de l'Arabie والثانية في ١٧٧٩ .

جوزيف توما أرنو Joseph Thomas Arnaud (١٨٤٣) :

منذ اكتشاف نقش حصن الغراب على شاطئه حضرموت في عام ١٨٣٤ بدأ بعض الرحالة يهتمون اهتماماً خاصاً بالحصول على نقوش عربية قديمة . ونحن نعرف بعض الاسماء لأتاس منهم ، ولكن أهم الرحالة في ذلك الوقت بالنسبة لدراسة تاريخ العرب القديم ، هو شاب فرنسي صيدلى اسمه أرنو ، كان في خدمة حاكم تركى أرسلته حكومته في مهمة خاصة إلى اليمن عام ١٨٤٣ ، فانتهاز فرصة سفر إحدى القوافل من صنعاء إلى مأرب فغاطر بالسفر معها دون إذن من الحاكم ، فوصل إلى مأرب بعد سفر خمسة أيام . ثم ترك مأرب في اليوم الثالث من وصوله عائداً إلى صنعاء مع إحدى قوافل المنيح فوصلها دون أن يصيبه أى ضرر .

كانت رحلة أرنو إلى مأرب في يولييه ١٨٤٣ ، وقد زار في طريقه إليها خرائب مدينة صرواح . وزار سد مأرب وتقل كثيراً من النقوش السبئية التي رآها ، وكان عددها ٥٦ نقشا ، وأخذ مذكرات عما وقعت عليه عيناه ، وبخاصة عند سد مأرب ، فكانت أول نقوش هامة تصل إلى أيدي العلماء . وقد نشر هذه النقوش والمذكرات القنصل الفرنسى في جدة ، وكان يسمى فرزنل Fresnel في عام ١٨٤٥^(١) . أما أرنو نفسه فقد أثرت عليه رحلته وسببت فقد بصره مدة طويلة ، وكان ذلك بسبب الأمطار الشديدة التي تعرض لها في سفره عند العودة من صنعاء إلى الشاطئ في بلاد تهامة .

جوزيف هاليفي Joseph Halévy (١٨٦٩) :

كانت أبحاث فرزنل على نقوش « أرنو » سبباً مباشراً لعناية علماء الاستشراق

(1) *Journal Asiatique* 4 Serie 5 Tome, Paris, *Relation d'un Voyage a Mareb (Saba) dans L'Arabie Méridionale entrepris en 1843 par M. Arnaud*, p. 211-245, 309-345, 6 Tom *Inscriptions, transcription Arabe et Remarques de M. Fresnel*, p. 169-237.

بلغة بلاد العرب الجنوبية . وقد زاد الاهتمام بها بعد العثور على مجموعة كبيرة من النقوش في بلاد اليمن اشترها الضابط كوجلان Coghlan ، وكان من بينها تماثيل وأحجار مكتوبة وألواح من النحاس لا يقل عددها عن الأربعين ، وهي الآن في المتحف البريطاني^(١) . وقد رأت أكاديمية النقوش والآداب الجميلة في باريس عام ١٨٦٩ (Académie des Inscriptions et Belles Lettres) أن تبدأ في وضع معجم النقوش السامية (Corpus Inscriptionum Semiticarum) فاختارت هاليشي لنقل النقوش التي في بلاد اليمن . فسافر في ذلك العام إلى عدن حيث حصل على معونة الجالية اليهودية فيها ، وخطابات التوصية إلى جميع يهود اليمن ، وسافر إلى داخل البلاد يلبس ملابس يهود القدس . سافر هاليشي إلى الحج ثم عاد إلى عدن وركب سفينة إلى الحديدة ثم سافر منها إلى صنعاء حيث زار بقايا القليس ، وهي التي كانت كنيسة شهيرة في القرن السادس المسيحي . ثم أخذ يتجول كما يشاء في جميع المناطق مصطحباً أحد يهود صنعاء واسمه « حاييم حبشوش » فزار كل جهات اليمن تقريباً بما في ذلك بلاد مأرب والجوف ونجران ، وهو عمل لم يستطع القيام به فرد آخر حتى الآن . وفي هذا الوقت البعيد كان تجار الآثار يرسلون رسلهم لإحضار الآثار من اليمن ، وقد قص هاليشي قصة التاجر الهندي الذي كان في مأرب ليحصل على آثار منها ليبيعها للبريطانيين في عدن .

ونحن إذ نقرأ الآن قصة رحلته والمصاعب التي لاقاها ، لا يمكننا إلا الإعجاب بهذا العالم الذي تغلب بصبره وشجاعته على كل ما صادفه ، وقد نقل هاليشي أثناء رحلته كتابة ٦٧٦ نقشاً لم يكن من بينها إلا أحد عشر نقشاً سبق أن نقل أرنو كتابتها ونشرها فرزنل ، كما ذكرنا .

ومما يتصل برحلة هاليشي ما حدث بينه وبين حاييم حبشوش رفيقه في السفر من نزاع ، فإن حبشوش كان يهودياً من صنعاء ، وكان هاليشي يرسله لينقل له بعض

(١) المعروف عن هذه المجموعة أنها وصلت إلى عدن ، واشترت به عام ١٨٦٠ ، ولأن اعتقد أنها جاءت من عمران وكان العثور عليها في عام ١٨٥٤ ميلادية (١٢٧١ هـ) .

نقوش ويدفع له قرشاً عن كل سطر ، فكان حبشوش يقطع السطور الطويلة يحصل على مبالغ أكثر ، كما كان يخفى عنه بعض النقوش إذا كان المحصول كبيراً ، أحد الأيام لأنه كان يعرف أن هاليشقى لا يرحب بدفع مبالغ كبيرة ، وكان يخلق سبباً للتملص من الدفع . وقد أنكر هاليشقى على حبشوش أى فضل ، لكن جلازر قد أنصف حبشوش ، وقام حبشوش نفسه بكتابة مذكرات نشرها لاستاذ جويتين في كتاب خاص^(١) .

ولم تقتصر رحلة هاليشقى على نقل النقوش بل وصف بعض الآثار القائمة التي آها^(٢) ، كما أضافت رحلته معلومات كثيرة عن حياة بعض القبائل داخل البلاد ، ذ أن هاليشقى زار مناطق في نجران لم يصل إليها أحد غيره حتى اليوم^(٣) .

إدوارد جلازر (Eduard Glaser) (١٨٨٢ - ١٨٩٢) :

تمتاز رحلات جلازر إلى اليمن بأنها حتى الآن أهم ما قام به العلماء في اليمن . عد جلازر نفسه لإعداداً تاماً لهذا العمل إذ كان تنبذاً في قينا للسشرق المشهور .. ه . مولر الذي ترجم إلى الألمانية الجزء الثامن من كتاب الإكليل وعلق عليه . وهو الذي رأى في الشاب المتحمس خير من يحقق آمال العلماء إذا سافر إلى بلاد العرب . كان جلازر في السابعة والعشرين من عمره عندما قام بأولى رحلاته إلى اليمن ، وكان قد سبقت له الإقامة قبل ذلك فترات قليلة في شمال إفريقيا والقاهرة

(١) S. D. Goitein, *Travels in Yemen, An account of Joseph Halévy's journey to Najran in the Year 1870 written in Sanaani Arabic by his guide Hayyim Habshush* (Jerusalem, 1941).

(٢) هذه هي أهم الأبحاث التي نشرها هاليشقى عن رحته .

Halévy (J) "Rapport sur une mission archéologique dans le Yemen, *Journal Asiatique*. vi, pp. 1 - 98 (Paris, 1872). J. Halévy, *Voyage au Nedjran*" *Bull. Soc. Géogr.* 6 Serie. Vol. VI, pp. 5-13, 249-273, 581-606, Vol XIII (1877) p. 466-79. J. Halévy "Itinéraire d'un voyage dans le Yémen" (1869-1870) *Bull. Soc. Géogr.*, Paris July 1877.

(٣) محمد الفاروق تلخيصاً لهذه الرحلة وذكر الأماكن التي زارها في كتابي

Ahmed Fakhry, *An Archaeological Journey to Yemen*, Vol. 1. (Cairo, 1952) p. 21-24.

تمكينه من اللغة العربية ، وقد قام بين أعوام ١٨٨٢ — ١٨٩٢ بأربع رحلات كبيرة ، كانت أهمها رحلته الثالثة في عام ١٨٨٨ ، وهي التي تمكن فيها من الوصول إلى مارب .

كانت رحلات جلازر كلها خيراً وبركة ، فقد كانت مذكراته الجغرافية فاتحة عهد جديد لمعرفة تلك البلاد ، وكان ينقل المكتبات التي على الأحجار ، ويشتري كل ما يقع عليه نظره من المخطوطات والآثار وغيرها ، كما درب بعض البدو لعمل « استمباج » أي طبع نقوش الأحجار على أوراق خاصة ، فتيسر له الحصول على مئات من النقوش الهامة دون أن يذهب بنفسه إلى تلك المناطق الخطرة البعيدة . وكانت رحلته إلى مارب في حماية عائلة الأشراف الذين يقيمون هناك ، وكانوا على صلة حسنة مع العثمانيين ، هي أم أعماله . وقد رأى جلازر - وهو يهودي مثل ما لبني - أن يدعى الإسلام ويلبس ملابس العلماء المسلمين ، ويسمى نفسه باسم الحاج حسين . ولكن صداقة جلازر للأتراك والأشراف لم تمنع عنه خطر معارضة قبيلة عبيدة في وجوده في مارب ، فاضطر للهرب ليلاً خوفاً على حياته . ولكن قبل أن يضطر جلازر لمغادرة مارب كان قد زار المنطقة بأكملها ، وقل أهم النقوش ووصف ما رآه هناك من آثار ، ووضع خريطة تفريعية للمنطقة ورسمها تفريعية للعباد التي رآها .

وما زالت نقوش ومذكرات جلازر غير كاملة النشر . وهي الآن - أو على الأقل بعضها - في معهد الدراسات الشرقية في فيينا - وقد كتب كثيرون عن حياة وأعمال جلازر ، ونجد بياناً بأهم نتائجها والمقالات التي نشرها في الملحق الخاص في بحث :

J. Werdecker, A contribution to the Geography and Cartography of North-west Yemen in Bull. Soc. Roy. de Geogr. D'Egypte T. XX (1939), pp. 1-169.

أما عن الوصف الكامل لرحلته إلى مارب فإنه لم ينشره في حياته ، بل قام بنشره بعد وفاته في مايو سنة ١٩٠٨ كل من : مولر ورودوكاناكيس

Müller & Rhodokanakis, Eduard Glasers Reise nach Marib, Vienna. 1913.

وكان ذلك في عام ١٩١٣ .

الأبحاث الأثرية في اليمن بعد استقلالها :

منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ازداد نشاط البعثات العلمية في بلاد الشرق المختلفة . ومنذ عام ١٩٢١ كانت هناك أبحاث في مصر وفي العراق ، وما لبثت هذه البعثات أن امتد نشاطها إلى الأناضول وسوريا وفلسطين ، رغم ما كان يسود هذه البلاد من اضطراب سياسي في ذلك الوقت . ولكن بلاد اليمن ظلت بعيدة عن هذا النشاط كله رغم معرفة العلماء لقيمتها وآثارها ، وكان ذلك راجعاً قبل كل شيء إلى إغلاق اليمن في وجوه كثير من الزائرين بعد أن حصل اليمن على استقلاله بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . وأول من قام بشيء من النشاط في البحث عن الآثار في تلك البلاد هما راتينس وويسمان - Carl Rathjens H. Von Wissmann اللذان قاما في عامي ١٩٣١ و ١٩٣٢ برحلات متعددة إلى الحبشة وحضرموت واليمن ، وكان لهما الفضل في القيام بأول حفائر في اليمن في منطقة النخلة الحرا وغيان وحقة على نفقة ولي عهد اليمن في ذلك الوقت . ولكن هذه الحفائر كانت غير منتظمة وعلى نطاق ضيق ، ولقى الباحثان كثيراً من الصعوبات ولم يستطيعا الاستمرار ، كذلك لم يتيسر لهما مطلقاً رغم إقامتهما مدة غير قصيرة في اليمن أن يزورا آثار مأرب أو الجوف ، إذ لم تسمح لهما السلطات بالسفر إلى شرقي أو شمالي صنعاء . وقد نشرتا نتائج أبحاثهما الجغرافية والأثرية في مؤلف من خيرة الكتب عن اليمن ، وهو كتاب في ثلاثة أجزاء خصصا منه الجزء الثاني للآثار .

Rathjens (c.) und Wissmann (H. von) Südarabien - Reise
Band, 2 Vorislamische Altertümer, Hamburg, 1934.

نزيه مؤيد العظم — ١٩٣٦ :

وكان أول من تيسر له زيارة مأرب هو الصحفي السوري نزيه مؤيد العظم ، الذي اتصل باليمن منذ عام ١٩٢٦ ، ولكنه لم يحصل على تصريح بالسفر إلى مأرب إلا في عام ١٩٣٦ . وبالرغم من أن وصف الأستاذ العظم للآثار أقل مما ينتظره

الآثريون ، إلا أنه كان لما حصل عليه من معلومات ، نشرها في كتابه عن تلك الرحلة ، قيمتها وأهميتها لدى الباحثين ، واستحق الشكر بوجه عام . وكتابه اسمه «رحلة في بلاد العربية السعيدة» من مصر إلى صنعاء - في جزئين - القاهرة ١٩٣٨ .

بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن — ١٩٣٦ :

وفي الوقت نفسه كانت هناك بعثة علمية أوفدتها جامعة القاهرة إلى جنوب الجزيرة العربية تحت رئاسة الدكتور سليمان حزين ، وكانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية ، وكذلك دراسة النقوش السبئية وغيرها . وكان نشاط البعثة في عدن وفي حضرموت وفي اليمن أيضاً ، ولكن لم يسمح لها بالبحث عن الآثار إلا حول بلدة ناعط ، وقد نشر الدكتور حزين بعض ملاحظاته في مجلة :

Nature, Vol. CXI, pp. 513., 1937.

ولكن النقوش التي رآها الدكتور خليل يحيى نائى عضو البعثة ، كانت موضوع رسالة خاصة اسمها : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها — القاهرة ١٩٤٣ .

محمد توفيق — ١٩٤٥ :

وهناك مصرى آخر اقترن اسمه بتاريخ البحث عن آثار جنوب الجزيرة العربية، وهو الأستاذ محمد توفيق، الذى كان عضواً في بعثة الجامعة المصرية عام ١٩٣٦، وتيسر له أن يعود مرتين بمفرده إلى اليمن فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ لأجل دراسة هجرات الجراد فى الجزيرة العربية . وقد صرحت له حكومة اليمن بزيارة آثار الجوف ، ونقل لحسن الحظ كثيراً من النقوش وأخذ لها صوراً فوتوغرافية ، وقد أخذ منذ بضع سنوات بنشر نتائج رحلته ، وكان أول أبحاثه عن معين :

«آثار معين فى جوف اليمن ، واسم الكتاب بالفرنسية Les Monuments de Ma'in, Yemen وقد ظهر منه جزءان أحدهما فى عام ١٩٥١ والثانى فى عام ١٩٥٢

رحلتي إلى اليمن - ١٩٤٧ :

منذ أن زار هالييفي جنوبي الجزيرة العربية في عام ١٨٦٩ لم يتمكن رحالة آخر من زيارة جميع البلاد التي زارها وبخاصة مأرب والجوف معا . فقد تمكن جلازر من زيارة مأرب وكذلك فعل نزيه العظم ، ولم يتمكن محمد توفيق إلا من زيارة الجوف ، ولهذا ظل هالييفي حتى الآن صاحب الفضل في زيارة أكثر المناطق في بلاد المشرق . وبالرغم من أنني زرت مناطق صرواح ومأرب وما حولها ، وكذلك جميع مراكز الحضارة المعينية في الجوف ، فإنني لم أزر بلاد نجران كما فعل هالييفي .

والنتائج العلمية لرحلتي إلى بلاد اليمن تتلخص في العثور على نحو ١٢٠ نقشاً جديداً لم تكن معروفة من قبل ، وأخذ مجموعة من الصور الفوتوغرافية لكل ما رأيته من آثار ، وكانت أول صور فوتوغرافية واقية تنشر عن سد مأرب والمعابد المختلفة ، كما نقلت أيضاً جميع النقوش التي وقعت عليها عيناي ونشرت هذه النتائج في بضع مقالات علمية ، وفي كتاب اسمه :

An Archaeological Journey to Yemen (Cairo, 1952).

وهو في ثلاثة أجزاء ، اقتصر ثانيهما على النقوش التي فحصها وترجمها الأستاذ ج . ريكانز .

بعثة وندل فيليبس إلى اليمن - ١٩٥٢ :

وفي عام ١٩٥٢ حصل الأمريكي وندل فيليبس Wendell Phillips على تصريح من حكومة اليمن بالحفر في منطقة مأرب بعد أن حفر في الموسمين السابقين في بلاد بيجان في حضرموت .

كانت بعثة فيليبس لسوء الحظ غير موفقة في صلتها باليمنيين وسرعان ما دب الخلاف بين رجالها وبين المسؤولين في اليمن ، فلم تتمكن البعثة من إتمام حفر الساحة الأمامية لمعبد محرم بلقيس على مقربة من مأرب ، ولكن الأسابيع القليلة

التي قضتها تلك البعثة هناك كانت كفيلة بإظهار كثير من المباني والنقوش الجديدة ، وإظهار مدى النجاح الذي ينتظر أى بعثة علمية تقوم بالحفر في هذه المناطق البكر . ومن المحزن أن يحدث ذلك من أول بعثة تصرح لها حكومة اليمن بالبحث عن الآثار وأن يترتب عليه حدوث ما كان يخشاه الآثريون ، وهو أن ما اقرفه أعضاء البعثة الأمريكية وما ملأوا به صحافة العالم من مهاجمة اليمن وحكومته جعل اليمنيين يقفلون الأبواب من جديد أمام البعثات العلمية الأجنبية . وقد ظهر عن تلك الحفائر بعض المقالات في الصحف وكتابان أحدهما للقارىء العادى لوندل فيلبس ، والثانى تقرير علمى واف عن الحفائر (١) .

بعثة جامعة الدول العربية :

تصادف وجود بعثة لجامعة الدول العربية في صنعاء في ذلك الوقت لتصوير المخطوطات العربية النادرة في بلاد اليمن ، يرأسها الدكتور خليل يحيى نامى الاختصاصى المصرى فى النقوش اليمنية ، والاستاذ بجامعة القاهرة ، فطلبت منه حكومة اليمن أن يكون ضمن أعضاء لجنة لفحص ما تركه الأمريكيون ، وتقديم تقرير عما قاموا به من حفائر ، فتيسر للدكتور نامى أن يزور المنطقة ، وأخذ لها كثيراً من الصور الفوتوغرافية ، وكان ذلك في شهر مارس سنة ١٩٥٢ .

في اليمن مرة أخرى :

كانت أول زيارتى لليمن في عام ١٩٤٧ ، وزرتها مرة ثانية في عام ١٩٤٨ ، ومرة ثالثة في شهر مايو عام ١٩٥٩ ، وفي هذه الزيارة الأخيرة ذهبت إلى مأرب وزرت ما فيها من آثار ، ورأيت في مخزن بدار الحكومة آثاراً كثيرة لم أرها في زيارتى الأولى ، جاء بعضها من أعمال التخريب المستمرة ، إذ ما زال موظفو الحكومة يحطمون تلك الآثار ، وجاء البعض الآخر من حفائر البعثة الأمريكية في عام ١٩٥١ .

Wendell Phillips *Qataban and Sheba* (London, 1955).

(١)

Richard Le Baron Bowen Jr and Frank P Albright and Others.
Archaeological Discoveries in South Arabia, Ballimore, 1958.

واستطعت في هذه المرة نقل نقوش أخرى لم تسكن معروفة من قبل ، كما نكن
لى الحظ فى الوصول إلى موقع معبد فى منطقة تسمى بالمساجد ، وهو معبد كبير
فى حالة لا بأس بها ومشيده هو « يدع ليل ذريح ، مشيد معبد صرواح ومعبد
مأرب . وبالرغم من أن اسم هذه المنطقة الأثرية كان معروفا لنا من روايات البدو
فإنه ظل أشبه بأسطورة ، ولم يسبق لأحد من الأثريين زيارته أو أخذ صور
فوتوغرافية له (١) .

أهم المناطق الأثرية فى صرواح ومأرب :

الين ملأى بالمناطق الأثرية المختلفة ، ولا تكاد تخلو جهة فيها من بقايا
الحضارات القديمة . وقد تمكن بعض من زاروا الين من ذكر بعضها ووصفه
وصفا سطحيا مختصرا ، ولا شك أن عشرات منها ، لم تذكر حتى الآن فى أى مؤلف
على . وسأقتصر هنا على الإشارة إلى أهمها ، وبالأخص ما تمكنت من زيارته
بنفسى ، وأبدأ بوصف منطقة صرواح ، التى تقع على مسيرة ثلاثة أيام ونصف
بالدواب إلى الشرق الشمالى من مدينة صنعاء .

صرواح :

يكاد يكون وادى صرواح مستديراً ، وهو محاط بالجبال من كل ناحية ،
وكان له فى العصور القديمة سد لتخزين مياه الأمطار . أما اليوم فإن سكانه الذين
لا يتجاوزون أربعمئة شخصاً يعتمدون على مياه الآبار ، ومكان السد القديم يعرف
الآن باسم « البناء » وعليه بعض الكتابات القديمة . وتوجد المناطق الأثرية فى
صرواح فى ثلاثة مناطق متقاربة واحدة منها هى منطقة البناء التى أشرت إليها ،
والثانية هى المنطقة المسماة الفصر ، وهى قرية حديثة البناء استخدموا فى تشييد

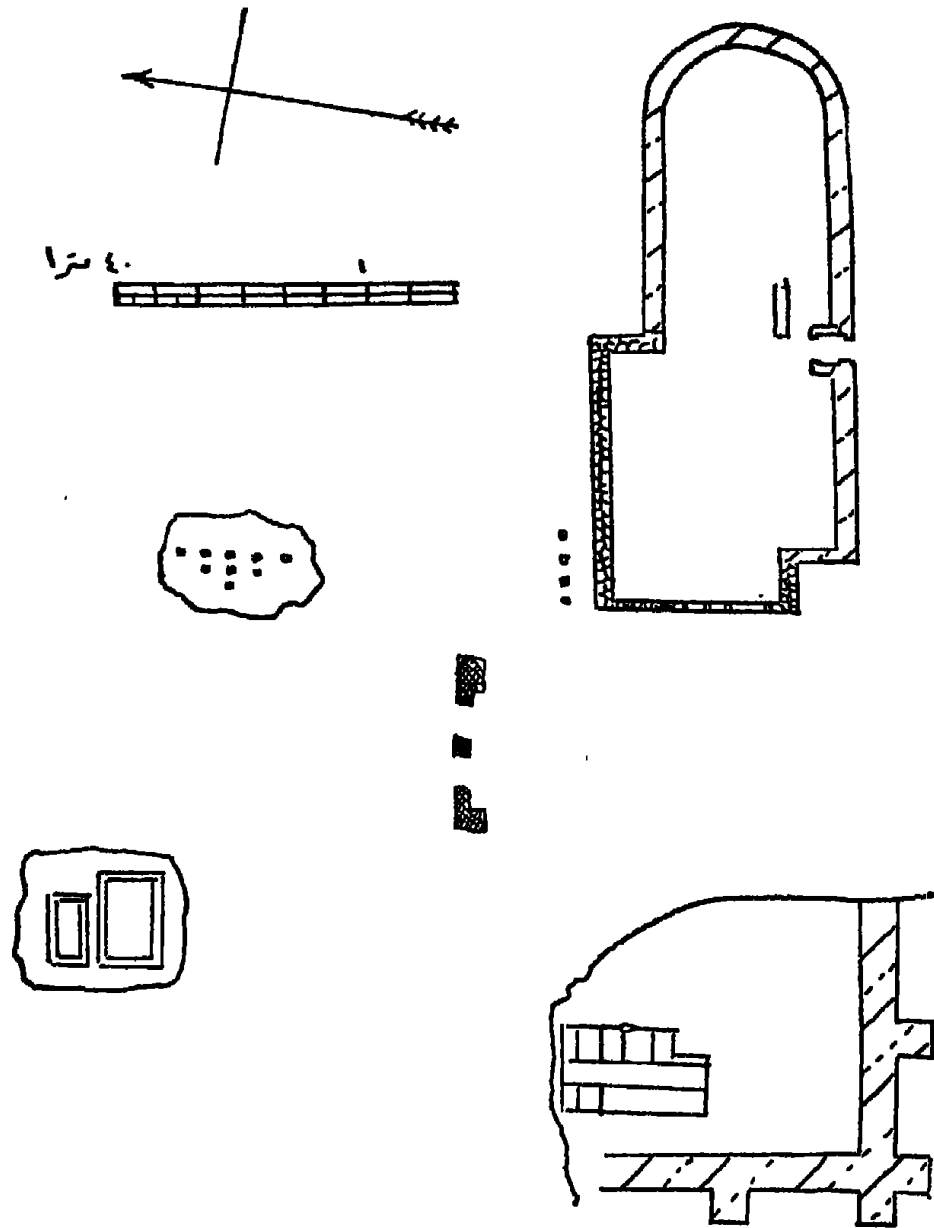
(١) ن أفسر عن هذا المعبد إلا بحثاً مختصراً ألقيته فى المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية
المنعقد فى مدينة قاس فى المدة من ٨ — ١٨ نوفمبر ١٩٥٩ ، وهو منشور فى كتاب المؤتمر تحت
عنوان : أحدث الاكتشافات الأثرية فى اليمن : معبد المساجد ببلاد صراد (القاهرة ١٩٦١) .

بعض منازلها أحجاراً من المعابد ، أما الآثار القائمة المهمة فهي في المنطقة المسماة بالخرابية .

كانت صرواح عاصمة مكرني « سبأ » قبل مدينة مأرب ، وظلت قروناً طويلة مدينة ذات أهمية ، وعنى كثير من ملوك سبأ بتشبيد المعابد الهامة فيها . وكثيراً ما تردد اسم صرواح في أشعار العرب ، قال عنها أبو محمد الحسن الحمداًني ، الذي عاش في القرن العاشر الميلادي ، في كتابه الإكليل إنه لا يقاس بصرواح شيء من المحافد المختلفة ، وجمع الكثير من الأشعار التي ورد فيها اسمها ، وبخاصة أشعار طلحة بن دى جدن وعامر بن أحمد بن يزيد القيسي وغيرهما من شعراء خولان .

ويسكن قريتي وادي صرواح قوم من « القرار » يعيشون في القصر وفي الخريبة ، فأما الذين في القصر فقد شيّدوا لهم قرية أحاطوها بسور ، وأما سكان الخريبة ، فهم يعيشون داخل المعبد القديم ، وأقاموا لأنفسهم في داخله بعض منازل صغيرة أخذوا أحجارها من المعبد . وأكثر آثار صرواح في هذه المنطقة التي يبلغ مسطحها نحو ٢٦٠ × ٢٤٠ متراً ، وهي مشيدة فوق مكان مرتفع في الوادي الفسيح ، ويبلغ ارتفاعه في المتوسط نحو ثمانية أمتار ، ولكن ارتفاع الصخر في أحد الأركان لا يقل عن ١٨ متراً . وأينما اتجه الإنسان يرى بقايا المعابد ذات الأعمدة الجرانيتية ، وبعض تلك المعابد ، مثل دار بلقيس ، ما زال سليماً ويحتفظ بسقفه الحجري ، ولا يحتاج إلا إلى رفع ما تكس من أتربة فوق بابه . ليصل الإنسان إلى داخله . كما نرى أيضاً معابد أخرى مختلفة نقشت بعض أعمدتها بالكتابات . ولكن أهم تلك الآثار جميعاً هو المعبد الكبير ، وهو معبد إله القمر « الموقاه » الذي استدارت إحدى ناحيتيه فجعلت منه بناء نصف بيضى الشكل .

ولا يمكن معرفة التصميم الأصلي للبناء الذي يبلغ ارتفاع جدرانه أكثر من ١٠ أمتار إلا بعد عمل الحفائر حوله وتنظيف داخله ، لأنه قد استخدم خلال



رسم تقريبي لأهم الآثار الظاهرة فوق سطح الأرض في خربة صرواح

قرون طويلة كحصن في العصور الوسطى ، وفتحوا فيه بعض المداخل ، كما سدوا بعض أبوابه القديمة ، واستخدموا كثيراً من الأحجار المكتوبة في تلك الترميمات .

أهم النقوش في صرواح :

وهناك نقوش كثيرة مبعثرة في كل مكان . صورتها جميعاً ، وقلت ما عليها من كتابات ، وهي تمدنا بالكثير من المعلومات عن تلك المدينة القديمة ، وأجدرها بالذكر تلك النقوش الطويلة التي على الجدار الخارجى للمعبد ، ويبلغ طول أحدها ١٢,٥٥ متراً وارتفاع السطر ٢٦ سم ، وهو يذكر اسم « يدع - ليل - ذريح » ابن « سيمو على » مكرب سبأ الذى بنى هذا الجدار . ولا يقتصر على ذكر الإله « الموقاه » فقط بل يذكر أيضاً الإله عشتار والإلهة ذات حميم^(١) ، ويكُونون معاً ثالوث المدينة القديمة ، وعلى رأسهم الإله الموقاه ، وربما كان معناه « ايل قوى »^(٢) ، أى الله قوى . ويرمز به للقمر ، كما كان الإلهان الآخريان يرمرزان لنجم الزهراء وللشمس .

و « يدع ليل ذريح » بن « سيمو على » هو ثانى مكرب معروف في مملكة سبأ ، وعاش في القرن الثامن قبل الميلاد ، وعلى ذلك يكون هذا المعبد هو أقدم المعابد السبائية الكبيرة التي ظلت قائمة حتى اليوم .

(١) في انديانة البابلية وغيرها من الديانات التي تأثرت بها نعرف أن عشتار كانت إلهة ولكن السبائيين القدماء كانوا يعبدون عشتار على أنه إله ذكر ويرمزون به لنجم الزهراء . أما الإلهة ذات حميم فهي إحدى مظاهر الشمس وكانوا يعبدونها ولم تكن عبادة عشتار قاصرة على السبائيين بل كانت منتشرة أيضاً بين المينيين والقتبانين .

(٢) هناك آراء كثيرة عن تفسير معنى الموقاه ولكن الرأى الأرجح هو التفسير الذى قدمه العالم اللغوى جام فى بحثه :

A. Jamme, "Le Pantheon Soud-Arabe Préislamique" Le Museon, T. LX, p. 26.

نقش النصر :

وأهم نقوش صرواح هو دون شك ذلك النقش الذى يغطى وجهى جدار مشيد من المرمر قائم فى بهو المعبد ، ويعد من أهم مصادر التاريخ البنى القديم ، وذلك منذ أن رآه أرنو ، وحصل جلازر على طبقات على الورق من نقوشه . وقد ترجم هذا النقش ودرس مرات عديدة ، ومن الأسف أن كثيراً من الأجزاء التى كانت سليمة فى أيام جلازر ، أى قبل زيارتى بستين سنة ، قد أصابها التلف الآن ، ويعلم الله ماذا حدث لهذا النقش بعد زيارتى فى عام ١٩٤٧ ، لأن أحد جانبيه داخل حظيرة اللواشى ، والجانب الآخر فى وسط المكان ومعرض لعبك الناس .

وأهم دراسة عن هذا النقش هى دراسة رودوكاناكيس التى نشرها منذ وقت بعيد^(١) ، وصاحب هذا النقش هو د كريب - إيل - وتار ، الذى خلف د يشع - أمر - بين ، بانى الجزء الجنوبي من سد مأزب عندما كان مكرباً لسبأ ، والذى قام بفتوحات كثيرة فى البلاد المجاورة . يذكر د كريب - إيل - وتار ، ما قام بعمله لأجل مدينته وآلهتها ، ويشير إلى مشروعات الرى المختلفة ، ويذكر أسماء خزانات المياه والجسور والقنوات التى أمر بإنشائها ، وبطيل فى ذكر البلاد التى فتحها ودمرها ، ويذكر أنه فى حربه ضد أوزان قتل ١٦,٠٠٠ من أعدائه وأسر ٤٠,٠٠٠ ، ويقول إنه استمر فى فتوحه حتى وصل إلى البحر ودانت أوزان وملكها د مارتو ، لسلطانه .

(١) Nikolaus Rhodokanakis, *Altsabaische Texte*, I, p. 19 ff.

وقد عني بدراسة المدن المختلفة التى وردت فى ذلك النص كل من هومل Hommel وجلازر Glaser ثم جرومان Grohmann فى بحثه *Historische Geographische Bemerkungen* Zu Gl. 418/419, 1000 A. B. in *Altsabaische Texte*, I, pp. 110-144.

وأحدث دراسة عن جغرافية بلاد اليمن فى العصور القديمة هو البحث الذى نشره ويسمان وماريا هفتر وظهر فى عام ١٩٥٢ .

Hermann von Vissmann - Maria Höfner, *Beitrage zur historischen Geographie des vorislamischen Südarabien* (Abh. d. Sozial. Klasse, 1952)

وكان السبب في ذلك الحرب أن قتبان وحضرموت كانتا حليفيتين لسبأ ، فتقدم ملك أوزان فاستولى عليهما ، فرأى دكريب - لایل - وتار ، نفسه مضطراً المناصرة حلفائه . وبعد أن تم له إخضاع الجنوب ، اتجه ببصره نحو مدن المعينيين فأخضعها واحدة بعد أخرى ، وقبل ملوكها دفع الجزية له ، وأن يكونوا من تابعيه ، وتحققت النبوءة القديمة التي تنص على أن مدينة ناشان (خريبة السوداء) سيحتلها السبأيون ، وأنه سيقوم فيها معبد للإله الموقاه . ويشير في آخر هذا النقش إلى حملته على نجران . وعلى الوجه الآخر للجدار بيان بأعمال التحصينات التي قام بها هذا الملك لجعل مدن مملكته قوية منيعة ، ويذكر ممتلكات الملوك الذين دأبوا لاطاعته ، كما يذكر أيضاً خزانات المياه التي أصلحها أو شيدها وحدائق النخيل التي غرسها .

وإذا أحصينا عدد القتلى الذين ذكرهم دكريب - لایل - وتار ، نجدهم يزيدون على ٣٠,٠٠٠ شخصاً من أعدائه ، وهذا غير من قتلوا من رجاله ، كما نرى أيضاً أن عدد الأسرى الذين استخدمهم بعد ذلك في تشييد مبانيه أو في زرع الأراضي المملوكة له أو للمعابد لا يقل عن ٧٣,٠٠٠ ، ولم يهتم هذا الملك بذكر ما استولى عليه من الحيوانات ، اللهم إلا مرتين إذ أخذ عند استيلائه على مدينة معين ١٥٠,٠٠٠ رأساً من الماشية واستولى من نجران على ٢٠٠,٠٠٠ رأساً .

كانت حروب هذا الملك فاتحة عهد جديد في تاريخ اليمن القديم ، وأصبح مكرب سبأ . الذي كانت عاصمته في صرواح ، ملكاً على اليمن بكاملها بما في ذلك حضرموت ونجران ، وما يسمى الآن بالمحميات ، واستمر ذلك الملك الواسع الكبير لسبأ مدى قرون عديدة .

ومن سخرية الزمن أن هذا النقش الهام الذي اتفق العلماء على تسميته بنقش النصر يستخدمه أبناء اليمن الحاليون كجدار لزربية مواشى تطلقه الأوساخ من ناحية ، ويحطمه الأطفال من ناحية أخرى .

وعلى أحد الأعمدة التي كانت أمام المدخل القديم للمعبد نفسه ، نرى نقشاً هاماً آخر للملك يدعى ديكرب - ملك - وتار ، بن ديدع - لایل - بين ، الذي عاش

في القرن السادس قبل الميلاد ، وترك عليه مرسوماً بتنظيم البلاد والضرائب ، وتحدث فيه عن طبقات السكان في بلاد سبأ في ذلك العهد البعيد^(١) .

ومن بين النقوش التي عثرت عليها في صرواح ذلك النقش الذي على مدخل المعبد المسمى دار بلقيس ، وهو يذكر اسمي ملكين هما « نشا كريب يهمين يهر حب » و « يازيل - بين » اللذين حكما في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، يذكران فيه ما منحاه من حقوق ، وما قاما بعمله لبعض القبائل والعائلات :

ومن بين النقوش التي اكتشفتها أيضا ذلك النقش الذي يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد أقامه الملك « نشا كريب يهمين » من أكثر الملوك السبأيين نشاطا في إقامة المباني ، ويسجل في هذا النقش تقديمه لستة تماثيل من الذهب للإله الموقاه « سيد وعول صرواح » .

آثار مدينة مأرب

مدينة مأرب :

في سهل متسع فسيح ، تقوم بلدة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أثرى كبير هو خرائب المدينة القديمة ذات الشهرة الذائعة في التاريخ . وأينما سار الإنسان في تلك الخرائب يرى أحجاراً عليها كتابات ، ويرى بقايا التماثيل ، وجدراناً قائمة مشيدة بالحجر ، ولكن أهم من هذا وذاك ، فإنه كثيرا ما يمر بأعمدة قائمة في أماكنها ، غطت التربة أكثرها ، ولم يبق ظاهراً منها إلا أجزاءها

(١) كتب رودوكاناكيس بحثاً قيمياً عن الحياة العامة في ممالك بلاد العرب الجنوبية اعتمد فيه على هذا النقش وعلى نقوش أخرى مماثلة له وذلك في كتابه يلسن عن آثار بلاد العرب في المصور القديمة .

N. Rhodokanakis, " Das offentlische Leben in den alten Sudarabischen Staaten".

وقد ظهرت الترجمة العربية لهذا الكتاب في عام ١٩٥٨ (ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على) بعنوان « التاريخ العربي القديم » والفصل الخامس بالحياة العامة من ص ١١٣ — ١٤٩

العليا . وكثيراً ما وقفت في عام ١٩٤٧ إلى جوار تلك الأعمدة المتناثرة ، أعجب بهندستها ، وأقارن بينها وبين غيرها من أعمدة الحضارات القديمة الأخرى ، وكثيراً ما أمسكت بيدي في السنوات التالية بعض الصور الفوتوغرافية لتلك الخرائب والأعمدة ، وأخذ الفكر يسبح في بعيداً ، أحاول أن أصور لنفسى ما عساه أن يكون تحت تلك الاتربة من حجرات ، وما على جدرانها من زخارف أو نقوش ، إن كان هناك شيء من ذلك ، وما عساه أن يكون في تلك الحجرات والآباء من تماثيل أو غيرها .

يتجول الزائر في خرائب المدينة القديمة ، ويستطيع أن يرى مكان السوق القديم ، ويستطيع أيضاً أن يفحص صف الأعمدة الجرانيتية المربعة التي سدوا ما بينها وجعلوا منها جداراً في المسجد المعروف باسم مسجد سليمان ، كما يستطيع الزائر أيضاً أن يسير إلى جانب أسوار المدينة القديمة التي كانت مشيدة من الحجر . وقد قام أرنو بعمل رسم تخطيطي للمدينة القديمة^(١) ، وذكر أنها مستديرة وأن بها ثمانية أبواب ، فباب العقير في السور الغربي ، وباب الحد في الجهة نفسها ، ولكنه على مقربة من الركن الجنوبي الغربي . وفي السور الشمالي يوجد باب النصر وباب الكار ، كما يذكر أيضاً باب المحرم وباب الدب وباب القبلة وباب الجنة . ولكن السيول جرفت جزءاً كبيراً من الخرائب ، وجرفت معها جزءاً كبيراً من الجدارين الجنوبي والشرقي . ولكن وصف أرنو يحتاج إلى شيء من التعديل ، فليست مدينة مأرب القديمة مدينة دائرية كما رسمها ، بل هي مدينة مستطيلة (تقريباً ٧٠٠ متر من الشمال إلى الجنوب و ١٥٠٠ من الشرق إلى الغرب) وأركانها مستديرة . وربما لم يكن في أسوارها إلا أربعة أبواب فقط ، بوابة في وسط كل سور . ولكن هناك أماكن كثيرة مكسورة في الجدران ، اعتبرها أرنو أبواباً وسماها بالأسماء التي كان يطلقها عليها الأهالي في أيامه . أما الباب الرئيس للمدينة ، فإني أعتقد أنه كان في السور الغربي ، وهو الذي يسمى الآن باب المدينة ، وما زالت بقايا موجودة ، وعلى كل من جانبيه آثار برج من الحجر . وفي السور البحري

باب آخر ، وهو الذى يستخدمه أهالى مأرب عند الخروج لدفن موتاهم فى الجبانة الواقعة فى الناحية البحرية من الخرائب ، ولهذا سموه باسمها أى باب المجنة .

وبالرغم مما حل بهذه الآثار من تخريب كبير منذ عام ١٩٤٥ ، وهدم معابدها ومنازلها لأخذ أحجارها ، فما زال الكثير منها باقياً . واسكن من الحزن أن المبنى المعروف باسم الميدان كان من بين المباني التى خربها عامل مأرب ، وهو المبنى الذى اعتقد جلازر أنه مكان قصر سلحين الذى تردد ذكره وأوصافه فى الجزء الثامن من الإكليل لأبى الحسن الهمداني . وقد خرج من هذا المبنى كثير من الآثار ، وسرق ما سرق منها ، وضاع ما ضاع ، ولم يبق إلا بعض أحجار كبيرة عليها كتابات مختلفة توضح لنا ما قام بعمله بعض الملوك وما أغدقوه على المعابد وعلى آلهتها من هبات ، وما قاموا بعمله من قنوات وسدود وغيرها .

ولم نعرف من النقوش التى تم الكشف عنها حتى الآن فى مدينة مأرب اسم الملك الذى أسسها . ومن المحتمل جداً أن تكون بعض أجزاء السور الحالى هى من السور القديم الذى بناه د مكربو سبأ ، القدماء . ونعرف من نقوش كثيرة أن أحد أولئك المكربين وهو ابن د سموه على ينوف ، بنى حائطاً حول مأرب وذلك بناء على أمر ومعونة الإله عشتار^(١) ، ونعرف أيضاً من النقش الشهير باسم جلازر ٤١٨/٤١٩ أن د كريب - إيل - وتار ، (القرن السابع قبل الميلاد) أضاف بعض الأجزاء على سور مأرب وأنه بنى بوابتين وبعض الأبراج^(٢) .

(١) نقوش جلازر أرقام ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٥ ، ٥٠٠ ، ٥١٠ ، ٥٣٧ ، ٥٨٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٧٥١ .

(٢) مازال ملقى فى الخرائب ، غير بعيد من استراحة الحكومة وقد حاولوا أخيراً قطعه إلى أجزاء صغيرة ، وهو من حجر المرمر ويبلغ طوله ٢٤٧ سم وارتفاع الناحية المكتوبة ٥١ سم وعرض الحجر ٤٤ وعليه ذكر حروب الملك كريب - إيل - وتار — انظر صورة هذا الحجر الفوتوغرافية فى كتابي .

An Archaeological Journey to Yemen, Vol. III, pl. XLIV, A
أما نقوشه فقد سبق أن نشرها جلازر وهى منشورة أيضاً من نسختي الخاصة فى كتابي المذكور الجزء الأول ص — ٩٧ . والترجمة الكاملة لهذا النص فى كتاب :

Rhodokanakis, *Olsabaische Texte I, p. 6 ff.*

وإذا كنا مازلنا نجمل حتى الآن اسم أول من بنى تلك المدينة ، فإن المعقول جداً أنها كانت مدينة مستقلة قائمة بنفسها ، ولها أهميتها ولها حاكمها قبل أن يستول عليها حكام صرواح ويجعلوا منها عاصمة للملكهم . ويقول نسابو العرب أن « سبأ » بن « يشجب » هو الذى شيد مدينة مأرب ، وقد ردد ذلك كل من ياقوت فى كتابه المسمى المشترك ، وأبو الفدا فى تاريخه ، وقد جمع ذلك كريم فى كتابه عن القصص اليمنى :

Kfemer, Über die Sudarabische Sage, p. 26, ff.

وزيد على ذلك صاحب كتاب الإكليل فيذكر أنه كان بمأرب ثلاث قصور وهى « سلحين والحجر والقشيب » ، وهم تلك القصور الحصينة وأشهرها هو قصر سلحين الذى تردد اسمه كثيراً فى كتب الأدب العربى على أنه قصر الملكة بلقيس ، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة ، وقالوا بأنها هى التى كانت تحمل العرش ، بل وذكروا أيضاً أن ارتفاع تلك الأعمدة التى ما زالت قائمة فى مأرب هى تسعة وعشرون ذراعاً ، وأن قواعدهما تحت الأرض مثل ارتفاعها فوقها

Sprenger, Post and Reiserouten, p. 10; Encyclopaedia of Islam, III, p. 282.

ولكن من الصعب تحديد مكان قصر بلقيس اعتماداً على أقوال الشعراء ، أو ما جاء فى مبالغات كتاب العرب . فأهل اليمن يطلقون اسم بلقيس على كثير من المعابد فى صرواح ، كما رأينا ، ويطلقون اسم بلقيس أيضاً على معبد يبعد عن خرائب مدينة مأرب وهو المعبد الشهير المعروف باسم محرم بلقيس ، بل أن اسم بلقيس كان يطلق أيضاً على آثار أخرى بعيدة عن منطقة أرض سبأ مثل ما جاء فى معجم ياقوت من أن عرش بلقيس اسم لمكان على مسيرة يوم من ذمار حيث تقوم فيه ستة أعمدة من الرخام . ومن المرجح أن ذلك يشير إلى أحد المعابد التى كانت فى مدينة ظفار عاصمة الحميريين ، وهى من أهم مناطق اليمن الأثرية ، وكثيراً ما يعثر أهل مأرب على آثار صغيرة فى الخرائب ، وبخاصة عند ما يخرجون بعد سقوط الأمطار أو مرور السيول ، وهم يبيعون تلك الأشياء فى صنعاء ومن بينها كثير من أنواع الخرز المختلفة ، وقطع من المعدن ، والكثير من التماثيل ، وعلى بعضها كتابات أو رسوم قديمة .

ولا تقتصر الآثار على تلك الأشياء صغيرة الحجم ، بل يجدون كثيراً من رؤوس التماثيل ، وبعضها بالحجم الطبيعي ، والبعض الآخر أكبر أو أصغر قليلاً (يتراوح ارتفاعها بين ١٥ ، ٣٥ سم) ، وهي تقتصر على الرأس والرقبة ، وكانت توضع غالباً في ناووس صغير قائم . وعثر في تلك الخرائب أيضاً على تماثيل من البرونز وعلى بعض اللوحات المزخرفة المنقوشة ، كما عثر في بعض أجزاء المنطقة ، والأرجح أنها من خارج السور ، على بعض توابيت حجرية ، رأى جلازر واحداً منها كان الأهالي يستخدمونه عند بير عبيدة لتستقي منه الحيوانات^(١) ، وقد رأيت أجزاء من توابيت أخرى في أماكن مختلفة ، كما رأيت تابوتاً حجرياً إلى جانب البئر الكبير في صرواح^(٢) ، وهذا يثبت استخدام قدماء السبأيين لتوابيت الحجر في دفن موتاهم . وربما لم يكن خارجاً عن الموضوع إذا تساءلنا عما إذا كان يوجد تأثير من أحد الفنون القديمة على الفن السبأى القديم . والجواب على ذلك يحتاج إلى كثير من البحث والمناقشة . ولكن يكفي القول بأن هناك تأثيرات لا شك فيها من حضارة بلاد الرافدين ، وبخاصة الفن الآشوري في العصور المبكرة ، وبالفن السوربي والهلينسي في العصور المتأخرة ، كما أن هناك تأثيرات واضحة من الفن المصري ، وبخاصة في التماثيل وزخارف بعض النصب ، ويرجع ذلك دون شك إلى ما كان هناك من صلات بين اليمن وبين تلك الحضارات .

وكثيراً ما يتساءل البعض عن مكان الجبانات القديمة لملوك سبأ ، والأغنياء من رعاياهم ، وعلينا أن ننتظر حتى نحفر تلك المناطق التي لم يكديمها أحد . وإنني أقول فقط ؛ إنه على مقربة من سد مأرب ، أى على مسافة تقرب من خمسة كيلو مترات أو ستة من أسوار المدينة قطعت السيول جانباً من الأرض فكشفت عن بعض المقابر ، ويقول الأهالي إنهم كانوا يجدون فيها الموتى ، وكلهم من التجار ومعهم بضائعهم ، ولهذا أطلقوا عليها اسم قبور البياعين .

(١) Rhodokanakis, *Eduard Glasers Reise nach Marib*, p. 74

(٢) Ahmed Fakhry, *An archaeological Journey to Yemen*, I, p. 51.

وتكشف لنا هذه التسمية عما آلت إليه المنطقة من فقر وتدهور ، إذ لم يستطع الأهالي الفقراء أن يتصوروا أن شخصا عاديا يمكن أن يدفن معه تلك الأشياء المختلفة الأنواع التي يمتلكها ، ولهذا ظنوا أن كل واحد منهم كان تاجرا ، وأن هذه الأشياء كانت سلعا تجارية .

ولم يتصل بي أحد من الأهالي في مأرب ليعرض بيع أى نوع من الآثار ، ولكن تجاراً متجولين كثيرين يرون دائما على الأ جانب في صنعاء ويعرضون عليهم كثيراً من القطع الأثرية الصغيرة الحجم . ومن الغريب أن بعض أهالي صنعاء ، وبخاصة من صناع عائلة حبشوش ، أخذوا يقلدون الآثار اليمنية ويبيعونها منذ أكثر من سبعين سنة . ولم أشتري في صنعاء أى آثار حقيقية أو مقلدة ، اللهم إلا بضعة تماثيل صغيرة بعضها يبنى قديم وبعضها مصرى الأصل ، ومن بينها آثار مصرية من تقليد الفينيقيين ، وأقدمها تاريخا جعران باسم الملك أمنحوتب الثالث ، وهو لا يدل ، كما ذكرت ذلك عند حديثي عن اليمن وصلاتها بالحضارات القديمة ، على شيء أكثر من وجود الصلة التجارية بين البلدين في ذلك العهد البعيد ، وهو أمر مسلم به .

محرم بلقيس والمناطق الأثرية الأخرى :

كان سد مأرب يروى ذلك السهل الفسيح وما كان فيه من حدائق وحقول ، وكانت هناك قناتان كبيرتان تخرجان من السد ، إحداهما في الناحية الشمالية والأخرى في الناحية الجنوبية (انظر رسم السد ووصفه) ، وكانت مدينة مأرب التي وصفناها ، وما حولها من حدائق ، وهي أهم المناطق وأعظمها هي المقصودة بالجنة التي كانت على اليسار . ونرى في السهل الفسيح الذي يقع بينها وبين السد آثار القنوات التي تتفرع في كل اتجاه ، وأثر القناطر التي كانت عليها . أما الجنة الأخرى التي كانت على يمين الواقف أمام السد فكانت تروى منطقة أخرى كبيرة قامت فيها عدة قرى وفي بعضها آثار هامة . وأكثر تلك المدن قد غطته الرمال أو غطت جزءاً

كبيراً منه ، وزاها كلها فى الناحية الجنوبية من وادى ذنة ، وهى السائلة التى ما زالت تجرى فيها مياه السيول حتى الآن ، وتمر تحت مدينة مأرب فى الناحية الجنوبية. ويمكننا أن نذكر من بين تلك الخرائب الحزمة وحصن الناصر ، وجشوه ، والمكراب ، والمنين ، ومروث ، ومدينة النحاس والرجيمات ، والهايد ، وكثيراً غيرها ^(١) . وعلى مقربة من مدينة مأرب ، توجد بقايا فتحة لتنظيم تصريف المياه التى كانت تسير فى القناة اليمنى ، وما زالت بقايا جداريها المشيدين بالحجر ترى حتى الآن فى الجهة الجنوبية من المدينة ، وهى أمام الباب الرئيسى فى السور الذى كان يواجه « معبد أوام » أو محرم بلقيس . وعلى الجدار الشمالى من ذلك الأثر نقش ^(٢) مكتوب فيه أن مكرب سبأ « ذمار على وتار » بن « كريب - إيل » الذى عاش فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد هو الذى بنى هذه الفتحة ، وأنه بناها أمام هيكل الإله عشتار . ويذكر جلازر أنه رأى بقايا آثار مبنى على بعد يقرب من ثلاثمائة خطوة شمال غربى تلك الفتحة ، ويظن أنها بقايا ذلك الهيكل الذى أشار إليه النص .

وأهم منطقة أثرية ظاهرة فى تلك المنطقة هى دون شك ، ذلك المعبد المام المعروف باسم محرم بلقيس ، ويليه فى الأهمية المنطقة المعروفة باسم الهايد التى تبعد نحو ١٤٠٠ متراً عن محرم بلقيس فى الاتجاه الشمالى الغربى ^(٣)

(١) لا يقل عددها عن سبعة عشر ولكن أهمها هى المنين ومروث ومدينة النحاس .

(٢) هو النقش المعروف تحت رقم ١ - ٤٤ — أنظر ما كتبه عنه جاك ريكمانز .

J. Ryckmans, *Les Institutions Monarchiques* (1951) p. 62-63.

(٣) ذكرت بعض الصحف المصرية أن آثار مأرب أصابها شيء كثير من الدمار أثناء المعارك التى دارت فى المنطقة بين أواخر سبتمبر والنصف الأول من أكتوبر ١٩٦٢ عندما اتخذ المناهضون لحكومة الثورة اليمنية هذه المعابد حصوناً تحصيهم ويرجو كل محب لليمن أن تكون هذه الأخبار غير صحيحة أو أن يكون ذلك التلف بسيطاً فإن آثار اليمن عزيزة على كل عربى وهى إرث ثقافى مشترك للعرب جميعاً بل والإنسانية جمعاء .

العمائد :

نرى في ذلك المكان خمس أعمدة قائمة ، ويبلغ ارتفاع كل منها فوق الأرض خمسة أمتار ونصف ، وتحيط بها الخرائب من كل ناحية . ومما ييس كل عمود 82×63 سم . وقد رأى أرنو حجراً مكتوباً في العمائد ، ونعرف منه أن اسم ذلك المعبد هو « باران » ، وأنه كان مهيئاً للإله الموقاه ، وعند زيارتي لهذا المكان عام ١٩٤٧ رأيت بعض الأحجار المكتوبة التي ظهرت نتيجة للحفائر التي يقوم بها الأهالي للبحث عن الآثار ، وأحدها يسجل تقديم أرض للإله « الموقاه » من شخصين ، والحجر الآخر يسجل تقديم شخص يسمى « ذمار على » ، إلى الإله الموقاه ليكون ملكاً للمعبد من شخص آخر يسمى « ليل أمر » . والأعمدة القائمة ، وما ظهر حولها من نقوش ، لا تساعدنا على تحديد عصر ذلك المعبد بوجه عام ، أو تذكر في عهد أى ملك من الملوك قد تم تشييده ، وعلينا أن نفتقر حتى تجرى الحفائر هناك .

محرم بلقيس :

ومحرم بلقيس أهم معابد مأرب وأشهرها ، ويقع على بعد نحو ٤ كيلو مترات جنوب شرق مأرب الحالية . وقد زار هذا المعبد كل من أرنو وجلاز والعظم ، ونقل الأولان ما على السطح الخارجى لسوره من كتابات ، وقد فعلت ذلك أيضاً ، وأخذت بعض مقاييسه ، وأخذت صوراً فوتوغرافية كثيرة له في عام ١٩٤٧ . وقامت بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بالحفر في هذه المنطقة بالذات ، وحصرت عملها بين الأعمدة الثمانية التي أمامه ، وبين مدخله ووجدت في هذا الجزء بقايا معمارية هامة ، كما وجدت نقوشاً كثيرة وغير ذلك .

وقبل أن أصف المعبد وأتحدث عن شيده أحب أن أقف قليلاً لتفسير معنى كلمتي محرم بلقيس . فأما عن كلمة محرم فأمرها سهل ، إذ أنها تعنى المكان المقدس للإله ، وبعبارة أخرى المعبد . أما بلقيس فأمرها أكثر تعقيداً .

فقد ذكر ابن خلدون (عاش بين أعوام ١٣٣٢ - ١٤٠٦) في تاريخه مختصراً
لأنساب الملوك الذين عاشوا في جزيرة العرب ، ويقتبس عن العصر الجاهلي كثيراً
بما قاله من سبقوه مثل المسعودي وابن سعيد والطبري والسهيلي وابن حزم وابن
الكثير وغيرهم . ويقول ابن خلدون : إن ملوك سبأ التي زارت سيدنا سليمان اسمها
« بلقمة » أو « بلقيس » ، وإنما كانت قيد حكمت قومها سبع سنوات قبل زيارتها
سليمان ، وأربعة وعشرين سنة بعد عودتها من تلك الزيارة ، وأن بلقمة كانت
السادسة في ترتيب من حكموا مملكة سبأ .

وفي بعض المؤلفات العربية الأخرى مثل العقد الفريد لابن عبد ربه ، ومرآة
الزمان لابن الجوزي^(١) فإن اسم تلك الملكة هو بلقمة . أما الروايات الإثيوبية
فتقول أن أول ملوك إثيوبيا كان ابنا لبطلة الشمس بلقيس أو « ما كده » ، وبطل
القمر سليمان الحكيم^(٢) .

وربما كان أحد الاسمين « بلقمة » نتيجة خطأ في النقل عن الآخر ، ويرجح
علماء الساميات أن « بلقمة » هو الأرجح ، وربما كان اسم الإله « الموقاه » يدخل
في تركيبه ، أما اسم بلقيس الذي تكرر ذكره في كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على
الإطلاق بين الأسماء السبئية المعروفة وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية
التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه أمة أو جارية^(٣) . ومحرم بلقيس بسكاد
يكون بيضاوى الشكل ولسكنه منبعج قليلاً ، وأمام مدخله الرئيسى في الناحية
الشمالية البحرية بهو ذو أعمدة على جوانبه ، وعلى بعد عشرة أمتار من المدخل
تقوم ثمانية أعمدة كبيرة في صف واحد ، وذلك عدا الأعمدة الصغيرة الأخرى
التي كشف عنها ، هي وما حولها ، في عام ١٩٥٢ .

(١) *Journal Asiatique*, Vol. VI, p. 226. ff. 234 ff.

حيث ناقش فرزنل ومولر هذه المراجع العربية .

(٢) Nielsen, *Handbuch*, p. 234

(٣) أنظر تعليق نبيه أمين فارس في ص ٢٤ (الهامش ١٢) الجزء الثامن من الإكسكيبيل

للهمداني ، طبعة برنستون ١٩٤٠ .

وفي الجهة الشرقية من البناء ، نرى هيكلًا صغيراً من الحجر ذا أعمدة أربع ، كان يظن أنه ربما كان جوسقا ليجلس فيه الملك أثناء الاحتفالات الدينية، ولكن المعتقد الآن أنه كان على الأرجح هيكلًا مقاماً فوق بعض المقابر في ذلك المكان .

والسور الخارجى لهذا المعبد مشيد من أحجار منحوتة ، وهى تتفاوت في أحجامها إذ أنها ٣٤ سم في الارتفاع ، أما في الطول فبعضها متوسط الحجم والبعض الآخر يبلغ ١٥٠ سم في الطول . والإفريز العلوى مزخرف بتلك الزخرفة التى نعرفها من الآثار السبائية الأخرى مثل صرواح ، ونعرفها أيضاً من الآثار الحبشية القديمة .

وللمعبد باب جانبي آخر في الناحية الغربية وهو مواجه للبلدية القديمة ، وربما كان هناك طريق موصل بين الإثنين . ومن المحتمل أن تكون هناك أبواب جانبية أخرى مغطاة الآن بالرمال التى تملأ داخل المعبد وتغطى أسواره من الخارج ، وربما كان في داخل السور حجرات أو هياكل ، فإن ما كشفت عنه حفائر البعثة الأمريكية خلال الأسابيع القليلة أمام المدخل حققت كل ما كان يتوقعه علماء الآثار . وبناء على أقدم النقوش المسطرة على الجدار الخارجى لهذا المعبد ، وهو الذى يدور تحت الإفريز في الجهة الشرقية ، فإن ديدع - إيل - ذريح ، بن دسمهو على ، مكرب سبأ ، بنى سور هذا المعبد المسمى بمعبد دأوام^(١) . وأنه شيده لإله القمر ، الإله دالموقاه .

و ديدع - إيل - ذريح ، هو ثانى مكرب حكم سبأ ، وحاش في القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو الذى شيد المعبد الكبير في صرواح للإله نفسه وشيد بمعبد المساجد ببلاد مراد على مسيرة ٢٧ كيلو مترا من مأرب .

وفي الناحية الغربية من السور يوجد نقش آخر يسجل أن د إيل - شريح ، ابن دسمهو - على - ذريح ، ملك سبأ الذى حكم في القرن السادس قبل الميلاد (حوالى

(١) الترجمة الكاملة لهذه النقوش مع الشرح والتعليق منشورة في كتاب :

Rhodokanakis, *Studien II*, p. 7 ff.

٥٧٠ ق. م.) وديشع - أمر - بين ، بن ديكرب - ملك - وتار ، الذي حكم حوالى عام ٥٢٠ ق. م. قد أتما بناء المعبد ، وهناك نقوش أخرى من عصور أحدث للملك قاموا بأعمال خاصة فى ذلك المعبد أيضاً .

ولكن الأمر الجدير بالذكر هو أن كثيراً من النقوش التى كشفت عنها حفائر البعثة الأمريكية ، ووجدتها قائمة فى أماكنها على مقربة من باب المعبد ، إنما يرجع تاريخها إلى عصور متأخرة ، وبعضها فى القرنين الثالث والرابع ، أى أن هذا المعبد ظل يؤدى وظيفته فى عبادة الإله الموقاه فى مأرب مدة تقرب من ألف سنة .

سد مأرب :

والآن وقد انتهينا من الإشارة إلى بعض آثار مأرب وعرفنا شيئاً عن معابدها وعن تاريخها القديم ، يجدر بنا أن نتحدث أيضاً عن سد مأرب أشهر آثار اليمن ، وأعظم عمل هندسى قديم فى الجزيرة العربية كلها . قال تعالى فى كتابه الكريم :

« لقد كان لسبأ فى مسأكنهم آية ، جنتن عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » ذلك جزيناكم بما كفروا وهمل نجاى إلا الكفور » وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين » فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، سورة سبأ - الآية : (١٥ - ١٨) .

وسيل العرم الذى يشير إليه القرآن الكريم ، والذى كتب عنه المفسرون كثيراً ، وكان سبباً فى خراب المنطقة ، حدث فى وقت ما بين أعوام ٥٤٣ ، ٥٧٠ ميلادية ، أى قبيل مولد النبى عليه الصلاة والسلام . ولكن بالرغم من أن حادث هذا السيل كان قريباً من أيام ظهور الإسلام فإن ما كتبه الشراح والمفسرون على

بالقصص الخيالية سواء أكانت عن سبب تخريب السد وتهدمه ، أو عن ملوك العرب القدماء ونسبهم . ولدينا قصص عدة ، ولكن أحب القصص إلى نفوس الكتاب العرب هي القصة التي تقول بأن الله سبحانه وتعالى عاقب أهل سبأ بأن أرسل عليهم فأراً كبيراً له أنياب ومخالب من حديد أخذ يأكل الأحجار حتى أحدث فيها فجوة نفذت منها المياه فتهدم السد وجرفت مياهه كل ما كان أمامه من مبانى وزراعات .

وهذه هي إحدى تلك القصص كاملة نقلاً عن الدميرى^(١) :

« ذكر بعض المفسرين أن الخلد هو الذي خرب سد مأرب وذلك أن قوم سبأ كانت لهم جنتان أي بستانان عن يمين من يانها وشماله ، قال الله تعالى لهم «كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، أي على ما أنعم به عليكم وكانت بلدتهم طيبة لا يرى فيها بعوض ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ولا ذباب وكان الركب يأتون وفي ثيابهم القمل وغيره ، فاذا وصلوا إلى بلادهم ماتت ، وكان الإنسان يدخل البستان والمكتل على رأسه فيخرج وقد امتلأ من أنواع الفواكه من غير أن يتناول شيئاً منها بيده . فبعث الله لهم ثلاثة عشر نبياً فدعواهم إلى الله وذكرهم بنعمه عليهم ، وأنذروهم عقابه فأعرضوا ، وقالوا ما نعرف الله علينا من نعمة ، وكان لهم سد بقتله بلقيس لما ملكتهم وبنت دونه بركة فيها اثنا عشر نخرجاً على عدد أنهارهم فكان الماء يقسم بينهم على ذلك ، فلما كان من شأنها مع سليمان عليه الصلاة والسلام ما كان مكثوا مدة بعدها ثم طغوا وبغوا وكفروا ، فسلط الله عليهم جرذاً أعمى يقال له الخلد فتقرب السد من أسفله ، فهلك أشجارهم وخربت أرضهم وكانوا يزعمون في عملهم وكهانتهم أن سددهم ذلك تخريبه فأرة ، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطلوا عندها هرة ، فلما جاء الوقت الذي أراد الله تعالى أقبلك فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرار فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة ، فدخلت في الفرجة التي

(١) كتاب حياة الحيوان الكبرى للشيخ كمال الدين الدميرى (طبعة صبيح بالقاهرة)
الجزء الأول ص — ٤٤٥ تحت اسم « الخلد » .

كانت عندها وثقبت، وحفرت فلما جاء السيل وجد خلافاً دخل فيه حتى قلع السد وفاض على أموالهم ففرقها ودفن بيوتهم بالرمل . وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ووهب وغيرهما أنهم قالوا كان ذلك السد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء أوديتهم فأمرت بواديهم فسد بالعرم وهو بلفج حمير، فسدت بين الجبلين بالصخر وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثني عشر عرجاً على عدد أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا عنه سدوها، فإذا جاء المطر اجتمع إليه أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالبواب الأعلى ففتح ، لجرى ماؤه في البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الباب الثاني ثم من الباب الثالث الأسفل فلا ينفذ الماء حتى يشوب الماء من السنة المقبلة، فكانت تقسمه بينهم على ذلك والله أعلم . (ونقل) الإمام أبو الفرج بن الجوزي عن الضحاك أن الجرذ الذي خرب سد مأرب كان له مخالب وأنياب من حديد وأن أول من علم بذلك عمرو بن عامر الأزدي، وكان سيدهم، وكان قد رأى في المنام كأنه انبثق عليه الردم، فسأل الوادي فأصبح مكروباً فانطلق نحو الردم فرأى الجرذ يحفر بمخالب من حديد ويقرض بأنياب من حديد، فانصرف إلى أهله فأخبر امرأته وأراها ذلك، وأرسل بنيه فنظروا فلما رجعوا قال: هل رأيتم ما رأيتم؟ قالوا: نعم، فإن هذا الأمر ليس لنا إلى ذهابه من سبيل ، وقد اضطلعت الحيلة فيه لأن الأمر من الله وقد آذن الله بالهلاك. ثم أنه عمد إلى هرة فأخذوها وأتى إلى الجرذ، فصار الجرذ يحفر ولا يكثرث بالهرة فولت الهرة، فقال عمرو لأولاده: احتالوا لأنفسكم. فقالوا: يا أبت كيف نحتال؟ فقال: إنني نحتال لكم بحيلة. قالوا: افعل. فدعا أصغر بنيه وقال له: إذا جلست في المجلس واجتمع الناس على العادة، وكان الناس يجتمعون إليه وينتهون برأيه، فإني آمرك بأمر فتغافل عنه فإذا شتمتك فقم إلى والطمني، ثم قال لأولاده: فإذا فعل ذلك فلا تنكروا عليه ولا يتكلم أحد منكم، فإذا رأى الجلنساء فعلكم لم يحسر أحد منهم أن ينكر عليه ولا يتكلم، فأحلف أنا عند ذلك يمينا لا كفارة لها أن لا أقيم بين أظهر قوم قام إلى أصغر بني فلطمني فلم يغيروا. فقالوا: نفعل ذلك، فلما جاس واجتمع

الناس إليه أمر ابنه الأصغر ببعض أمره ، فلما عنه ، فشتمه ، فقام إليه ولطم وجهه ، فمجب الجماعة من جرأة ابنه عليه وظنوا أن أولاده يغيرون عليه فسكسوا رءوسهم . فلما لم يغير أحد منهم قام الشيخ وقال : أيلطمني ولدى وأنتم سكوت ؟ ثم حلف يميناً لا كفارة لها أن يتحول عنهم ، ولا يقيم بين أظهر قوم لم يغيروا عليه . فقام القوم يعتذرون إليه ، وقالوا له : ما كنا نظن أن أولادك لا يغيرون ، فذاك الذى منعنا فقال : قد سبق منى ما ترون وليس إلى غير التحويل من سبيل . ثم أنه عرض ضياعه للبيع ، وكان الناس يتنافسون فيها واحتمل بثقه وعياله وتحول عنهم فلم يلبث القوم إلا يسيراً حتى أتى الجرذ على الردم فاستأصله ، فبينما القوم ذات ليلة بعد ما هدأت العيون إذا هم بالسيل فاحتمل أنعامهم وأموالهم وخرب ديارهم فذلك قوله تعالى — فأرسلنا عليهم سيل العرم — وفى العرم أقوال ، قيل هو المسناة أى السد . قاله قتادة . وقيل هو اسم الوادى ، قاله السهيلي . وقيل اسم الخلد الذى خرق السد . وقيل هو السيل الذى لا يطاق ، وأما أرب فبسيكون الهمة اسم لقصر كان لهم ، وقيل هو اسم اكل ملك كان على سبأ . كما أن تبعاً اسم لملك من ولى اليمن والشحر وحضر موت ، قاله المسعودي . وقال السهيلي : وكان السد من بناء سبأ ابن يشجب وكان قد ساق إليه سبعين وادياً ، ومات من قبل أن يتمه فأتمته ملوك حمير ، واسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، قيل إنه أول من سبى فسمى سبأ ، وقيل إنه أول من تتوج من ملوك اليمن . وقال المسعودي بناء لقمان ابن عاد وجعله فرسخاً فى فرسخ وجعل له ثلاثين شعباً ، فأرسل الله عليهم سيل العرم وفرقوا ومزقوا حتى صاروا مثلاً . فقالوا : تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ . قال الشعبي لما غرقت قراه تفرقوا فى البلاد ، فأما غسان فلحقوا بالشام والأزد إلى عمان ومرخداة إلى تهامة وجذيمة إلى العراق والأوس والخزرج إلى يثرب ، وكان الذى قدم منهم المدينة عمر بن عامر وهو جد الأوس والخزرج . روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك القطيفي قال : قال رجل يا رسول الله : أخبرني عن سبأ أكان رجلاً أو امرأة أو أرضاً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كان رجلاً من العرب وله عشرة أولاد ثيامن منهم ستة وتشام أربعة ، فأما الذين ثيامنوا فكثيرة

والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار وحير . فقال الرجل : وما أنمار ؟ قال :
منهم خشم وبجيلة . وأما الذين تشاءموا فلنخم وجذام وعامله وغسان .

ولسنا في حاجة إلى القول بأن أكثر ما ورد في تلك القصة عن سبب تخريب
السد يغلب عليه الخيال ويعوزه المنطق ، وإذا كان هذا هو شأن بعض كتاب
العرب القدماء ، فإن بينهم من امتاز بالدقة والصدق وها هو مؤلف ينى وهو الحسن
الهمداني يتحدث عن سد مأرب :

ذكر مأرب . وهى مسكن سبأ الذى قال الله فيه : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم
آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب
غفور » وهى كثيرة العجائب . والجنتان عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم
خامرتان (والغامر العافى وكذلك السامر فى كتب أصحاب الشروط فى شراء
الأرضين بغامرها) وإنما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عن أيدي السيول . قال
الحسن الهمداني وجدت السواقى . فقال بعض من كان معى : لا أظنه إلا من بقايا
نخل الجنتين وما أحسب أنه بقى من العصر القديم . وأما مقاسم الماء من مداخل
السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء
أحد الصدفين باقياً وهو الذى يخرج منه الماء قائماً بحاله على أوثق ما كان
ولا يتغير إلى أن يشاء الله عز وجل . وإنما وقع الكسر فى العرم ، وقد بقى من
العرم شئ مما يصل إلى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمس عشرة ذراعاً . قال
تبارك وتعالى :

« فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل
خمس وأثل وشئ من سدر قليل » . قيل الخط الأراك ، والأثل الطرفاء ، والسدر
المعروف العرج وهو العلب وجمعه علوب والواحدة علبة .

ومن أمثال العرب فى الرجل المنيع الجانب : هو رجل لا يناش عليه
ولا يخلف وثله ودومه (وهو الدوم وحمله النبق والكبات) . وبها من الأراك
ما ليس ببلد ومن الحمام المطوق فى الأراك ما يحل عن الصفة . وكان السيل يجمع

من أماكن كثيرة ومواضع جمّة باليمن ، وقد ذكرناها مع انكسار السد في بعض كتبنا . وفيها يقول الأعشى :

ففي ذاك البؤسى أسوة ومأرب قفا عليها العرم
بغام بناء له حير إذا جاءه ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث وأعناهم على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة فجارفهم جارف منهزم
فطار القيول وقياها بهما فيها سراب يطم

كان خصب أرض سبأ مضرب الأمثال بين العرب ، وكان أهلها ينعمون بخيرات واديهم وينعمون أيضاً بما تدره التجارة من أموال ، إذ كان السبأيون القدماء يتحكمون في ذلك الدرب التجاري الهام الذي لعب دوراً من أكبر الأدوار في تاريخ العالم القديم . وكثيراً ما تدمر السد وأعيد ترميمه ولكن آخر تهدم له وهو التهدم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم كان نكبة على المنطقة كلها ، نكبة أصابتها في الصميم ولم تفق منها بلاد مأرب ، بل لم تفق منها بلاد اليمن وتتغلب على آثارها حتى اليوم .

والآن وقد ذكرنا أمثلة كافية من أقوال كتاب العرب نبداً وصف هذا الأثر العظيم .

وصف السد :

تسقط كميات كبيرة من الأمطار في مناطق كثيرة في شرقي اليمن وتسير سيولها في الوديان المختلفة حتى تصل إلى منطقة قريبة من مأرب ، فتدخل هذه السيول متدفقة في فجوة بين الجبال ، وتعرف هذه المنطقة باسم جبل بلق ، وتسمى الفتحة بين الجبلين باسم الضيقة واسكن من جهتيها اسم ، فيقال بلق الأيمن وبلق الأيسر ، كما يعرف الوادي الذي تسير فيه تلك السيول باسم وادي ذنة .

ويرتفع جبل بلق في تلك المنطقة — وهو جبل ذو صخور بركانية — إلى علو ٣٠٠ متراً تقريباً ، ويبلغ متوسط اتساع « الضيقة » ٢٣٠ متراً ولكنها تنسع في الوسط فيصبح اتساعها ٥٠٠ متراً ، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠ متراً تقريباً ، ثم تستمر الناحية الشمالية (أى التي على يمين الشخص المواجه للسد) في امتدادها بينما تنفرج الناحية الأخرى . وقد اختار السبأيون القدماء هذا المكان لتشييد السد فبنوا جداراً قوياً يعترض الوادى ويوقف مياه السيول المتدفقة ، وجعلوا في الناحيتين فتحتين إحداهما إلى أقصى اليمين ، واستغلوا ذلك الجبل المرتفع في هذا الغرض فلم يبنوا إلا جداراً ضيقاً واحداً ليكون صدفاً ثانياً للبوابة . أما البوابة التي في الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهي أكبر وأعظم وتنقسم إلى قسمين ، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة ، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر ترى في جهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحي الوادى الفسيح .

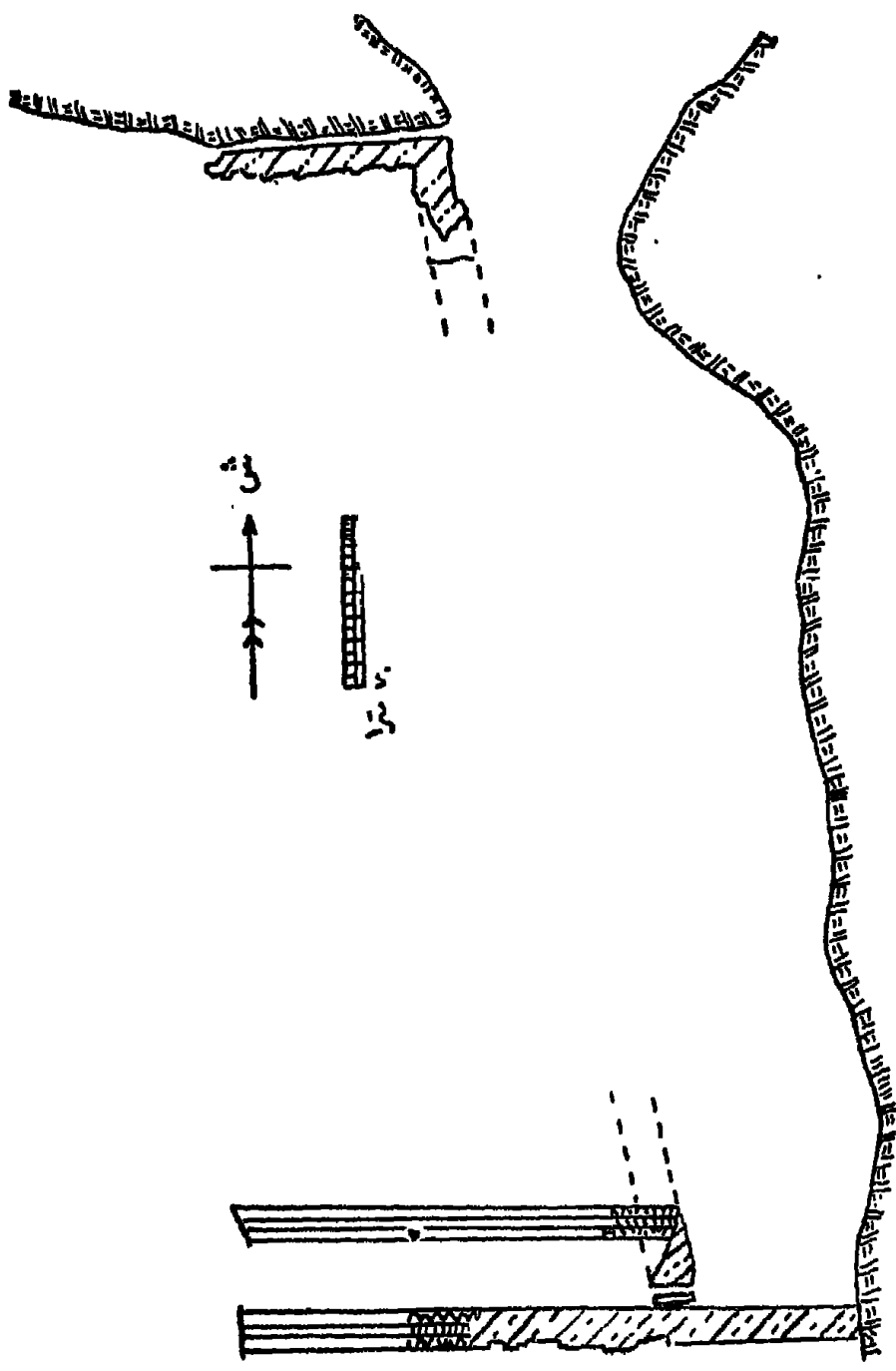
وكان هذا السد مقاماً لغرضين : أولها السيطرة على مياه السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها إذا جاءت لجأة بكثرة غير عادية ، وثانيهما تخزين تلك المياه وروقع مستواها أمام السد وعدم صرف شيء منها إلا بالمقدار اللازم ، وبذلك يضمنون رى وادى مأرب الذى يرتفع عن مستوى السايلة بخمسة أمتار ، ويأمنون توفر كميات المياه اللازمة للرى حتى يحين موعد مجيء سيول أخرى من المناطق المطيرة في شرق اليمن لأن منطقة مأرب من المناطق الجافة قليلة الأمطار . ولا يزرع أهلها اليوم ، أى بعد تخريب السد ، إلا مساحات ضئيلة على مقربة من مجرى المياه في وادى ذنة . وتضيع أكثر مياه السيول هباء في الوقت الحالى ولا يمكن استخدامها في زراعة أراضى الوادى المرتفعة .

البوابة اليمنى :

يطلق الأهالى على هذه البوابة اسم مربط الدم^(١) وكانت تروى الناحية اليمنى

(١) الدم هو القط ومربط الدم إشارة إلى إحدى القصص عن سبب تهدم السد إذ عرفوا من السحرة أن تخريب السد سيكون بسبب فأر يأكل حجارة في ذلك المكان فربطوا قطاً ليحولوا دون ذلك .

رسم تقريبي لسد مأرب والبوابين الكبيرتين القين كائنا ترويان البنتين المذكورين في القرآن الكريم



التي ما زالت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم ، وكلها على يمين وادي ذنة ، وربما كان ذلك الاسم في حد ذاته ما يثبت أن تهدم السد قد حدث في هذه الناحية القريبة من مدخل الضيقة .

ونرى من الرسم المنشور هنا أن أحد جانبي هذه الفتحة هو صخر الجبل . أما الناحية الأخرى فمشيدة من الحجر ، ونرى في صدغي تلك الفتحة المكان الذي كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه التي تسير بعد ذلك بين الجبل والجدار إلى أن تنكسر قوة اندفاع المياه وتسير بعد ذلك في قناة عادية . وإذا نظرنا إلى الرسم التقريبي فإننا نرى بروزاً مثلثاً في ذلك الجدار الحجري ، وقد كان هذا البروز داخلاً في جدار السد الكبير وهو الجدار الذي تهدم وسبب ذلك الخراب .

وعلى الجدار الصخري لهذه الفتحة عدة نقوش أهمها اثنان نعرف منهما أن اسم السد هو « رحب » وأن بانيه هو « سموه على ينوف » بن « ذمار علي » مكرب سباً وأنه بنى ذلك السد لأجل تسهيل الري . وفي نص آخر نقرأ أن ابن هذا الحاكم وكان يسمى « يشع - أمر - بين » بن « سموه على ينوف » قد قام أيضاً بعمل فتحة في جبل يلقى من أجل الري .

ونعرف أن كلا من « سموه على ينوف » وابنه « يشع - أمر - بين » قد عاشا في القرن السابع قبل الميلاد ، ونعرف أيضاً أن ثانيهما قد بنى السد المسمى « هباز » وهو أكبر من سد « رحب » ، وهو على الأرجح البوابة الأخرى التي على اليسار .

وما من شك في أن السد قد تهدم مرات كثيرة خلال الفترة الكبيرة التي مضت بين تشييده في منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالي عام ٦٥٠ ق . م) وبين آخر مرة أصلح فيها في عام ٥٤٢ ميلادية في عهد الملك أبرهة الحبشي ، أي خلال ما يقرب من ألف ومائتي سنة ، ولهذا فليس في استطاعتنا ، على أساس معلوماتنا الحالية ، أن نؤكد أن تلك المباني القائمة عند الفتحيتين يرجع تاريخها إلى عهدي

هذين الماسكين، أى أنهما يقومان فى مكانهما منذ أكثر من ٢٦٠٠ سنة . ولكن إذا قارنا مبانيهما بمباني معبد صرواح ومعبد محرم بلقيس ، وكلاهما من هذا العهد ، ووضعنا فى ذهننا أن تهشم ذلك السد يحدث من تصدع جداره الكبير الذى كان بين البوابتين ، نرى أنفسنا ميالين إلى الأخذ بالرأى القائل بأن مباني البوابتين القائمتين هما من ذلك العهد (مع افتراض حدوث بعض الترميمات فيهما) ، اللهم إلا إذا ظهر من الوثائق القديمة ما يثبت غير ذلك ، وهو ما لم يحدث حتى الآن .

وها هى بعض مقاييس الفتحة البنى :

عرض بوابة دخول المياه	٤,٥٥ مترا
عرض الجدار	١٢,٤٠
طول	٧٨,٨٠
أقصى ارتفاعه	١١,٠٠

البوابة اليسرى :

للك البوابة عينان ، كما نرى فى الرسم التقريبي، ووراءها قناة مبنية الجوانب طولها أكثر من كيلو متر تنتهى بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات .

ونرى على مقربة من هذه البوابة أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخر الجبل ، ثم جعلوا فى مكان مرتفع من الجسداو أربع فتحات ، وذلك لتصريف أى كميات زائدة من المياه حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد إلى حد لا يريده ، أو يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها، وتخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج وتنزل إلى باطن الوادى .

وفى وقت من الأوقات رأوا أنه لاجاجة للعينين فسدوا واحدة منهما واكتفوا بالآخرى . وكان يخرج من الحوض المبنى بالحجر فى آخر القناة الكبرى قنوات متعددة ، تبلغ فتحات بعضها نحو ثلاثة أمتار ، وكلها مبنية بالحجر ، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزل فى فتحتين فى جانبي كل بوابة .

وأينما سار الإنسان في أراضى وادى مأرب التى كانت مزروعة ، وتروىها هذه القنوات العديدة ، نرى أحجاراً يسميها الناس في الوقت الحاضر « مناسح » وهى ما يبق من آثار القناطر الصغيرة التى كانت فوق تلك القنوات أو من مباني السواقي القديمة ، ونرى من دراسة المباني التى ما زالت قائمة عند البوابتين تقدم السبأيين القدماء في فن البناء تقدماً يحسدكم عليه كثير من الشعوب القديمة التى كانت معاصرة لهم . ويجب ألا ننسى أنه لكي يبشوا مثل هذه المباني قد احتاجوا إلى قرون كثيرة من المران والتطور حتى وصلوا إلى تلك الدرجة من السيطرة على البناء بالحجر .

وكانوا يربطون الأحجار ببعضها البعض بواسطة قضبان قصيرة قوية من النحاس أو الرصاص وذلك للاستزادة من قوة البناء ، وكثيراً ما يذهب الأهل إلى الآن ليحطموها بعض تلك الأحجار عند الحمامات ليستخرجوا تلك القضبان المعدنية لحاجتهم إليها في بعض أغراضهم ، وقد رأيت واحداً منها وكان أسطوانى الشكل مستديراً في ناحيتيه وطوله ١٦ سم وقطره ٣,٥ سم ، أما المونة المستخدمة فهي في منتهى الصلابة ، ونرى بعضها عند البوابة اليسرى .

مأرب في آخر أيامها :

ارتبط تاريخ مأرب في أيامها العظيمة بسيطرة ملوكها على الطريق التجارى الكبير وتجارة البخور . وفي القرن الأول قبل الميلاد أخذ الرومان يرمون بأبصارهم للسيطرة على هذه التجارة ، ثم كان ما كان بعد ذلك من أمر حملة اليوس جالوس التى انتهت بفشلهم التام في الاستيلاء على مدينة مأرب أو أى مكان آخر . وإذا كان الرومان قد فشلوا في تلك الحملة فإن تجارتهم البحرية أخذت تسير في طريقها ، بل وأخذت تزداد ، لأنهم كانوا قد تعلموا من البحارة العرب سر الرياح الموسمية في أواسط القرن الأول قبل الميلاد . وفي غضون تلك الأيام ظهرت مملكة جديدة في جنوب اليمن وهى مملكة ظفار التى غيرت من سير الطريق التجارى فجعلته قريباً من البحر ، فأخذت أهمية مأرب تتضاءل وأخذ يملونهم مدن أخرى وفي مقدمتها ظفار التى كانت عاصمة تلك المملكة .

وهاجر كثير من اليهود إلى الين بعد حصار مدينة القدس وتخطيطها في القرن الأول الميلادي ، واستقروا أيضاً في كثير من البلاد التي كانت تقع على الطريق التجاري الكبير . وفي أوائل القرن الرابع الميلادي على الأرجح ، أخذت المسيحية تثبت أقدامها في بعض جهات الين وبخاصة في نجران حيث استطاع أحد الدعاة إلى المسيحية من تأسيس كنيسة في نجران . كان مسيحيو الين على علاقة طيبة مع مسيحيي بزنطة ومسيحيي الحبشة ، وسواء أكان لغزو الأحباش لليمن في القرن الرابع الميلادي صلة بهذا الأمر أو لم تكن له صلة به فإن احتلال الحبشة للبلاد لم يدم وقتاً طويلاً . ونعرف مما جاء في أحد النقوش ، وقد عثر عليه في مأرب ويرجع تاريخه إلى عام ٣٧٨ ميلادية ، أن « ملك - كريش - يوهامين » كان قد طرد الأحباش واستعاد عرش آبائه .

كان طرد الأحباش من الين بداية لأمر جديد في التاريخ اليني ، وذلك الأمر هو بدء ميل العائلة المالكة في الين إلى الديانة اليهودية .

كان « ملك - كريش - يوهامين » يعبد الآلهة القدماء ولكن أحد الذين خلفوه على العرش واسمه « أب - كريش - أسعد » المعروف لكتاب العرب تحت اسم « أسعد كامل » مال إلى الديانة اليهودية ، ويقال إنه قام برحلة إلى يثرب (المدينة) لكي يقوم اليهود الذين فيها بعمل ما يلزم من مراسم دينية لتثبيت تهويده ، وعند عودته أعلن أن تلك الديانة هي الديانة الرسمية له ولبلاده .

وفوق صخور جبل بلقي ، أمام البوابة اليسرى لسد مأرب ، نرى عمودين غطت النقوش السبئية الوجوه الأربعة من كل منهما أحدهما من عهد الملك « شر حليل يعفر » بن « أب - كريش - أسعد » يسجل فيه ترميمه للسد الذي تهدم في أيامه ، أما العمود الثاني فن عهد الملك أبرهة الحبشي . وكان آخر ملوك اليهود في الين هو الملك « ذو نواس » الذي اضطهد المسيحيين في نجران حوالي عام ٥٢٢ ميلادية ، وكان حرقه لهم في الأخدود سبباً لثورة العالم المسيحي وتكليف

لمبراطور بيزنطة للملك الحبشة بأن يذهب لنصرة المسيحيين في اليمن ، فذهب أبرهة وقضى على « ذو نواس » حوالي عام ٥٢٥ ميلادية .

والنقش الثاني ، الذي أشرت إليه ، والذي نراه ملقاً إلى جوار نقش شرحبيل ، يتقص قصة هامة من نوع آخر ، فقد أصبح النصر معقوداً للمسيحية وأخذت الكنائس تبنى في المدن المختلفة ، وما هو أبرهة يقيم هذا الأثر في عام ٥٤٢ ميلادية ليسجل فيه إصلاحه للسد الذي تهدم . يبدأ أبرهة نقشه بقوله « بقوة وجمال ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس » ، ويذكر أنه كانت هناك ثورة في جهة مأرب وأنه ذهب وأخمدتها ، ولكنه علم وهو يصلي في كنيسة مأرب أن السد قد تصدع فاهتم للأمر وأرسل يدعو القبائل للعمل في إصلاحه ، وأن العمل استمر أحد عشر شهراً وأن مقدار المؤن التي صرفت أثناء العمل كانت ٨٠٦,٥٠ كيساً من الدقيق و ٢٦,٠٠٠ حملاً من البلع وأنه نحر ٣٠٠٠ جلاً وثوراً و ٢٠٧,٠٠٠ رأساً من الغنم لياكل الرجال لحمها^(١) .

وكان نجاحه في ترميم السد - وهو آخر ترميم له - أمراً اعتبر به أبرهة وقرر الاحتفال به ، فجاء إلى مأرب كثيرون من الوفود يذكر منهم في نقشه وفدأ من « الحبشة » ووفدأ أرسله « ملك الروم » كما جاء مبعوث من « ملك الفرس » وكثيرون من الأمراء المسيحيين من أهل الحيرة ومن الفساسنة .

كانت تلك الاحتفالات بترميم السد هي آخر ما شهدته مأرب من أيامها العظيمة ، إذ لم يمض على ذلك وقت طويل حتى تهدم السد مرة أخرى . كانت تلك الفتوة من تاريخ الجزيرة العربية ، بل العالم الشرقي كله ، فترة صراع مرير بين الفرس الوثنيين والروم المسيحيين فقام أحد أمراء اليمن من نسل الحيريين وهو سيف بن ذي يزن واستعان بالفرس على طرد الأحباش من البلاد وأصبح للفرس حاكم فيها .

(١) لفر جلازر ترجمة هذين النقيشين الهامين في بحثه في مجلة *Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, Berlin (1897) pp. 360-488.*

ولكن حدث حوالى عام ٥٧٠ ميلادية أمر كان بداية لتغيير الأوضاع
لا فى اليمن أو فى بلاد الجزيرة العربية لحسب ، بل فى كثير من البلاد الأخرى .

لقد ولد حوالى ذلك التاريخ فى أحد بيوت قريش فى مكة ، لإحدى المدن الهامة
على الطريق التجارى الكبير ، طفل يتيم هو محمد بن عبد الله . كانت ولادته فى
ذلك العام الذى أراد فيه أبرهة أن يقضى على مكة ليحول الناس عنها وعن كعبتها
الوثنية إلى كنيسة صنعاء المسيحية ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبه وقتك وباء
به وبجيشه . كانت الوثنية واليهودية والمسيحية تتصارع فى بلاد العرب ، ولكن
الأقدار كانت تهيئ شيئاً آخر .

لقد شبَّ الطفل اليتيم واختاره الله ليؤدى رسالة جديدة ، وأخذ محمد يبشر
بالإسلام فلقى ما لقى من أذى ونصب حتى أذن الله بالنصر ، ودخل الناس فى دين
الله أفواجا ، ووصلت دعوته إلى اليمن ، فأسلم حاكمها الفارسى وكان يسمى « باذان » .

وخفتت أصوات الوثنية وأصوات الديانات الأخرى وعلا صوت دين الله ،
وخرب الناس ما خربوه من معابد الوثنيين ، وأقبل اليمنيون على الإسلام وتحمسوا
للخروج فى الفتوحات ، وبدأت اليمن فصلاً جديداً فى تاريخها .



الفصل السادس

ايران

منذ أقدم العصور حتى ظهور الأخمينيين

هضبة إيران :

إذا نظرنا إلى إحدى الخرائط الجغرافية ، وبخشنا عن موقع إيران في آسيا فلا تلبث أن تبرز أمام أعيننا ثلاث نقاط هامة . أولها أنها هضبة تتوسط بين منطقة الأحراش (الإستبس Steppes) في أواسط آسيا وبين سهول غرب آسيا ، وثانيها أنها أشبه بمثلث رأسه عند جبال زاغروس ويربط منطقة الأحراش في أواسط آسيا من ناحية ، وهضبة آسيا الصغرى من ناحية أخرى . أما ثالثة النقاط فهي أن هذه الهضبة تقع بين منخفضين أحدهما في الشمال وهو بحر قزوين ، والثاني في الجنوب وهو الخليج الفارسي .

وهضبة إيران جبلية تتخللها جبال يصل ارتفاعها في بعض الحالات إلى ١٧٠٠ مترا عن سطح البحر ، وتوجد وديان خصبة بين تلك الجبال يتراوح طولها بين ٥٠ و ٧٠ كيلو مترا وعرضها بين ١٢ و ٢٠ كيلو مترا وتتوسطها المدن الهامة . وتحت مستوى تلك الوديان تنبت على جوانب الجبال غابات كثيفة من أشجار البلوط والجوز واللوز والفسق ، وفي الوديان التي أقل منها ارتفاعا تنبت القواكه السكثيرة وبخاصة العنب والتين والرمان ، كما يمكن أيضا زراعة بعض الحبوب . مثل القمح والشعير والدخان وغير ذلك من المحاصيل . وأكثر جبال إيران ارتفاعا هي قمة جبال دماوند على مقربة من الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين .

ويتفرق السكان في تلك البلاد التي تفصل بينها الجبال ، ولكن أكثر مناطق إيران ازدحاماً بالسكان هي المنطقة الواقعة حول بحيرة أورميا حيث تلبت محاصيل كثيرة في الوديان المختلفة كالقمح ، والذرة ، والقطن ، والأرز، والدخان . وكثير من الفواكه المختلفة .

ولهذا لا نعجب إذا لعبت تلك البلاد دوراً كبيراً في التاريخ فهي قنطرة بين أواسط آسيا التي تسمى منطقة الأحراش (الإستبس) وبين غربي آسيا ، وفي وديانها تمر دواب القوافل المختلفة التي تربط بين شرقي آسيا وغربها .

وفضلاً عن ذلك فإن مناخها الجبل الصحي جعل سكان الجبال من أبنائها قوماً شديدي المراس يحبسون الحرية ، وساعدتهم طبيعة بلادهم على الوقوف في وجه المعتدين في جميع العصور . وإذا كانت الحضبة الإيرانية فقيرة نسبياً في الأنهار الكبيرة ففيها كثير من جداول المياه والبحيرات وينابيع المياه مما يسهل الإقامة فيها ، كما سمحت طبيعة أراضيها بوجود المراعي الكثيرة ، وفي جبالها معادن وفيرة وأحجار جيدة متعددة الأنواع .

تلك هي بلاد إيران التي كانت مركزاً هاماً من مراكز الحضارة في بلاد الشرق ، والتي أظهرت الحفائر فيها أن أقدم الأماكن التي تطورت حياة أهلها إلى الزراعة ، حسب ما وصلنا إليه حتى الآن ، كان بين ربوعها ، وكان على شاطئها إحدى البحيرات في ولاية قاشان .

الزراعة في سيالك :

هناك آراء متعددة عن المكان الذي يحتمل أن يكون أهله أول من اكتشف الزراعة . وهناك من يقول بأنه في مكان ما من الهلال الخصيب ، وهناك من يقول بأنها حضبة إيران أو في الكردستان ، ولكن كل هذه الآراء تتضاءل إذا ما تعرضنا لها بالمناقشة الجدية لأنه لا يوجد مكان أنسب من مصر فإن نيلها يفيض في أوقات محدودة في كل سنة لمدة أسابيع في آخر الصيف ، ولا تكاد مياه الفيضان

تنحسر عن الأراضي حتى يكون الجو ملائماً لنمو القمح الذي نراه ينبت في الأرض اللينة عقب الفيضان ، ونحن نعرف أن الشعير كان ينبت دائماً في مصر ، وأنه من محاصيلها الوطنية منذ أقدم العهود . وإذا كان القمح والشعير لا ينبتان الآن على هيئة نباتات برية ، (الشعير البري بالإنجليزية يسمى Immer والقمح البري dinkel) ، فربما كانا ينبتان فيها في العصر النيوليتي .

وليس يخالجننا شك في أن سكان وادي النيل وسكان بلاد الرافدين عرفوا الزراعة منذ عهود بعيدة ، ولكن لم يصل إلى أيدي العلماء من حفائر هذين البلدين ما نستطيع أن نعتبره أقدم عهدا من حفائر «سيالك تبه» في إيران^(١) . ونحن لاذ نقبل ذلك عن طيب خاطر مؤقتا ، نعلل النفس بأن هناك آلافا من التلال الأثرية في بلاد الرافدين ، وسوريا ، وفلسطين ، والأناضول ، وفي شمال إفريقيا ، وعلى طول جانبي الدلتا ، وعلى هضبتى النيل حتى أواسط السودان تنتظر يد العلم لتميط اللثام عن أسرارها . ويقوم تاريخ سيالك على الأدلة المستمدة من الفخار فقط ومقارنتها بفخار غيرها من البلاد ، إذ أن تل سيالك كان ذا طبقات متعددة سكنتها أقوام في عصور مختلفة .

وربما يرجع أقدم تاريخ للمنطقة إلى حوالي ٥٠٠٠ عام ق . م . عند ما كان السكان القدماء يستعملون فخاراً أحمر مصقولاً خالياً من النقوش ، ولكن في عصر سيالك الأول نجد أن السكان صنعوا أنواعاً مختلفة من الفخار وزخرفوه ، كما عرفوا أيضاً نسج القماش ، وكانوا يصنعون لأنفسهم مساكن خفيفة من فروع الأشجار يلبسونها بالطين .

(١) « سيالك » في الشمال الغربي من إيران على مقربة من مدينة قاشان في الجنوب الشرقي من طهران — حفرها جيرشمان وكتب عنها مؤلفا من جزئين :

R. Chirshman, *Fouilles à Sialk, T. I* (Cairo, 1938), *T. II* (Cairo, 1939).

وسيالك الآن في بقعة موحشة ولكن سكانها في العصور القديمة كانوا يعيشون على حافة بحيرة كبيرة ، وكان هناك نهر يجري إليها بالمياه ، كما ساعدت خصوبة أرض تلك الواحة على زرع جزء كبير منها للحصول على الحبوب اللازمة للخبز . وأحاطت الأشجار بالبحيرة وكونت غابة كانت ممرها لكثير من الطيور والحوانات التي كانوا يصطادونها للاعتفاع بها في غذائهم .

ولاشك أن وصول سكان «سيالك» إلى معرفة صناعة الفزل ووصولهم إلى صناعة الفخار يشهد لهم بالتفوق ، ولكن تفوقهم الحقيقي كان في الذوق الفني في زخرفة هذا الفخار بالألوان وتنويع أشكاله . وقد عثر «جيرشمان» أيضاً في هذه الطبقة على بعض الأدوات التي كان يستعملها أمثال هؤلاء السكان الذين كانوا إلى جانب الزراعة ما زالوا يعتمدون أيضاً على الصيد ، ولا ريب أن أهم ما ظهر في أقدم طبقات حفائر سيالك هو ذلك التمثال المصنوع من العظم الذي يمثل شخصاً واقفاً يتعبد ، وقد علا رأسه غطاء أشبه بالطاقيّة أو القبعة الصغيرة ، ولبس رداءً يصل إلى ركبتيه يضمه حزام حول وسطه ، وإذا قارنا هذا التمثال الصغير بغيره مما جاء من حفائر غرب آسيا لا نجد مثيلاً له ، ولكننا نجد ما يشبهه إذا اتجهنا نحو الغرب وقارناه بما جاء من حضارة الناطوفيين في فلسطين أو البداريين في مصر .

وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية أكواخهم مثل سكان مرمدة في مصر ، ودون أن يضعوا معهم أواني ، لأنهم على ما يظهر كانوا يشاركون الأحياء في طعامهم وشرابهم إذا احتاجت أرواحهم إلى الغذاء ، وكان من مظاهر ثقافتهم دهن عظام الموتى بالمغرة الحمراء رمزاً إلى جريان الدم فيها . أما الأطفال الصغار فكانوا يوضعون في أوان ويدفنون أيضاً تحت أرضية الأكواخ ، وهي عادة بقيت في كثير من البلاد حتى العصور التاريخية بل إنها باقية حتى يومنا هذا في بعض بلاد الشرق وبخاصة في الريف .

وكانوا يجيدون صناعة أدوات الظران (حجر الصوان) وعمل الأواني الحجرية . أما حلبيهم فكانت في البدء مصنوعة أيضاً من الفخار أو الحجر ، ولكن مع تقدم الزمن صنعوا هذه الخزرات والخواتم والأساور من الحجر .

وكانت الخطوة التالية لأهل سيالك بعد فترة طويلة من حياتهم هو أنهم بدأوا يبنون أكواخهم بجواليص من الطين ، كما تقدموا في إتقانهم لصناعة الحجر فصنعوا كؤوساً وأواني ورءوس دبابيس للقتال من تلك المادة ، ولكنهم ظلوا يستعملون قدوماً مصقولاً من الظران ، من المرجح أنه لم تكن له يد ، وكانوا

يستعملونه بالقبض عليه كما يظهر من أثر اليد على القدم نفسه ، كما استعملوا
منشاراً من الظران لقطع الأخشاب . أما عن آلات الصيد فقد ظلت كما هي ،
واستمر سكان سيالك على عاداتهم في استخدام أدواتهم البدائية ، وعلى الأخص
المقلاع ، ولم يثر على أى سهم بين أدواتهم مما يرجح عدم معرفتهم لاستخدام
القوس .

وتقدموا خطوة أخرى فعرفوا النحاس واستعملوه كدبابيس لتثبيت
الملابس ، أو كمخارز ، أو غير ذلك من أدوات الزينة ، ولكن مضت عليهم
قرون طويلة قبل أن يدركوا أن هذا المعدن نفسه يمكن صهره وصبه في قوالب ،
إذ أن ذلك لم يتم إلا على يد سلااتهم التي أتت بعدهم بكثير ، وما وقف عليه
الحفاريون أيضاً معرفة شدة اهتمامهم بخزن الحبوب وذلك بوضعها في أوان فخارية
كبيرة الحجم .

ولم يمض وقت طويل على سكان سيالك حتى نبغ نساؤهم في عمل الفخار ،
وتفننت المرأة السيلكية في عمل أشكال جديدة منها وزخرفتها بزخارف على درجة
غير قليلة من الذوق الفني .

كانت سيالك واحدة من القرى على حافة البحيرة القديمة ، وكانت هناك قرى
أخرى غيرها عاش فيها قوم من الجنس نفسه تشابهت ثقافتهم مع ثقافة سيالك ،
وإن اختلفت بعض المظاهر اختلافاً يسيراً . وكانت هذه المحلات متصلة ببعضها
البعض ، ومتصلة أيضاً بغيرها من سكان الحضبة كلها وما وراءها من بلاد ،
وذلك عن طريق تبادل التجارة لأن النحاس لا يوجد إلا على مسافة تزيد عن
١٦٠ كيلو متراً إلى الجنوب ، وكان حجر الأوبسيديان يأتي إليها من الجبال التي
حول بحيرة فان (Van) ، وكان الفيروز يأتيها من خرزباد .

وهكذا نرى أن طبيعة بلاد الحضبة الإيرانية لم تكن جافاً دون اتصال
سكانها ببعضهم البعض ، ولم تقف دون ذلك الجبال الوعرة أو المناطق الموحشة .

بل هناك ما هو أكثر من ذلك، إذ أننا نعرف أن ثقافة سيالك امتدت إلى مسافات بعيدة ، وكان أهلها يحملون بعض ما يصنعونه من فخار إلى من جاورهم من الشعوب أو يأتى إليهم الآخرون للتجارة فيمودون ومعهم بعض صناعاتهم .

فمثلا عثر الباحثون في شمال إيران عند تل « أناو » (Anau) في واحة المرو على عدة قرى تشبه حضارتهم حضارة أهل سيالك الأقدمين ، واسكنهم كانوا قد تقدموا خطوة جديدة نحو الحضارة ، إذ كانوا يستعملون الطوب المجفف في الشمس في مبانيهم ، ولسكنهم ظلوا على عاداتهم في دفن موتاهم تحت أرضية المنزل ودفن أطفالهم في الأواني .

إيران قبل عام ٣٠٠٠ ق.م . :

وأيضا كيف بدأت الحضارة في إيران منذ أبعد العصور ، وكيف تميزت من بينها حضارة سيالك التي لم تكن في الحقيقة إلا فرعا من دوحة كبيرة كانت لها ثقافة متحدة وصناعة فخار واحدة . وهي ، وإن ظهر بينها شيء من الاختلاف ، فإنه اختلاف أملت ظروف محلية جعلت كل فائخورة أو مصنع من المصانع — إن جاز لنا استعمال هذا التعبير — ينتج فخارا فيه بعض تفاصيل في أشكاله أو رسومه تميزه عن غيره . غير أننا نستطيع أن نقول إنه في الألف الرابع قبل الميلاد كانت حضارة سيالك ظاهرة جدا بين من كان حولها مثل قوم (Qum) وساه (Saveh) والري (Rey) وتبي حصار ودمغان . أما في الجنوب فكانت هناك عدة مراكز للحضارة نفسها أهمها سوسا التي ربما كانت ذات أثر على حضارة سيالك ، وتل باكون (Bakoun) على مقربة من تحت چامشيد (پرسپولیس Persepolis) وغيرها .

وبالرغم من أن فحص كل مناطق إيران التي ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ (أي قبل ٣٠٠٠ قبل الميلاد) لم يتم بعد ، فإننا نلاحظ أن هذه الحضارة انتشرت في جميع الأرجاء العامرة بالهضبة ، وسارت إلى المناطق البعيدة فأصبحت تعم

جزءاً كبيراً من آسيا ، بل عمت بلاد غربى آسيا بأكملها ، إذ وصلت إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وإلى بلاد التركستان الروسية ووادى السند . وقد دلت الأبحاث الأثنولوجية على أن القوم الذين كانوا يعيشون فى واحات إيران فى ذلك العهد ينتمون إلى فصيلتين من جنس واحد ، أطلق عليه علماء الأجناس اسم الجنس الآسيوى أو الآسيانى (Asiatic) ، وهو جنس لا يمت بصلة إلى المجموعة المعروفة باسم المجموعة السامية أو المجموعة الهندو - أوروبية . وهناك من أراد أن يطلق عليه اسم الجنس الفوقازى ، وأحياناً الجنس القزوينى (Caspian) ، وبعضهم أراد أن يطلق عليه اسم الجنس الياقى (Japhethite) ، وينقسم هذا الجنس إلى ثلاثة جماعات :

١ - الجماعة الأولى منها تسمى أارات أو الأورارتيون (Ourartians) أو الجنس الفقى (Vannic) وهم سكان أرمينيا القدماء ، ومن هذه الجماعة أيضاً الكاسيون (Kassites) والعلاميون (Elamites) والحيثيون (Hittites) والميتانيون (Mitanni) .

٢ - والجماعة الثانية منها الليكيون (Lycians) والكاريون (Carians) والميسيون (Mysians) ، وكذلك الإترسك (Etruscans) والإسكريتيون (Cretans) .

٣ - أما الجماعة الثالثة فمنها الإيبيريون (Iberians) والباسك .
وجميع شعوب تلك الجماعات الثلاثة كانت تتكلم فى الأصل لغة واحدة ، ومن المحتمل أن يكون السومريون فرعاً منهم انفصل عن مجموعته منذ أزمان بعيدة ، وتطور تطوراً خاصاً به .

وهؤلاء الآسيانيون هم أصل حضارة غربى آسيا ، وكان أسبق هذه الشعوب فى استعمال الفخار هم سكان هضبة إيران الذين كان لهم أثر كبير على غيرهم .
ولذا أردنا معرفة شىء عن أصل ديانة أقدم سكان إيران فإتينا يجب أن نبحث عن عقيدة أقدم سكان بلاد الرافدين (السومريين) فإنهم من الجنس

نفسه ، على الأرجح . فرى أنهم كانوا يعتقدون أن الحياة قد أتت من الآلهة وأن الوجود لم يتدرج ، وإنما جاء مرة واحدة ، وأن مصدر الحياة جاء من الآثى ولم يأت من الذكر ، وهذا على عكس الديانة المصرية القديمة (١) .

وكانت عبادة الإلهة - الأم ، التى كانت تمثل على صورة امرأة عارية ، منتشرة فى جميع الحضبة ، وفى جميع أرجاء غربى آسيا فى عصر ما قبل التاريخ ، وكان الذكر المتصل بها هو ابنها ، وهو الذى يقوم فى الوقت ذاته بدور الزوج . وليس من المستبعد أن يكون أصل عادة الزواج بين الأخ وأخته راجعة فى أصلها إلى هؤلاء القوم ، فقد كانت هذه العادة منتشرة قديماً فى غرب آسيا ثم ظلت بين الفرس ، وأخيراً كانت شائعة بين الأنباط لأنها ظلت بين السكان الأصليين فى البلاد ، وكان المهاجرون إليهم أو الفاتحون الذين يستوطنون أرضهم سرعان ما يقبلون على اتباع بعض عادات السكان الأصليين خصوصاً إذا اتخذوا من نساء البلاد زوجات لهم . وإن كان الزواج بين الأخ والأخت شائعاً بين كثير من الشعوب ، فإن هناك أيضاً عادة الزواج بالأم ، ولكن هذا نادر بين سكان تلك المنطقة من العالم . ولعل أصل هذه الديانة هو السبب المباشر فى عادة التوريث عن طريق الأم ، وهى العادة التى كانت منتشرة بين العيلاميين والإتروسكيين ، وكانت منتشرة أيضاً على نطاق واسع بين الليكيين . وكان للنساء بين بعض تلك الشعوب حق قيادة الجند ، مثل ما كان متبعاً بين الجوتيين ، وبين سكان جبال الكردستان . وبالرغم من أن النظام القبلى وزعامة فرد على عائلته كانت معروفة ومنتشرة ، إلا أن الوقت كان مازال بعيداً عن الوصول إلى فكرة تملك فرد واحد على كل البلاد تحت اسم الملك ، لأن البلاد حتى ذلك الوقت لم تكن قد نضجت للاتحاد السياسى .

وانتشرت حضارة الحضبة الإيرانية فى جميع الأنحاء ووصلت إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت أيضاً إلى التركستان ، كما أشرنا إلى ذلك ، وإلى

(١) R. Ghirshman, *L'Iran des Origines à l'Islam* (1951), p. 31.

بلوخستان، وإلى شمال غربى شبه جزيرة الهند ، وتدرجت هذه الحضارات تدرجها
العادى بوجه عام ، ولم تزدهر ازدهاراً كبيراً إلا فى حوض وادى السند ، ولكن
هذا الازدهار لم يسكن فى الألف الرابع ، وإنما كان فى أوائل الألف الثالث
قبل الميلاد .

الألف الثالث قبل الميلاد :

تتبعنا تطور الحضارة فى سيالك ، وأشرنا إلى صلتها بالبلاد الأخرى فى
الهضبة الإيرانية ، وبخاصة فى سوسا التى كانت هى الأخرى مركزاً هاماً تطورت
فيه الحضارة ، وكان لرخارف فخار سوسا وپرسپوليس منذ أوائل الألف الرابع
قبل الميلاد أثر مباشر على جميع حضارات غربى آسيا ، واتصلت من ناحية أخرى
بأواسط آسيا . وما من شك فى أنه كانت توجد صلات بين هضبة إيران وبين
بلاد الرافدين ، ولا شك أن فخار هذين البلدين وبعض منتجاتهما كانت تصل من
واحدة إلى الأخرى ، ولكن من الثابت أيضاً أن عيلام (ومركز حضارتها فى
سوسا) كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من التقدم ، وأن أسس حضارتها
كانت إيرانية النشأة ، ولم تتأثر ببلاد الرافدين إلا فى نواح محدودة فى عهدها
المبكر . فى عصر جمدة زهر كانت بلاد الرافدين قد توصلت إلى معرفة الكتابة ،
وفى هذا الوقت أيضاً أى قبيل عام ٣٠٠٠ ق . م . كانت سوسا توصلت أيضاً
إلى طريقة للكتابة مستقلة عن بلاد الرافدين ، وهى الكتابة التى أطلق عليها
العلماء اسم «قبل العيلامية» ، والتى انتشرت فى أرجاء الهضبة ووصلت إلى سيالك ،
حيث عثر على بعض ألواح صغيرة ربما كانت مثبتة إلى بعض أنواع السلع
التجارية . وبالرغم من أنه لم يتم حتى الآن فك رموز تلك الكتابة ، إلا أننا نرى
فى رسوم الأشياء الواردة فيها سواء أكانت طيوراً أو حيوانات أو نباتات
أو رسم جسم الإنسان أو أجزاء منه أو غير ذلك ، تقدماً واضحاً لأنها خلفت
وراءها المرحلة الأولى ، وأصبحت شبه صور بعد أن كانت فى الأصل صوراً
صحيحة . وهذه الألواح الصغيرة (البطاقات) التى عثر عليها فى سيالك هى الأشياء

الوحيدة المكتوبة التي عثر عليها في إيران من صنع سكان الحضبة القدماء ، ويرجع تاريخها إلى ما قبل أيام الدولة الأخمينية .

وبالرغم من أننا نعرف شيئاً غير قليل عن أقدم مظاهر الحضارة في الحضبة الإيرانية ، ووصل إلى أيدينا الكثير من مخلفاتها ، وعلى الأخص الفخار والحلي ، وصرفنا بعض عاداتهم وبخاصة في دفن الموتى ، إلا أننا لا نعرف الشيء الكثير عن تلك الحضبة خلال الألف عام التي تلت ذلك . ونحن نقصد من ذلك الحضبة الإيرانية بمعناها الجغرافي ، ولا يدخل في ذلك عيلام (وتسمى أحياناً سوسيانا) أى سوسا وما حولها ، إذ أنها كانت في السهل وعلى مقربة من بلاد الرافدين . كانت عيلام منذ بدء حضارتها وثيقة الصلة بحوادث تلك البلاد ، فتارة يهجم سكانها على جيرانهم ، وتارة يخضع لإقليم سوسا للدول الناشئة في بلاد الرافدين ، أما ما عدا ذلك فكان له شأن آخر . وظلت بلاد الحضبة الإيرانية بعيدة عن تأثيرها تأثراً كبيراً بحوادث بلاد الرافدين ، بل أن الوثائق البابلية والآشورية قلما أشارت إليها إلا في العصور المتأخرة لأن الكتّاب البابليين كانوا ينظرون إلى جبال زاغروس كآخر حدود المدنية ، ويعتبرون من يسكن خلفها من الشعوب قوماً همجاً لا يستحقون اهتمامهم .

ولكن عيلام التي كانت مركزاً رئيسياً من مراكز الحضارة في العالم القديم ، كان لها شأن آخر ، فقد نزل سكانها إلى ذلك السهل من الناحيتين الشمالية والشرقية ، وكونوا أسرة حاكمة في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد مدت سلطانها على منطقة واسعة من السهول والجبال ، كما مدت سلطانها على جزء غير قليل من الخليج الفارسي ، وكثيراً ما أغارت على بلاد الرافدين نفسها واحتلت جزءاً كبيراً منها .

وعندما توسع سرجون الأكدي في حروبه وذلك حوالي عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد ، أخذت عيلام تفقد استقلالها بعد أن غزتها جيوش الأكديين ، ومنذ ذلك التاريخ كثيراً ما يتردد اسمها في التاريخ البابلي ، ونقرأ عن ثوراتها مثل تلك

الثورة التي قامت بها في عهد « نرام - سين » ، وانتهت بتعيين حاكم أكدي عليها ، وأخذت اللغة الأكديّة ، السامية الأصل ، تحل محلّ لغتها العيلامية القديمة .

كان ذلك الحاكم الأكدي الأول رجلاً سامياً ، ثم عين « نرام - سين » حاكماً آخر عيلامياً يسمى « پوزور - إنشوشيناك » ، (Puzur Inshushinak) ، نراه قد أخلص الأكديين فأخضع ما جاور عيلام من البلاد لنفوذهم . فهاجم الجوتيين وأحضر كثيراً مما نهبه من بلادهم إلى سوسا ، وبني مما تجمع لديه من الثروة عدة منشآت ومعابد في عاصمة العيلاميين . واتسع نفوذه ، وجاه رؤساء البلاد المجاورة يقدمون له الطاعة ويدفعون له الجزية ، فلما مات « نرام - سين » وجد « پوزور - إنشوشيناك » الفرصة سانحة للاستقلال ببلاده ، ولم يكتف بذلك بل أراد الاستيلاء على أكد نفسها ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن هزمته جيوش أكد في معركة تكبد فيها الحصان كثيراً من الخسائر . وعاد « پوزور - إنشوشيناك » إلى بلاده مستقلاً بشؤونها وتولى عرشها ، ولكن لم يمض غير قليل حتى عادت القبائل الجوتية وغيرها فاقبضت على عيلام منتهرة فرصة ضعفها ، فاقبضت لنفسها وخربت الكثير مما كان فيها^(١) .

ونعرف من تاريخ بابل أيضاً أن الجوتيين هاجموا في منتصف الألف الثالث وقضوا على مملكة سرجون ، وظلت لأولئك الجلبيلين السيادة على سكان السهول فترة غير قليلة ، ولكننا نعرف أيضاً أن التجارة ظلت مستمرة ، وكان الجوتيون يحنون من ورائها أرباحاً كثيرة :

وليس يعنيها الآن تاريخ الجوتيين في بلاد الرافدين ، ولكن الذي يعنيها هو ما كان يحدث إذ ذاك في الهضبة الإيرانية . ولسنا نعدو الواقع إذا قلنا

(١) لم يكن پوزور — إنشوشيناك هو أول من هاجم قبائل الجوتيين Gull واللوليين Lullabi بل سبقه إلى ذلك كل من سرجون و« نرام - سين » . ولم تكف تلك القبائل بحاجة عيلام بل هاجمت واحدة بعد الأخرى بلاد بابل نفسها ، واحتل اللولويين المنطقة التي يمر منها طريق التجارة الموصل بين بغداد وطهران ماراً بكرمنشاه ومهدان .

إننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا أهمية عن الحضبة في ذلك العهد ، وأكبر الظن أن البلام ظلت في حالة من الركود ، وربما كانت الحروب بين الشعوب الجبلية نفسها سبباً في تدهورها . ففي سيالك لم يجد جرشمان ، أى آثار هناك طيلة فترة لا تقل عن ألفي سنة ، ولكن كانت هناك مناطق أخرى مثل جيان Giyan كانت عاصمة بسكانها الذين كانوا يصنعون فخاراً يتبعون في أشكاله وزخارفه بعض التقاليد القديمة ، ولكن هذا الفخار كان متأثراً بمحضارة بلاد الرافدين . ونرى أيضاً زيادة استخدام المعادن وبخاصة البرونز والفضة في الحلى ، وفي صناعة الأدوات الأخرى الصغيرة الحجم .

وهكذا أمضت الحضبة الإيرانية الألف الثالث قبل الميلاد ، حسب ما وصل إلينا من معلومات حتى الآن . وسواء أمدتنا الحفائر في المستقبل بمعلومات أهم أو بقينا على معلوماتنا الحالية ، فإنه من المؤكد أن سكان الحضبة الإيرانية لم يكونوا في الألف الثالث قبل الميلاد أو حتى في الألف الثاني أى وحدة قوية ، كما حدث فيما بعد ، بل ظلت قبائل متفرقة يحارب بعضها البعض ، ولا يهتمها إلا البقاء في أوطانها ، يحيا بعضها حياة سكان الجبال قانعين بؤديانهم الخصبية القليلة ، ومعتمدين على مراعيهم وعلى ما يجنونونه من التجارة^(١) .

الألف الثاني قبل الميلاد وهجرات الشعوب الهندو - أوروبية :

ومن الجائز جداً أن الأحوال العامة في تلك الحضبة كانت ستظل كما كانت

(١) كانت إيران منذ أقدم عصورها تستخرج النحاس من مناجها وتعمله لتبيعه في بلاد الرافدين ، ولشأت فيها مراكز هامة لصناعة الأدوات النحاسية على نطاق واسع مما حدا ببعض العلماء إلى القول بأن نشأة صناعة النحاس كانت في تلك البلاد (H. Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient* (1954), p. 203.

أما الذهب واللازورد فكان يجلبهما التجار من إقليم باكتريا (Bactria) في أفغانستان عن طريق إيران ، كما كانت عيلام تسمد بلاد الرافدين دائماً بأنواع الحيوانات لتبقى على سلاسلها لأن جو السهل لم يسكن صالحاً لها .

عليه في الألف السابق لولا أن أصبحت إيران مسرحاً لحادث تاريخي هام لم يؤثر على الحضبة الإيرانية فحسب ، بل وأثر أيضاً على جميع بلاد الشرق القديم ، بل وما زال أثره باقياً حتى الآن .

ذلك هو بدء هجرات عدة شعوب من أواسط آسيا أطلق عليهم الباحثون في العصر الحديث اسم الشعوب الهندو - أوروبية . لم يفد أولئك القوم كحاريين ، وإنما أتوا كهاجرين من بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وحيواناتهم ليستقروا في بلاد غير موطنهم الذي ربما يكون الجفاف قد أصابه لفترات طويلة جعل العيش مستحيلاً فيه ، فقرروا بأنفسهم منحدرين إلى السهول ، أو ربما يكونون قد فروا أمام هجوم شعوب أخرى عليهم من ناحية الشرق (١) .

لم يكن كل أولئك المهاجرين من شعب واحد ، ولم يهاجروا في وقت واحد ، بل ولم يتخذوا طريقاً واحداً . أما موطنهم الأصلي الذي نشأوا فيه فعلى أرجح الآراء كان في السهول الجنوبية من الاتحاد السوفيتي .

وحوالي عام ٢٠٠٠ ق . م . أو قبل ذلك بقليل ، بدأت طلائعهم تنزل إلى أعلى الفرات واستقر بعضهم في سوريا ، أولاً كقوم مسالمين في خدمة غيرهم ، ثم أصبحوا قوة حربية متماسكة وكونوا في أماكن كثيرة مراكزاً لنفوذهم وأصبحوا خطراً على أمن البلاد بصفة عامة ، ولكنهم لم يصبحوا خطراً حقيقياً إلا بعد مضي فترة من الزمن لا تقل عن قرنين من الزمان أو ثلاثة قرون وبعد أن جاءت إليهم أفواج أخرى من جنسهم .

وكان هناك طريقان رئيسيان للهجرة سار في كل منهما بعض الشعوب أحدهما الطريق الذي سار فيه بعضهم حول البحر الأسود ونزلوا إلى البلقان ، ثم تقدم

(١) من الجائز أن تلك الشعوب قد فرت لضغط شعوب أخرى من تلك التي كانت تسكن في منغوليا وفي منغوليا ، وكانت بينها وبين الصينيين معارك مستمرة . وقد تكررت حالات مثل تلك الهجرات بسبب ضغط تلك القبائل (قبائل الهون) أكثر من مرة في التاريخ فبإبعد ، كما أنه من الجائز أيضاً أن تكون الهجرة قد حدثت بسبب تكاثر القطعان وعدم كفاية المراعى لها .

فريق منهم قعبر بوغاز البوسفور ووصل أخير إلى آسيا الصغرى حيث وجدوا هناك شعباً يسميه علماء الأجناس « الأناضوليين القدماء » ، وهم شعب جبلي من أصل آسياني . ولم يطل عليهم الوقت حتى أصبح هؤلاء الوافدون الجدد الطبقة الحربية المتسلطة على غيرها ، وكونوا دولة الحيثيين التي أصبحت لها فيما بعد شأن يذكر ، وهجموا على بابل فنهوها ، ولكنهم عادوا أدراجهم على عادة البدو ، ولم يثبتوا أقدامهم هناك . وبعد مدة من الزمن قامت بينهم عائلة طموحة كانت قد تحضرت ، فخرجت خيتا في منتصف الألف الثاني لتشييد إمبراطورية واسعة شملت بعض الشعوب الآسيائية والشعوب الهندو-أوربية التي كانت تحكم في سهول بلاد الرافدين وشمال سوريا إلى أن اصطدمت بالإمبراطورية المصرية^(١) .

أما الفرع الآخر من تلك الشعوب فهو الفرع الذي اتجه نحو الشرق ، والذي دار حول بحر قزوين وعبر القوقاز واستقر أخيراً في أعالي الفرات .

وربما كانت القبائل التي سارت في ذلك الطريق أو أحد فروعها الهامة مكونة من العنصر الحربي الأريستوقراطي بين تلك الشعوب . نزل هذا الفرع الجديد في وادي الرافدين واستقر في البلاد التي كان يحتلها شعب آسياني آخر وهو الشعب الحوري ، ولم يمض غير وقت قليل حتى صار اسمهم مملكة ميتاني التي بسطت نفوذها على شمال بلاد الرافدين (المنطقة المعروفة الآن باسم كردستان) وعلى وديان شمال جبال زاغروس ، وصارت وجهاً لوجه أمام دولة آشور ، وأصبحت خطراً حقيقياً عليها . ووصلت هذه المملكة الجديدة إلى أوج عظمتها في منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد (حوالي ١٤٥٠ قبل الميلاد) ، وتحالفت ملوكها مع فراعنة مصر وصاهروهم .

(١) فلك هو أحد الآراء عن أصل الحيثيين ، ولكن هناك رأى آخر وهو أنهم من السكان الآسيانيين الأصليين في مضية آسيا الصغرى .

وسار فرح آخر من تلك الشعوب متجها نحو الشرق محاذياً لجبال زاغروس ، واستقر أكثرهم إلى الجنوب من الطريق التجارى الكبير التى كانت تسير فيه القوافل ، وكونوا من أنفسهم طبقة حاكمة بين الكاسيين (وهم شعب أسياني مثل الحوريين) ، وأصبحوا أصحاب السلطة فى تلك المنطقة التى اشتهرت بأنها تنتج خير جياذ العالم .

لم يكن القوم الذين آثروا الاستقرار فى أرض الكاسيين إلا أقلية منها ، أما السواد الأعظم من تلك الشعوب فقد استمر فى طريقه نحو الشرق فعبروا تلك البلاد ووصلوا إلى سهل بكتريا فى أفغانستان ومروا من هناك فى الممرات الجبلية إلى الهندو — كوش ، ومن الهندو — كوش ساروا فى طريق القوافل إلى الهند منحدرين مع مجرى نهري پنديشير (Pandishir) وكابول حتى وصلوا إلى شمالى الهند ، فاستقروا فيها وهاجوا مراكز حضاراتها القديمة مثل موهنجو دارا وهاراپا ، وأسسوا ممالك جديدة ، وأدخلوا ديانتهم إلى تلك البلاد ، ومزجوا بين عاداتهم وبعض العادات المحلية . وأصبحت لغتهم هى اللغة السائدة وضاعت اللغة القديمة ، وما زال يعيش أحفادهم حتى اليوم ، وأقربهم إلى أولئك الأجداد وأحفظهم لتقاليدهم وأساطيرهم هم طائفة الهندوس .

كان السواد الأعظم من أولئك الهندو — أوروبيين يعيشون حياة البداوة وكانوا يمتازون بالقوة والجلد ولديهم ميزة حب القتال ، ويربط بينهم نظام قبلى . وليس معنى حياة البداوة أنهم لم يعرفوا التقدم أو كانوا همجا لم يصل إلى علمهم شئ من مقومات الحضارة ، ولكنهم كانوا أقواما يعرفون الكثير من الأشياء ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بالحرب أو الدفاع ، كما عرفوا بعض الصناعات التى تناسب بيئتهم المتنقلة ، وكانوا يحسنون الفروسية وصنع الأسلحة وما يماثلها من الأدوات المعدنية .

وأمثال تلك الشعوب لا ينقصها الذكاء ، ولا تنفر من اقتباس كل ما يقع تحت أنظارها إذا وجدته نافعا لها ، ولكنها تنفر من ترك تقاليدھا المتأصلة فى

نفسها ، وكثيراً ما يبقى زعماءها قادة حربيين لشعوبهم ، يعيشون في حصون أو في خيام ولا تحلو لهم متعة في أوقات فراغهم مثل متعة الصيد الذين يرون فيها مراناً لهم ، وميداناً تتجلى فيه مواهب الشباب من أبنائهم أو أتباعهم .

ومن الملاحظ أن الأجيال القليلة الأولى من أمثال تلك الشعوب تظل في هدوء نسبي ، ولا تسبب مضايقات لا مبرر لها مع أي سكان ينزلون بينهم ، ولكن أبنائهم الذين يشبون على مرأى من مظاهر الحضارة ، وربما كانت أمهاتهم من بنات البلاد التي ينزلون بها يصبحون أسراء أذكفاء ناجحين ، ويطمحون نحو التوسع ، وينجحون في ذلك بفضل تماسك قبائلهم وقوتهم الحربية ، وبفضل من ينضم إليهم من أبناء البلاد أنفسهم طوعاً فيما ينالونه من مغايم في تلك الحروب .
وانكتف الآن بهذه المقدمة البسيطة عن الشعوب الهندو - أوروبية . فسنلتقي بهم منذ الآن مرات ومرات ، وننتقل إلى الحديث عن إيران بادئين بعيلام .

عيلام والكاسيون في إيران :

كانت تلك المنطقة — كما سبق أن أوضحنا — ذات طابع خاص ، وتتأثر بما يجري في بلاد الرافدين مثل تأثرها بما يجري في الحضبة الإيرانية ، أي أن تاريخها طوال أيامها كان شديداً وجذباً بين سكان الجبال في الحضبة ، وسكان السهول في بلاد الرافدين .

وعندما بدأ الألف الثاني قبل الميلاد كانت عيلام مستقلة بنفسها عن بلاد الرافدين ، وتحكمها عائلة منها ، ولكن تأثرهم ببلاد الرافدين جعلهم يستخدمون اللغة الأكديّة والكتابة الأكديّة في معاملاتهم بعد أن تسربت إليها بعض الكلمات العيلامية ، واسكنهم ظلوا يعبدن آلهتهم القديمة ، وعلى الأخص « شالا » وزوجها « إنشوشيناك » ، وإن كانوا في الوقت نفسه يقدمون القرابين والعبادات إلى بعض الآلهة البابلية .

وغزا العيلاميون في مستهل ذلك الألف بلاد بابل ، وأسس أحد أمرائهم مملكة في « لارسا » ، وما لبث العيلاميون أيضاً حتى استولوا على « إيسين » ، وبسطوا سلطانهم على مدينة « الوركاء » بل وعلى مدينة « بابل » نفسها ، ولم يقف هذا التوسع إلا عندما تولى حمورابي عرش مدينة بابل في عام ١٧٢٨ ق. م. وبعد أن قضى واحداً وثلاثين عاماً على العرش ، دانت له فيها بلاد كثيرة ، واتسع ملكه وأصبح قوياً واثقاً من نفسه ، قرر أن يهاجم خصمه العيلامى « ريم - سين » ، وبعد عدة معارك انتهى حمورابي من القضاء على استقلال عيلام . وبعد دورة أخرى من دورات الزمن ، بعد ما يقرب من قرن آخر ، حاول أحد العيلاميين استعادة ذلك الاستقلال ، ولكن ذلك الأمر لم يطل فقد كان الكاسيون يتأهبون للقيام بعمل جديد قضى على سلطان كل ملوك بلاد الرافدين وغيرهم من سكان تلك المنطقة .

ليس الكاسيون في الأصل شعباً هندياً - أوروبياً بل كانوا آسيانيين وفقدت إليهم بعض الشعوب الهندو - أوروبية ، فأقامت بينهم وامتزجت بهم ، فكان ذلك الامتزاج وتلك الهجرة باعثاً على ظهور نهضة جديدة بين ذلك الشعب .

على أية حال فإن وطن أوائك الكاسيين هو ما نسميه اليوم لورستان (Luristan) وهو الجزء الأوسط من منطقة جبال زاغروس ؛ ولكنهم مدوا سلطانهم على أجزاء أخرى من الهضبة ، وفي وقت من الأوقات كانت عاصمتهم عند مدينة إكباتانا ، ومكانها الآن على الأرجح مدينة همدان .

كان الكاسيون في عهد حمورابي ، أى في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، قد أصبحوا شعباً واحداً لأن المهاجرين كانوا قد تأثروا بحضارة أهل البلاد الأصليين واقتبسوا منهم لغتهم وبعض عاداتهم ،^(١) ولكنهم أدخلوا يدورهم

(١) أما ديانة الكاسيين فقد كانت مزيجاً من الديانة القديمة وديانة تلك الشعوب الهندو - أوروبية ، وكان إله الكاسيين الرئيسى يسمى كاشو Kashshu وإليه ينسب الكاسيون. أما الآلهة الجديدة التى وجدت طريقها إليهم فمن بينهم بعض الآلهة التى تعرف بأسماءها فى ديانات الهند مثل شورياش (فى الهند سوريا ، Surya) ، وماروتاش (فى الهند ماروت Marut) .

إلى البلاد روحاً جديدة ، وكون أحفاد المهاجرين القدماء طبقة أرستوقراطية لها زعامة الحرب . وكان للخيال بينهم مكان مرموق ، بل يمكن القول إنهم كانوا يعبدون الحصان ، ويتخذون منه هو والشمس رموزاً مقدسة لديهم^(١) .

وظل الكاسيون يحكمون بلاد بابل نحو ٥٠٠ سنة ، ولكن بلاد عيلام التي كانت هي الأخرى خاضعة للكاسيين استطاعت أن تزيج النير عن عاتقها ، وتستقل بأمورها ، وتبدأ عهداً جديداً من أعظم عصور حضارتها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد كشفت الحفائر في منطقة سوسا في السنوات الأخيرة عن آثار على أكبر جانب من الأهمية وخاصة الزقورة التي كشفت عنها الحفائر في موقع شوجا زمبيل (Choga Zambil) على مقربة من مدينة سوسا إذ وجدوا أن لها ثلاث سلام كل من ناحية بدلا من وجود الثلاثة في ناحية واحدة حسب تنظيم الزقورات البابلية . كما وجدوا أيضا في تلك الزقورة العيلامية أن كل سلم من هذه السلام الثلاثة تنتهي بهيكل أى أنه كان هناك ثلاث هياكل بدلا من الهيكل الواحد الذي كانت تنتهي إليه السلام الثلاثة في الزقورات البابلية^(٢) . كانت أزهى سنى تلك الأسرة العيلامية في المسدة بين أعوام ١٢٠٧ و ١١٧١ أى عهد الملك المسمى « شوتروك - نهوتة الأول » (Shutruk-Nahhunte 1) الذي بنى كثيرا من المعابد في المدن المختلفة في عيلام ، ولم يقف عند ذلك ، بل هاجم بابل واستولى عليها وهزم جيوش ملكة الكاسيين التي كان قد أصابها الانحلال ودب إليها الوهن ، وخلع الملك الكاسي وعين بدلا منه ابنه الذي قبل أن يسكن واليا

(١) ترك شعب الـ « كاسي » (كما كان ينطق في النقوش الآشورية) اسمه وراءه في مدينة قزوين (Kasvin) وفي اسم بحر قزوين ، كما أن كلمة القصدير « كاسيتيروس » باليونانية معناها المعدن « الآتى من الكاسيين » ، وكان اسم مدينة همدان قبل العصر الميدي Akessala وهي مشتقة من كلمة « كار - كاسي » الآشورية ومعناها مدينة الكاسيين R. Girshman, Iran (Pelican Books), p. 65.

(٢) تقرير جيرشمان الذي نشره في مجلة Illustrated London News : 8 August 1953, p. 226-7. وكذلك H. Frankfort, Ibidem, p. 204

يؤدى له الجزية ويقدم له الطاعة ، وحمل « نهوثة » معه إلى سوسا كثيرا من تماثيل الآلهة ومن بينها تمثال الإله « مردوك » الإله الأعظم لبابل .

وتوسعت دولة عيلام بعد ذلك في فتوحاتها ، وأخذت تحمي أجماعها الوطنية القديمة وتخلص نفسها من كل أثر سومرى أو بابلى اعتبرته أجنبيا عنها ، ولكن لم يمض إلا بضعة عشرات من السنين حتى دب الضعف مرة ثانية في عيلام ، وفي الوقت ذاته أخذت دولة آشور في شمال بلاد الرافدين تدخل في فترة من فترات قوتها .

وقبل أن تغيب شمس الألف الثانى أى حوالى عام ١١٢٥ كانت ملكة بابل قد قامت من كبوتها واستطاع الملك نبوختنصر الأول (Nabu-Kudurri-Usur) أن يسحق دولة عيلام ويعيد تمثال مردوك إلى بابل باحتفال عظيم ووضعه في معبده . ولكن دولة بابل اصطدمت بعد ذلك مباشرة بأشور وبدأ الملك الآشورى تيجلات پلصر الأول (Tiglath Phalasar) حملاته الواسعة التي أخضع فيها كل ما حوله من بلاد حتى وصل إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وكان من بين البلاد التي أخضعها عيلام . وسواء اجتاحت جيوشه بلاد الهضبة الإيرانية أو لم تحتجها فإن آشور أصبحت سيدة تلك المنطقة من آسيا ، ونزلت لمران مرة أخرى إلى زاوية من زوايا النسيان ، ولكن إلى حين .

ليران فى الألف الأول قبل الميلاد :

ربما كان العنوان الأصح لهذه الفترة هو النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، لأن هذا الفصل ينتهى عند ظهور الدولة الأخمينية فى القرن السادس قبل الميلاد عندما تبدأ ليران عصرها النهي التي أصبحت فيه إمبراطوريتها أعظم ما رآه العالم القديم ، ودانت أمم الشرق لجيوشها المنتصرة .

سنقف فى هذا الفصل عند ظهور تلك الدولة ، وسنقص هنا باختصار الخطوط الرئيسية لتاريخ ليران فى الأربعة قرون الأولى من الألف الأول قبل

الكيلاذ ، وهى وإن خلت من كثير من أسماء الملوك أو أعمالهم فإنها عامرة بالشىء الكثير من حضارة شعوب نكت الهضبة وحوادثها الهامة التى هيات الطريق لظهور الميديين ثم الفرس على مسرح لتاريخ .

ففى الربع الاخير من الالف الثانى قبل الميلاد أخذت جماعات من الشعوب الهندو - أوروبية تأتى مهاجرة ، كما حدث من قبل ، ونزلت من مواطنها فى جنوبى روسيا وأواسط آسيا لتستقر فى أوروبا وفى الشرق ، ولكنها كانت فى هذه المرة قوى حربية أكثر تنظيما ، ويستخدم جنودها الجياد على نطاق واسع ، وكانت لهم أساليب حربية خاصة بهم أكثر مما كان لديهم فى هجراتهم السابقة . ومنذ عام ١٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب نرى جماعاتهم وقد دارت حول البحر الأسود ووصلت إلى البلقان . ونرى القبائل المعروفة باسم الشعوب الليرية تدفع أمامها الشعوب التراقية والشعوب الفريجية والأرمنية والميسينية إلى آسيا الصغرى فانهضت بدورها على دولة الحيثيين فهزمتها وقضت عليها . وهاجرت شعوب أخرى من تلك التى جلت عن ديارها فى أوروبا ، وركبت السفن وأخذت تجوب البحر الأبيض المتوسط باحثه عن أوطان جديدة ، فاستقر بعضها على الشاطئ الشمالى لإفريقيا ، واستقر بعضها فى جزر البحر الأبيض أو على شواطئه الشرقية ، وأصبحوا خطرا كبيرا على مصر عندما أخذوا يهاجمونها من حدودها الغربية فى عهد الملك منفتاح ، ثم زاد خطرهم عندما تحالفت تلك الشعوب وهاجمت مصر من البر والبحر فى وقت واحد فى عهد الملك رمسيس الثالث ، إذ لولا جهود المصريين لهم فى ذلك الوقت اتمكرت نكبة الهكسوس ، بل وربما كانت فى هذه المرة أشد وأبعد أثرا .

واستقرت شعوب كثيرة فى جهات متفرقة من سوريا وأسس زعمائها إمارات مستقلة ، كما تحدثنا عن ذلك فى الفصلين الخاصين بسوريا ، ولكن سيل الهجرات لم يقف بل أخذ يزداد . وفى بداية الالف الاول أخذت بعض تلك الشعوب ، وهى التى يطلق عليها اسم الإيرانية ، تستقر فى هضبة إيران . كان

أولئك الشعوب ممن يحيون حياة البداوة معتمدين على قطعانهم ، ولم يكونوا من الشعوب الزراعية ، كما كانوا يحسنون أيضا تربية الجياد ويحسنون ركوبها واستخدامها في الحروب . ولم يمض وقت طويل حتى كان زعمائهم يحيون حياة الأمراء الإقطاعيين ، يعيش كل منهم محاطا بجنوده وبلاطه ، ويبدل العمال والصناع جهودهم في خدمته ، ويعمل الفلاحون من أجله في أراضيه التي يملكها ولا يستطيع التجار أن يزاولوا عملهم إلا بإذنه ورضائه ، بعد أن يخضعوا لما يفرضه عليهم .

ولذا كان أمراء تلك الشعوب قد استقروا في بعض جهات آسيا الغربية أو في هضبة إيران وما جاورها ، فإن الآشوريين في بلاد الرافدين كانوا في تلك الفترة وهي القرون الأولى من الألف الأول قد دخلوا في إحدى دورات قوتهم بل في أعظم أيام الإمبراطورية الآشورية ، ولهذا خضع لها من كان في طريق فتوحها من أولئك الأمراء غربا في سوريا وفي غيرها . ولم يقف في وجههم من ناحية الشرق إلا قوتان إحداهما ملكة أورارتو أو أورات التي عرفت باسم أرمينيا فيما بعد وكانت في الشمال ، أما القوة الثانية فكانت الإيرانيين الذين كانوا في الهضبة . ولترك الآن الآشوريين وترك الأورارتيين ، ونقصر حديثنا فقط على الإيرانيين .

فقد عثر في بقاع مختلفة من الهضبة على بعض مقابرهم وعلى القليل جدا من بقايا عمائرهم الحربية ، ومن أهم تلك الأماكن سيالك في واحة قاشان حيث شيد أولئك القوم الحصن الذي كان يقيم فيه زعيمهم فوق المرتفع الذي كان يقيم فيه أهل سيالك في عصر ما قبل التاريخ^(١) . ولم يتبع الإيرانيون ما كان يتبعه أهل سيالك القدماء من عادة دفن الموتى تحت أرضية المنازل ، بل كانوا يدفنون موتاهم في جبانات خاصة ، وكانت سقوف المقابر مدببة على شكل جملون مثل سقوف منازل الشعوب الشمالية ، وكانوا يضعون إلى جوار الميت أسلحته وحليته وملابسه

(١) نرى على بعض الآثار الآشورية رسوما لمعابد أو حصون كان قد أقامها بعض أولئك الشعوب الذين اصطدم بهم الآشوريون .

وكثيراً من الألوان ، وغير ذلك من الأشياء الخاصة . وقد عثر جيرشمان ، على آلاف من تلك الأشياء ، من الحراب والسيوف والخناجر وأنواع الأسلحة المختلفة ، ومنها أطقم الخيل ، كما وجد أيضاً كثيراً من الحلى مثل الأساور والعقود والأقراط والخلاخيل ، وبعض ما كان يتحلى به النساء والرجال من أحزمة وصديريات ، وما كان النساء يضعنه في شعورهن من دبابيس معدنية طويلة لها رؤوس حيوانات ، أما المعادن التى صنعت منها تلك الأسلحة والحلى والأواني فإنها كانت فى الغالب من النحاس والبرونز ، ولكن أكثر أسلحة الزعماء كانت من الحديد ، أما الحلى فكان بعضها من النحاس والبعض من الفضة أو الحديد أو الذهب .

واستمر الإيرانيون فى صناعة الأواني الفخارية وزخرفتها ، ونجدهم قد مزجوا الفنون المحلية القديمة ببعض تأثيرات غريبة جديدة ، ونرى على بعضها زخارف جميلة يدخل فيها رسم الحصان والشمس مع بعض رسوم هندسية ، كما نرى على بعضها مناظر المحاربين التى تذكرنا بأقدم زخارف الأواني الفخارية التى عثر عليها فى اليونان ويرجع تاريخها إلى ذلك العصر على وجه التقريب .

الكيكسريون والإسكنديون :

ووردت أسماء بعض الشعوب الإيرانية فى الوثائق الآشورية ، فى حوليات الملك شمنصر الثالث ذكروا اسم الفرس (Parsua) فى عام ٨٤٤ قبل الميلاد ، وذكروا الميديين (Madai) فى عام ٨٣٦ ، وكان الفرس إذ ذاك يحتلون المنطقة التى تقع إلى الغرب والجنوب الغربى من بحيرة أورميا ، أما الميديون فكانوا فى الجنوب الشرقى منها . ووردت أسماء غيرهم أيضاً ، ولكن هذه الشعوب لم تظل فى أمكنتها بصفة دائمة ، بل أن فروطاً منها كانت ترك موطنها لتستقر فى مناطق أخرى من الحضبة وكانت تحمل معها أسماءها الأصلية ، ولهذا يصعب علينا فى تلك الفترة أن نحدد بالضبط موطن أى شعب من تلك الشعوب فى الحضبة الإيرانية

لأنهم كانوا يشنون الغارات على بعضهم البعض وتنتقل فروع منهم من واد إلى واد ، إذا طاب لها العيش هناك وأجلت عنه أهله القداماء .

ومهما حاولنا إغفال ذكر أسماء من نعرفهم من تلك الشعوب التي استقرت في الهضبة الإيرانية في ذلك العهد فإنه لا بد من ذكر اسمي شعبين وهما الكيميريون ، (Cimmericians) والإسكيزيون (Scythians) إلى جانب الميديين والفرس لأن كلا من هؤلاء الأربعة لعب دوراً رئيسياً في تاريخ إيران في تلك الفترة .

فقد هجمت جحافل الكيميريين والإسكيزيين على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، وأصبحت لها السلطة في شمال غرب إيران ، وكان دأبهم هو النهب والقتل وإحراق البلاد وتدميرها . نزلوا كما وصفهم أحد المؤرخين كجبري من نيران البراكين ، يحطمون كل ما في طريقهم ، وقد عرفنا الشيء الكثير عنهم مما سجلته الوثائق الآشورية وما كتبه المؤرخ الإغريقي هيرودوت ، ومن المرجح أن هاتين القبيلتين كانتا من أصل واحد ، وربما كان الكيميريون من سكان شبه جزيرة القرم ، تركوا موطنهم وداروا حول البحر الأسود . وكانت أولى الدول التي تحطمت أمام جحافلهم هي أورارتو حوالي عام ٧١٤ ق . م . ، ثم انقسموا بعد ذلك إلى فريقين ، سار فريق منهم إلى بحيرة أورميا في الهضبة ، وسار الفريق الأكبر إلى آسيا الصغرى محطاً كل من وقف في طريقه ، ثم استقروا أخيراً في جنوبي البحر الأسود عند مدخل نهر الخالس . وقضى الكيميريون على ملكة الفريجيين في آسيا ، وانتحر ملكها « تيداس » كما فعل « روساس » ملك أورارتو من قبل ، ثم مالوا بعد ذلك على ملكة ليديا فهزموها ، وساروا إلى كيليكييا ولكن آشور بانيبال استطاع أن يطفىء تلك النار المستعرة وينقذ آسيا الصغرى وسوريا منهم ، فهزمهم وفروا راجعين إلى الهضبة ليعيشوا مع أبناء عمهم الإسكيزيين .

أما الإسكيزيون أنفسهم فلم يأتوا أيضاً تاريخ آخر . فقد كانوا فرعا من دوحه كبيرة عثر على كثير من مقابر ملوكهم في جنوبي الاتحاد

السوفيتي^(١). وفي الوقت الذي نحن بصددده الآن ، امتد نفوذ تلك القبيلة المهاجرة إلى إقليم أذربيجان الفارسي وعلى منطقة واسعة حوله ، وقد عثر الحفاريون منذ سنوات قريبة على أثر لأحد الملوك الإسكيزيين على مقربة من مدينة « ساكيز » في جنوبي بحيرة أورميا في الكردستان ، ولسنا نعرف على وجه التحديد إذا كانت تلك المجموعة النفيسة التي تفرقت بين متحف طهران وبعض المتاحف الأجنبية والمجموعات الخاصة ، قد عثر عليها في خرائب أحد القصور أو في قبر أحد الملوك ، وهي على أية حال مجموعة من أهم ما عثر عليه في تاريخ إيران ، نرى فيها الفن الإسكيزي الوطني ، ونرى بينها أيضاً بعض تحف آشورية خالصة ربما تلقاها ذلك الملك كهدية من الملك أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٨ ق.م.) أو أحد خلفائه ، وفيها بعض التحف التي نرى فيها الفنون قد تآلفا ، ونجح الفنان في مزجها معا بنجاح . على أية حال فيجب أن نضع في أذهاننا أنه لا يمكن دراسة تلك التحف النادرة إلا بمقارنتها بما سبق العثور عليه من آثار الملوك والوعاء الإسكيزيين التي وجد الكثير منها ابتداء من غربي منغوليا في الشرق حتى بلاد المجر في الغرب ، وكان مركزها الرئيسي في جنوبي سيبيريا .

وعلى ذكر كنز مدينة « ساكيز » ، يجب ألا ننسى أنه قد عثر أيضاً في منطقة « لورستان » في إيران على كثير من الأدوات البرونزية الهامة ، وهي أيضاً من

(١) يظهر أن ملوك هؤلاء القوم كانوا يعيشون في جنوبي سيبيريا وفي إقليم خرسون حيث بدأ الروس منذ عام ١٧٦٣ يهتدون على مقابرهم التي احتوت على كنوز كثيرة من الحلى الذهبية والأواني وغيرها التي كانت توضع مع أولئك الملوك . وفي عامي ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ قررت إدارة الآثار هناك عمل حفائر في تلك المنطقة في الأكوام الكثيرة المنتشرة في كثير من الأقاليم وفي عامي ١٩١٣ ، ١٩١٤ حفروا في كوم كبير على مقربة من مدينة مليتوبول Melitopol في إقليم تاورين ، كما استأنف العلماء الروس بحث تلك المقابر في الأعوام الأخيرة وقد عثر فيها على نفائس كثيرة محفوظة في متاحف الاتحاد السوفيتي وبخاصة في متحف لينينجراد والمعتقد بوجه عام أن تاريخ تلك المقابر الملكية يعود إلى الفترة بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد Friedrich Behn, *Ausgrabungen und Ausgraber* (1955), p. 133-139 أظهر أيضاً كتاب Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient* p. 205-6 والمراجع التي ذكرها الأستاذ E.H. Minns في بحثه المسمى *The art of the Northern Nomads, in Proceedings of the British Academy, 1942.*

صناعة إيرانية من أيام الإسكيزيين ، وبعضها متأثر بالفن الآشوري ، ولكنها تمتاز بالكثير من مظاهر الفن الإسكيزي النقي وبخاصة إلهاتهم لتمثيل الحيوانات ، وتتجلى مهارتهم في القطع المصنوعة من البرونز ، والتي كانت في الأصل أجزاء من أطعم الخيل ، أو كانت مثبتة في بعض أدوات القتال .

الميديون :

وفي الوقت الذي كانت فيه دولة الإسكيزيين في عتفوان قوتها في إيران ، أخذ الميديون يوحّدون بين قبائلهم التي كانت منتشرة في منطقة تمتد من جبال دوماوند حتى مدينة همدان .

تحالف الميديون مع الكيمريين ومع سكان جبال الكردستان ؛ واطمأنوا إلى ارتباطهم برباط الصداقة مع الإسكيزيين ، وتمّ للمكهم خشاثريتا (Kshathrita) إخضاع الفرس الذين قبلوا دفع الجزية لهم . وبعد ذلك طمعوا فيما هو أكثر من ذلك ، فقرر ملكهم غزو بابل ، وانتزح الإسكيزيون هذه الفرصة ، فهاجموا الميديين في عقر ديارهم وأخضعوهم لنفوذهم فظلوا على ذلك ثمانية وعشرين عاماً من ٦٥٣ — ٦٢٥ قبل الميلاد ، كما ذكر هيرودوت ، وكان ملك الإسكيزيين في ذلك الوقت يسمى «ماديس» (Madyes) ، وهو ابن الملك پارتاتوا (Partatua) الذي كان حليفاً للآشوريين^(١) .

وكان ذلك الانتصار خير مشجع للإسكيزيين على التوسع في قوتهم ، فانجهوا غرباً وغربوا آشور ، وانضم إليهم الكيمريون ، فالتحّت قبائل الشعبين ونزلت لتتهدّد كل ما تجده في بلاد آسيا الصغرى وشمالى سوريا وفينيقيا وفلسطين ، ولم يبقوا إلا عند حدود مصر ، ناشرين القتل والحرق والنهب في كل مكان ، ثم عادوا بعد ذلك إلى موطنهم .

(١) يعتقد جيرشمان أن كنز ساكيز ربما كانت من عهد پارتاتوا أو من عهد ابنه ، وأن بعض تلك الحلى جاءت من حليفه ملك آشور والبعض الآخر من صنع بعض الصياغ الآشوريين الذين ذهبوا وأقاموا في بلاطه في إيران
Gishman, Iran, p. 106

ويحدثنا هيرودوت عن الميديين بأنهم كانوا يعدون أنفسهم للثأر من الإسكيزيين والاستقلال بأمورهم فتم لهم ذلك بعد الثمانية والعشرين عاماً، وهزموا أعداءهم وأجلوا جنودهم عن المنطقة .

كان ملك الميديين الذي قام بتخليص بلاده يسمى كيا كسارس ، وقد تم له توطيد نفوذه ، وعادت لبلاده قوتها واسترجعت سيطرتها على الفارسيين وعلى المنايين (سكان جبال السكردستان وأجداد الأكراد) ، واتخذ من مدينة إكباتانا ، ومكانها الآن مدينة همدان ، عاصمة لمملكته . ولم يكتف كيا كسارس بذلك بل أراد مهاجمة بلاد الرافدين ونفذ ذلك فعلاً ، وتم له الاستيلاء على أشور بعد تحالفه مع ملك بابل ، وتطلع إلى ما هو أبعد من ذلك ودفع بجنوده إلى آسيا الصغرى إلى أن اصطدموا بمملكة الليديين ، ولكن الصلح تم بينهم .

وعندما مات كيا كسارس في عام ٥٨٤ ق . م . كانت معظم ممالك آسيا الغربية باستثناء ليديا تقع إما تحت نفوذ الميديين أو البابليين ، ولم يكن هناك مناص من حدوث التصادم بينهما ، فبذل الملك البابلي نبوختنصر كل ما في وسعه لعمل التحصينات اللازمة ، ولكن صداقة الميديين مع البابليين والمصاهرة بين العائلتين المالكيتين لم يحل بين الميديين وحلفائهم من شعوب الحضبة الإيرانية من مهاجمة بابل نفسها .

الصدام بين الميديين والفرس :

وفي عام ٥٥٥ ق . م . تولى عرش بابل الملك « نابونيد » الذي اشتهر في التاريخ القديم بحبه للآثار القديمة وعنايته بها وتجديدها في كل أرجاء مملكته ، فلم تشغله أبحاثه ودراساته عن الاستعداد لاقاء خطر الميديين فتحالف مع ملك الفرس ضد الملك أستياجس (Astyages) الذي خلف أباه كيا كسارس على عرش الميديين .

وبالرغم من أن الفرس كانوا خاضعين لليديين إلا أن سير الأمور في حضبة إيران أخذ طريقاً آخر عندما تولى عرش الفرس ، حاكم شجاع حكيم ، وهو دقودش ،

حوالى عام ٥٥٩ ق . م . كان قورش ملكا على قومه فى مملكة صغيرة تسمى أنشان ، وكان قورش ، طموحاً جريئاً ذكياً ، جمع شمل القبائل الفارسية أولا ثم جند أيضاً رجالا من الفلاحين ، ولم يقتصر على طبقة الفرسان ، واستطاع بعد سنوات ثلاثة أن يهزم الملك الميدى ويصبح سيداً للمنطقة كلها .

كان «قورش» ، ذلك الفاتح الجديد مليئاً بحموية متدفقة ، وسرعان ما أحسن تنظيم وتدريب جنوده وبخاصة المشاة الرماة الذين كانوا يبدأون المعارك فيصيبون بسهامهم من أعدائهم المقاتل ، فإذا ما بدأت صفوف العدو تتخاذل أو يدب بينها الارتباك هجم الفرسان من الجناحين فيجهزون على هجوم ، ولا شك أن الفرس تعلموا تلك الطرق من الآشوريين الذين كانوا من أعظم من رآهم الشرق بجنود محاربين .

وتطلعت الدول التى فى غرب آسيا إلى هذا الفاتح الجديد ، وعقدت بابل وليديا (التى كان يحكمها كرويسوس) وبعض الشعوب الإغريقية فيما بينها تحالفاً ضد الفرس ، وكان ملك ليديا هو الداعى له ، فما كان من قورش ، إلا أن هاجمه فى دياره ، واستولى على عاصمته عام ٥٤٦ ق . م . وأخذه أسيراً ، وفى أقل من خمس سنوات أصبحت فارس تحتل المكان الأول فى الشرق ، وخضعت لها جميع البلاد من عيلام حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، ومن بينها ممالك آسيا الصغرى .

وأسس قورش عاصمته وبنى قصره عند بازارجاده (Pasargadae) ، كما بنى هناك أيضاً معبداً للديانة التى كان ينادى بها زرادشت الذى كان معاصراً لقورش ولكن قورش العظيم الذى أخضع كل تلك الأمم لسلطانه لم يكن يتأخر فى أى وقت من الزهاب إلى أى حرب على رأس رجاله ، وفى عام ٥٢٩ ق . م . سمع عن ثورة صغيرة قامت بها إحدى القبائل البدوية فى شمال إيران فذهب بنفسه لإنقاذها ، ولم يترك ذلك لأحد قواده ، وأصابه أثناء القتال سهم قاتل فأت بعد أن أسس دولة الأخمينيين التى كونت الإمبراطورية الفارسية ، أعظم الإمبراطوريات التى شهدتها العالم القديم .

الفصل السابع

الأخمينيون

لم يكن قورش قائدا حرييا ممتازا فحسب ، بل كان سياسيا قديرا عرف كيف ينظم ملكه الواسع ، كما اشتهر بتساهله مع من هزمهم من أعدائه وحسن معاملته للبلاد التي أخضعها ، وكان يتحاشى تخريب المدن أو حرقها أو قتل الأهالي ، ولم يمت حتى كانت امبراطوريته الجديدة ثابتة الأركان .

تمكن قورش من القضاء على نفوذ الحكم السامي في بلاد الشرق القديم بعد أن أخضع بابل . وفي السنوات الثمانية الأخيرة من حكمه أشرك معه في الملك ابنه « قبيز » ومنحه لقب « ملك بابل » كما عهد لابن آخر يسمى « برديا » حكم الأقاليم الشرقية من امبراطوريته .

وفي عام ٥٣٠ ق . م . مات قورش فتولى « قبيز » عرش البلاد من بعده ، وقامت بعض الاضطرابات فاتهم أخاه « برديا » بتدبيرها ، ودبر أمر اغتياله لتخلص منه . لم يكن قبيز مثل أبيه بل كان قاسيا غريب الأطوار ، ولهذا أطلق عليه معاصروه من الإغريق لقب الطاغية .

كان قورش قد أعد العدة لغزو مصر ، وأوكل إلى ابنه قبيز تدبير أمر الحملة التي كان يزمع تسييرها للاستيلاء عليها ، ولهذا نرى قبيز بعد قضاءه على الاضطرابات والمؤامرات التي اندلعت عند توليه العرش يذهب بنفسه على رأس الجيش .

لم تكن نية الفرس لغزو مصر مخفية على المصريين ، فعمدوا إلى التحالف مع بعض اليونانيين ، وعقد أحس الثاني (أمازيس) تحالفا مع « بوليقراط » ملك

جزيرة « ساموس » ، ولكن عند ما تأزمت الأمور ، ووصل الجيش الفارسي إلى غزة تقضى « بوليقرات » عهده ، وترك مصر تواجه جيوش الفرس وحدها .

وكان أمازيث قد مات أثناء ذلك ، ووقع عبء الدفاع عن البلاد على عاتق خليفته الملك « پسامتيك الثالث » . ولم يكن تقضى اليونانيين عهدهم مع مصر هو كل ما حدث ، بل زاد الطين بلة أن اليونانيين الذين كانوا يعملون كجنود مرتزقة في جيش مصر ، كانوا مصدر بلاء آخر ، إذ أن كبير قواد الجيش في مصر ، وكان يونانيا ، خانها وذهب إلى قبيز وأفشى له جميع أسرار الدفاع عن البلاد .

وتقابل الجيشان عند رفح ، ولم تحارب الفرق الإغريقية في الجيش المصري الدفاع اللازم ، وكانت النتيجة هي هزيمة الجيش المصري وارتداده إلى منف ، وهناك دارت معركة أخرى انتهت بسقوط العاصمة ووقوع پسامتيك نفسه أسيرا في يد الفرس ، فأرسله « قبيز » إلى « سوسا » ليقام فيها أسيرا .

لم يكن « قبيز » في بداية الأمر قاسيا في معاملته للمصريين ، بل أظهر شيئا غير قليل من احترامه لديانة المصريين ، وعين واليا مصريا ، وأمر بالقيام ببعض الإصلاحات ، كما سار بجيشه نحو الجنوب ، واستقر بعض الوقت في طيبة . وأراد أن يزيد من التوسع فقرر وهو في مصر أن يرسل ثلاث حملات حربية ، واحدة للاستيلاء على قرطاجنة ، والثانية للاستيلاء على واحه سيوة مقر وحي الإله آمون ، والثالثة للاستيلاء على كوش ، وقد قادها بنفسه .

فأما الحملة الأولى فقد فشلت لأن الفينيقيين رفضوا تسيير أسطولهم لغزو أبناء جلدتهم وأهلهم القرطاجنيين ، وأما الحملة الثانية فقد كان نصيبها الفشل أيضا ، وهلك أكثر الجيش لنقص المؤن لأن الكوشيين انسحبوا نحو الجنوب فلاقى الجيش أهوالا كثيرة ، ولم يتمكن من الوصول إلى مروي فعاد مهزوما نحو الشمال ، أما ثانی الحملات فكان لها شأن آخر .

كان لواحة سيوة في ذلك الوقت مركز خاص لأنها كانت مركز نبوءة اشتهرت بصدق ما يصدر عن كهنتها ، وكان الإغريق يثقون فيها ثقة كبيرة . وتنبأ

كهنة أمون بسوء المصير لقمبيز وفتوحاته ، فأراد أن يلحق هؤلاء الكهنة درساً قاسياً ، وبثبت للعالم أجمع كذب هذه النبوءة ، فأرسل عليهم تلك الحملة لى يهدموا معبد أمون ويقتلوا أو يأسروا كهنته .

سارت الحملة من طيبة فوصلت إلى الواحات الخارجة وأخذت ما يلزمها من مؤن وأدلاء ، وغادرت الخارجة في طريقها إلى سيوة ، ولكن لم يصل جندى واحد إلى سيوة أو يعد واحد منها إلى الخارجة .

يقص علينا هيرودوت قصة هذه الحملة ويقول أن عدد جنودها خمسون ألفاً ، وربما كان هذا العدد مبالغاً كثيراً فيه ، ويزيد قائلاً أن كهنة أمون في سيوة سئلوا فيما بعد عن مصير هذا الجيش فقالوا إن الإله أمون انتقم من أعدائه وأنه بينما كان هذا الجيش في منتصف الطريق هبت عليه عاصفة رملية دفتته .

وما زال هذا الجيش الكبير حتى الآن سرا من أسرار الصحراء الغربية ، وقد حاول الكثيرون في عصرنا الحاضر البحث عن آثاره مستخدمين السيارات والطائرات ولكن دون جدوى ، وهو ما زال دفيناً تحت غرود الرمال المتلاحقة في الصحراء .

كان فشل هذه الحملات الثلاثة ضربة قاسية لقمبيز ، كما بدت في مصر بوادر العصيان لأوامره والاستخفاف بحكمه فعدل عن سياسة التساهل والتسامح ، وأخذ يصب جام غضبه على المصريين ، فهدم كثيراً من المعابد^(١) بل ووصل به الأمر — كما ذكر كتاب الإغريق — إلى قتل العجل « أيس » في أحد الاحتفالات الدينية في منف .

وجاءت إلى مصر أنباء قيام الثورة في فارس فأمر « قمبيز » للقضاء على من تزعم الثورة وكان يدعى « جوماتا » استغل شبهه بأخيه « برديا » الذى قتله وادعى

(١) جاء ذكر هدم المعابد المصرية وتخریبها في كتابات اليونان ، وكذلك في إحدى البرديات الأرامية التى عثر عليها في الفنتين حيث كانت تقيم جالية يهودية كبيرة كانت الفرس يعطون على اليهود ويستعينون بهم في حكم البلاد في ذلك الوقت .

انه « برديا » نفسه فصدقته كثير من الولايات وبايعته بالحكم ، وكان ذلك في عام ٥٢٢ ق . م .

ولكن هذا الدعي وجد من يقف في وجهه ، إذ اجتمع سبعة من النبلاء بزعامه « دارا » بن « هيستاسپس » وقاوموه ، ولكن قبيل مات وهو في طريق عودته وتضاربت الروايات في سبب موته ، فذكرت بعضها أنه انتحر عمدا ، وذكر البعض الآخر أنه مات متأثرا من جرح أحدثه بنفسه في إحدى نوبات الصرع التي كانت تصيبه من حين لآخر .

وعاد جيش قبيل إلى بلاده ، وظل وفيا للعائلة ، فانضم إلى جيش الأمراء السبعة ، وأطفاؤا نيران الثورة وأصبح « دارا » ملكا على الفرس .

دارا الأول (٥٢٢ - ٤٨٦ ق . م .)

استطاع « دارا » أن يقضى على الدعي قبل مضي وقت لم يتجاوز شهرين على وفاة قبيل ، ولكن الثورات أخذت تندلع في مختلف أرجاء الامبراطورية لتتخلص من حكم الفرس ، وكان على دارا أن يعيد فتح كثير من الأمصار ، ومنها مصر وسوريا وليديا وويلام وأرمينيا وأشور وبابل ، وقد سجل دارا انتصاراته في النقش الشهير المعروف باسم نقش « بهستون » في أحد الممرات الجبلية في الطريق بين كرمشاه وهمدان .

كان في إخماد هذه الثورات درس قوى لدارا ، أدرك منه أن سياسة الشدة لا تجدى في حفظ الامبراطورية ، فأتخذ سياسة جديدة تنسم بالحزم ولكن مع الكثير من التسامح الذي كان يقبفه قورش ، وكان من أسس هذه السياسة الجديدة السماح للولايات المختلفة بالمحافظة على كيائها الاجتماعي والثقافي واحترام ما كان سائدا فيها من نظم وقوانين وأديان .

قسم الإمبراطورية إلى عشرين ولاية « سترابية » يحكم كلا منها وال فارسي « ستراب » ، وكان يختار أولئك الولاة من النبلاء ، وأحيانا من أفراد العائلة المالكة ، وكان أولئك الولاة مسئولين شخصيا أمام الملك .

لم تقف مهمة دارا عند حد تنظيم الإمبراطورية التي ورثها عن قورش وقبيل فآراد التوسع ، ووجه حملة حربية ضد الاسكيثيين « الاسكيثيين » (في جنوب الاتحاد السوفيتي الآن) ، إذ عبر البوسفور ، ونهر الدانوب ووصل إلى القوقاز ، كما وجه حملة حربية أخرى سارت مخترقة بلاد أفغانستان الحالية ، ووصلت إلى وادي السند في شبه جزيرة الهند (البنجاب في الباكستان) ، كما أرسل أيضا حملته المشهورة ضد أثينا ، وأحرز انتصاره المشهور في معركة « ماراثون » .

وبالرغم من كل محاولات دارا في تخفيف ما كان يحس به المصريون من مرارة ، وإدخاله الكثير من الإصلاحات في حكم البلاد ، وإصلاح ما تهدم من معابد ، ورد بعض ممتلكاتها إليها ، وإعادة ما أغلقه قبيل من مؤسساتها العلمية ، فإن الثورة قامت في مصر في آخر أيامه ، ومات عام ٤٨٦ ق . م . ولم يكن قد تمكن من إخماد الثورة في مصر ، كما أنه لم يمتد به العمر حتى يرى تحقيق أعز أمنية لديه وهي سحق اليونانيين والقضاء عليهم .

وعلى أي حال فلا شك أن فترة حكم دارا هي الفترة التي بلغت فيها قوة الفرس الأخمينيين أوج قوتها ومجدها سواء في الناحية العسكرية أو في التنظيم والإدارة وتوطيد أركان الحكم أو في ازدهار الحضارة الفارسية في شتى نواحيها .

أكسر كسيس الأول (أخشويرش Xerxes

٤٨٦ — ٤٦٥ ق . م .) :

كان « أخشويرش » أثناء حكم دارا واليا على بابل طيلة اثني عشر عاما ، وقد عينه أبوه دارا قبل وفاته ليخلفه في حكم البلاد ، فاعتلى العرش ، وكان أول عمل قام به

هو إخماده للثورة التي كانت قد اندلعت في مصر ، واتبع في ذلك قسوة بالغة أعادت إلى الأذهان أسوأ أيام قبيز . وسار على الأسلوب نفسه في إخماد ثورة قامت في بابل ، وبلغ من غضبه أنه بعد انتصاره دك حصون المدينة ومعابدها ونهب ما فيها من تماثيل ذهبية ، وبلغ تخريب مدينة بابل إلى الحد الذي جعل أكثرها أكواما وخرائب .

لم يكن دأخشويرش، في حقيقة الأمر من الملوك الميالين يفطرتهم إلى الحروب ، بل كان ميالا إلى الترف وإلى تشييد القصور والاستمتاع بأبهة الملك ، ولكن ضغط الجماعات التي كانت تحيط به وتذكره دائما بضرورة القضاء على اليونانيين جعله يسير على رأس جيش كبير لغزو بلاد اليونان عن طريق البر ، لا عن طريق البحر ، وقد بنى له الفينيقيون في مدى سبعة أيام جسرا على البوسفور عبرت عليه جيوشه . ووصل أخيرا إلى أثينا واستولى عليها ، ولكن ذلك لم يكن نهاية للحرب إذ اتصر اليونانيون في معركة سلاميس البحرية (عام ٤٨٠ ق . م .) وحطموا الأسطول الفارسي ، فكان ذلك مدعاة لخوف أخشويرش من حركة التفاف تقضى عليه فتقهقر بجيشه تاركا بلاد اليونان كلها .

لم يستأنف ملك الفرس حملاته الحربية بل انصرف إلى تجميل عواصم ملكته وبخاصة پرسپوليس (اصطخر) وسوسا ، وبالرغم من أنه قضى الشطر الأكبر من حياته في الترف والمسلذات ، فيمكن اعتباره آخر ملوك الأسرة الأخمينية الأقوياء .

لم تدم امبراطورية قورش إلا أقل من قرنين من الزمان ، وبدأت علامات الضعف والانحلال تظهر في أواخر أيام دأخشويرش ، وأخذت مؤامرات نساء القصر ورجال البلاط تلعب دورها القاسي ، وانتشرت حياة المللذات بين أفراد الطبقة الأرستوقراطية ، وسرعان ما سرت بين غيرهم من أفراد الشعب لأن الناس على دين ملوكهم ، وأخيرا انتهت حياته عام ٤٦٥ ق . م . إذ اغتاله أحد حجاب

قصره تنفيذاً لإحدى المؤامرات ، وترتب على اغتياله حدوث موجة كبيرة من الاغتيالات في سبيل الاستيلاء على العرش وإزاحة الكثيرين من الطريق .

خلفاء اخشويرش (٤٦٥ - ٣٣١ ق.م.)

وتولى الملك بعده ابنه دارتخششتا الأول (أرتا كسر كسيس Artaxerxes) ، وكان أضعف من أبيه في شخصيته . وفي بداية حكمه ثار عليه أحد أخوته ، وكان حاكماً لإحدى الولايات فأخذ الثورة ثم أعقب ذلك بقتله لجميع أخوته حتى لا يشور عليه أحد منهم بعد ذلك .

وثارت مصر فسير عليها جيشاً فشل في مهمته ، فأرسل إليه إمدادات كبيرة مكنته من النجاح في إخمادها ، أما في بابل فقد سار على سياسة التساهل وترك لأهلها الحرية في العبادة ، ولكنه شجع الفرس على الهجرة إلى بلاد الرافدين والاستيطان فيها وأقطعهم الأراضي الواسعة ، وفي الوقت ذاته فرض الضرائب الباهظة على أهل البلاد .

وعما يمتاز به عصر ارتخششتا الأول ازدياد نفوذ اليهود في بلاطه وتشجيعه لهم . كان قورش مؤسس الأسرة حامياً لهم في عصره ، إذ خلصهم من أسر بابل الذي نكبوا به في عهد بختنصر وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين ، وإعادة بناء هيكلهم هناك ، كما بسط عليهم حمايته في جميع أرجاء امبراطوريته ، وسرعان ما كونوا لأنفسهم مكانة خاصة في جميع المراكز الهامة للتجارة ، وكانوا أينما حلوا عوناً للولاة الفارسيين ضد أهل البلاد . ومن أشهر الجاليات اليهودية تلك الجالية التي كانت في جزيرة الفنتين أمام مدينة أسوان والتي عثر في خرائطها على رسائل باللغة الآرامية تبين مدى صلتهم بالحكام الفارسيين وتكاتفهم معاً لأجل نفوذهم العام ، والأساليب التي كانوا يتبعونها لتحقيق أهدافهم ، ومدى ما كانوا يتعرضون له من كراهية الآخرين .

احترم خلفاء قورش سياسة مؤسس الأسرة ، ولكن في عهد ارتخششتا الأول سمح لعزرا أن يعود إلى اورشليم ومعه ١٥٠٠ يهودى ، ولكن النزاع نشب بين هؤلاء اليهود الجدد ، وبين اليهود الذين كانوا في فلسطين ، ووصل هذا النزاع إلى الحد الذى جعل الملك نفسه يهتم بالأمر ويرسل ساقيه الخاص وكان يهوديا اسمه «نحميا» ليهدىء الحالة ، وكانت نتيجة ذلك سماحه لليهود بأن يعيدوا تنظيم أنفسهم ، وأن يعيدوا أيضا بناء ما أرادوا بناءه في اورشليم عام ٤٤٥ ق . م . كما اعترف ملك الفرس بالكهنة الأكبر (الحاخام الأكبر) بأن يكون حاكما على اورشليم وإقليم يهوذا .

ومات ارتخششتا الأول عام ٤٢٤ ق . م . وتولى العرش بعده أخشورش الثانى ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى اغتاله أخوه ، ولم يلبث الأخير حتى قتل هو الآخر على يد دارا الثانى (٤٢٤ — ٤٠٤ ق . م .) ، وكان عهده مليئا بالفساد والمؤامرات والثورات وإغداق أموال الإمبراطورية الفارسية لإشعال نار الحرب بين أثينا واسبارطة رجاء الاستفادة من ذلك .

وبعد انتهاء أيام دارا الثانى خلفه على عرش فارس ابنه ارتخششتا الثانى (٤٠٤ — ٣٥٩ ق . م .) ، وفى مستهل حكمه تعرض لمحاولة فاشلة لاغتياله ، إذ قتل أخوه الأصغر ، وكان يسعى قورش ، بطعنه بالخنجر أثناء الاحتفال بتتويجه فى المعبد فى مدينة بزرجادة ، ولكنه عفا عنه إزاء توسلات أمه ، بل وزاد فى عفوه فعينه والياً على آسيا الصغرى وقائداً للجيش الفارسية هناك .

ولكن قورش لم يقابل هذا الإحسان بما يستحقه ، بل لم يمض عليه وقت طويل حتى جدد عصيانه وأعلن الثورة على أخيه وقاد جيشاً وزحف به على فارس لخلع أخيه عن العرش .

لم يكن جيش قورش من جنود الفرس وحدهم بل ضم إليهم جيشا من مرتزقة الإغريق عدد رجاله عشرة آلاف جندي ، وهو الجيش المعروف باسم حملة زينوفون (Xenophon) ، وهو الجندي الذى قادم عند عودتهم .

ذهب الإغريق مع قورش ، وتقابل الجيشان على مقربة من بابل ، وهناك تبارز الأخوان ، فاستطاع قورش أن يجرح أخاه واسكن ارتخششتا الثاني قضى عليه بضربة رمح فانهزمت جيوشه . كان الإغريق يكتنون ميمنة الجيش ، ولكن قائدهم لم يحرك ساكنا عند مقتل قورش ، ولم يحاول مساعدته ، وقد سمح الفرس لهؤلاء الجنود المرتزقة أن يعودوا ثانية ففضلوا العودة عن طريق غير الطريق الذي سلكوه عند حضورهم محتازين بلادا لا يعرفونها ، وأرسل ملك الفرس معهم قائدا فارسيا لمراقبتهم أثناء العودة حتى يتركوا حدود البلاد الفارسية .

وأثناء العودة اقترح القائد الفارسي وكان يسمى « تسافيرنوس » على قائد الإغريق « كليرخوس » عقد مؤتمر يحضره جميع الضباط الإغريق ، وكانت مؤامرة استطاع كليرخوس تنفيذها وقتل الضباط جميعا ، ولكن الجنود انتخبوا واحدا منهم ، وهو زينوفون ليكون قائدا لهم ، وقد نجح في مهمته وعادوا إلى موطنهم ، وقد وصلت إلينا جميع التفاصيل من الكتاب الذي كتبه زينوفون بعد عودته ، وهو مصدر هام لدراسة بلاد المنطقة من الناحية الجغرافية كما أنه مصدر هام أيضاً لمعرفة الشعوب التي كانت تسكن تلك المناطق في القرن الخامس قبل الميلاد . ومن الطريف أن زينوفون مر على أنقاض مدينة نينوى دون أن يلاحظ شيئا يدونه لأنها كانت قد تخربت قبل ذلك بنحو مائتي عام ، ويظهر أن التخریب كان كاملا . ولما وصل الجيش إلى منطقته تسمى « زاخو » ذكر زينوفون أنه يسكن هناك قوم الـ « كوردجي » وهم الأكراذ ويصفهم بأنهم قوم أشداء محبوبون للحرب ، « يعيشون في الجبال ولا يطيعون الملك » ، وعندما لاح لهم البحر الأسود من بعيد ورأوا مياهه أخذ الجنود جميعا يصيحون « البحر . البحر » وأخذوا يعاقبون بعضهم البعض وقد اغرورقت عيونهم بالدموع .

وتولى الحكم من بعده « ارتخششتا الثالث » ، وكان على شيء من الحكمة السياسية ، ولكنه كان قاسيا ، إذ كان أول عمل له عند تولىه العرش ، هو قتل جميع إخوته الذكور والإناث على حد سواء ، ثم اتجه بعد ذلك إلى إخماد الثورات

وحاول استعادة مصر ، ففشل أولا في ذلك نظراً لتحالف بعض المدن الفينيقية وبخاصة صيدا مع مصر وثورتها ضد الفرس ، فصب جام غضبه عليها وأحرقها ، ثم أرسل حملة أخرى على مصر فاستعادتها ، وانتقم من مصر والمصريين شر انتقام .

كانت أيام حكم ارتخششتا الثالث (٢٥٩ - ٢٣٨ ق.م.) أيام صحو نسبي في حياة الامبراطورية ، وبدأت الأمور في وقت من الأوقات ، كما لو أنها على وشك أن تستعيد أيام ملوكها الأوائل ، ولكن المؤامرات التي كانت طابع البلاط الفارسي لم تكن تفتنى ، فمات هذا الملك الحازم مسموما عندما كانت الدولة الأخمينية في أشد الحاجة إلى مثله ، إذ كانت إحدى دول اليونان في مقدونيا قد أخذت تعد نفسها للدخول في دورة جديدة من دورات الصراع مع الفرس ، وكان الملك فيليب والد الإسكندر الأكبر يعد جيشا لغزو آسيا ، ومهد لحروبه المقبلة باستيلائه على أثينا ، وكان ذلك في عام ٣٣٨ ق.م. ، وهو العام نفسه الذي مات فيه ارتخششتا (ارتكسر كسس) الثالث مسموما .

وتولى الملك من بعده ابن له مات هو الآخر مسموما ، وجلس على عرش فارس أحد أقاربه وهو دارا الثالث ، الذي قدر عليه أن يلاقى جيوش الإسكندر وأن تنتهى على يديه الإمبراطورية الأخمينية .

نظرة عامة في حضارة الفرس الأخمينيين :

دام حكم أسرة قورش ما يقرب من قرنين من الزمان ، من عام ٥٥٠ حتى عام ٣٣١ ق.م. ، وكان عدد ملوكها أحد عشر ملكا ، كان من بينهم من امتاز بالحسنة السياسية وحسن التنظيم وإتقان إدارة البلاد ، وعلى رأسهم قورش ودارا الأول .

ولاشك أن الإمبراطورية الفارسية في عهد الأخمينيين كانت أعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم ، وقد شملت كثيراً من الشعوب الذين كانت

لهم ثقافات أعلى وأقدم من ثقافة الفرس أنفسهم مثل مصر وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى وسوريا وبعض المدن الإغريقية ، فعرفوا كيف يستفيدون من تلك الحضارات في بناء امبراطوريتهم ووضع أسس ثقافتهم .

تنظيم الإمبراطورية :

نظم الآخمينيون امبراطوريتهم تنظيماً إدارياً حسناً جعلها تظل متماسكة زهاء قرنين من الزمان ، وقسموها إلى عشرين ولاية^(١) ، وهى :

(١) مصر (٢) فلسطين (٣) سوريا (٤) فينيقيا (٥) ليديا (٦) فريجيا (٧) ايونيا (وهى المدن اليونانية فى السواحل الغربية للأناضول) (٨) كبدوكيا (٩) كليشيا (١٠) أرمينيا (١١) بابل وأشور (١٢) بلاد الميديين (١٣) فارس (١٤) القوقاز (١٥) أفغانستان وبلوخستان (١٦) الهند (١٧) بلاد الصغد (١٨) بلاد البخت (١٩) مساجيتا (٢٠) ولاية تضم قبائل التركان فى أواسط آسيا .

وكان لكل ولاية حاكم أو ستراب ، وكان لمعظم تلك الولايات كيان سياسى مستقل ، وبعبارة أخرى ، كان هذا الوالى أو « محافظ المملكة » ملكاً ذا نفوذ كبير ، ولهذا كان الملك الفارسى يلقب نفسه بلقب ملك الملوك .

ولم يرغب عن مؤسسى الإمبراطورية أن مثل هذا الوالى يستطيع أن يكون مصدر خطر عليهم إذا حاول الاستقلال بولايته أو إذا أصبحت وظيفته وراثية ، ولهذا السبب وضع قورش نظاماً حسناً داراً بعد ذلك ، ويقضى هذا النظام بأن يعين قائداً لجيش الولاية يكون تابعاً للملك مباشرة ومستقلاً عن حاكمها ، كما كان كاتب الولاية والموظف المشرف على المالية مرتبطين بالملك رأساً . وزيادة

(١) أطلق اليونان على كل منها اسم « سترية » Satrapy ، والسكامة بحرفة عن السكامة

الفارسية القديمة « خشانرابان » Khshathrapavan .

في الحديقة كان الملك يرسل رسلا خاصين للتفتيش على شئون كل ولاية سنويا ومن ألقابهم نستطيع أن نعرف مدى اختصاصهم ، إذ كانوا يسمون «عين الملك» أو «رسول الملك» أو «أذن الملك» .

وبما ساعد الملك على بسط نفوذه المباشر على جميع الولايات ما أنشأه دارا الأول من طرق تربط أطراف بلاده ، ونظام البريد المنتظم بين العاصمة والمراكز الهامة في جميع الولايات . وكانت أهم الواجبات الملقاة على عاتق كل وال هي إدارة ولايته وحفظ الأمن فيها ثم جمع الضرائب ، إذ كانت الضرائب إجبارية على جميع الولايات ما عدا ولاية فارس لأنها مهد البيت المال .

وكانت الجزية المقررة على كل ولاية مقدارا معيناً من الفضة أو النقد ، ثم ضريبة أخرى من محصول تشتهر به الولاية ، أو أى مصدر نوعى آخر ، وربما كان من المفيد معرفة الجزية المفروضة على بعض الولايات لمقارنتها ببعضها البعض .

كانت ولاية الهند على رأس جميع الولايات في كمية الجزية السنوية (أوخراجها) ، إذ كان عليها أن تدفع إلى خزنة «شاهنشاه» أى ملك الملوك ٤٦٨٠ وزنة فضة سنويا^(١) . وتليها بلاد الرافدين (بابل وأشور) ، وعليها أن تدفع ١٠٠٠ وزنة ، أما مصر فكان نصيبها ٧٠٠ وزنة بالإضافة إلى كمية من القمح ترسلها سنويا ، وتكفي لإطعام ١٢٠,٠٠٠ شخص . أما سوريا وفلسطين معا فكانت الجزية المفروضة عليهما ٣٦٠ وزنة . وولايات آسيا الصغرى الأربع ١٧٦٠ وزنة . وكما كانت مصر ترسل الحبوب . كانت بلاد الميديين ترسل كل عام ١٠٠,٠٠٠ رأسا من الغنم . وبلاد أرمينيا ٣٠,٠٠٠ طير ، وكان الملوك يحصلون أيضاً على ثروات هائلة وذلك من مورد سك النقود .

(١) الوزنة ترجمة لسكلمة Talent التي يفضل البعض ذكرها كما هي طالت ، وكانت الوزنة تساوى ٦٠ منا (والمنا ٦٠ شقل) ، ووزن المنا قريب جدا من الرطل الانجليزي أى نحو نصف كيلوجرام .

ولكى ندرك قيمة ما كان لدى ملوك الفرس من ثروة يكفي أن نعرف أنه في آخر أيام الإمبراطورية التي كانت قد أنهكتها الحروب والثورات والمؤامرات عندما فر الملك دارا الثالث أمام الإسكندر أخذ معه نحو ٨٠٠٠ وزنة ، وبلغ ما استولى عليه الإسكندر من خزائنه نحو ١٨٠,٠٠٠ وزنة قدرها المؤرخ «ول ديورانت» أن قيمتها بعملتنا في العصر الحاضر ما يبلغ على وجه التقريب ٢,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولارا أمريكيا .

ومما ساعد على تماسك الامبراطورية اتخاذ النقود المسكوكة في عهد دارا الأول ونظام الطرق الملكية والبريد إذ ربط ذلك كله اقتصاد الإمبراطورية ، وساعد على تسهيل التجارة بين الولايات وبعضها البعض ، كما ساعد وجود جيش في كل ولاية على استتباب الأمن فيها .

ومن الأمور الهامة التي حدثت في عهد هذه الإمبراطورية محاولة إيجاد لغة واحدة لأجل التعامل التجاري فكانت اللغة الآرامية هي لغة التجارة ، كما كان الخط الآرامي مستخدما إلى جانب الخط المسباري الفارسي الذي انتشر في أرجاء الإمبراطورية .

أشرت أكثر من مرة في الصفحات السابقة إلى عاصمة الإمبراطورية فأين كانت وما هو اسمها ؟ والواقع أن العاصمة قد تغيرت أكثر من مرة بل ، كانت توجد أحيانا عاصمتان في وقت واحد . فقد اختار قورش مدينة «سوسا» عاصمة عيلام لتكون مركز إدارته عندما كان حاكما لإقليم «أنشان» أيام أن كان خاضعا لليديين ثم اتخذ بعد ذلك مدينة «اكباتانا» العاصمة الميديّة الشهيرة عاصمة له ، فلما تم له فتح مدينة بابل عام ٥٣٨ ق . م . اتخذها أيضا عاصمة له ، وقد اعتاد قورش أن يمكث في كل واحدة منها وقتا من الزمن .

واستقر رأيه بعد ذلك على إنشاء عاصمة جديدة وهي مدينة «بزرجادة» ، وتقع إلى الشمال من مدينة پرسپوليس (اصطخر) بخمسين ميلا ، ومعنى اسمها الأصلي

في الفارسية « مخيم الفرس » ومكانها على وجه التحديد الخرائب المعروفة في الوقت الحاضر باسم « مشهدى مُرغاب » . وتذكر بعض الروايات القديمة أن قورش اختار مكانها لأنها مكان الموقعة الحاسمة التي انتصر فيها « استياجز » آخر ملوك الميديين .

وظلت سوسا على أهميتها بمد تأسيس العاصمة الجديدة وبني فيها قصرا ، كما عمر أيضاً في بابل وبني فيها قصرا له ، كما نعرف أنه قبل تشييد قصره الجديد في بابل كان يقيم في قصر يختصر الذى كان في الجزء الشمالى من المدينة .

ولكن دارا لم يقنع بهذه العواصم القديمة ، واستقر رأيه على لإنشاء عاصمة جديدة في موطن قومه ، أى في فارس ، وقد أطلق اليونان عليها اسم « پرسيبوليس » ، أى مدينة الفرس ، وهى نفسها البلد المعروف باسم « اصطخرا » (Stakhra) . أى الحصن التى عرفت في أيام العرب باسم اصطخر . ابتداء دارا في تشييدها عام ٥٢٠ ق.م. ، ولكنها لم تتم إلا في عهد ارتخششتا الأول حوالى عام ٤٦٠ ق.م. ، وقد عثر في خرائبها على آثار هامة ، وما زالت تقوم فيها ، بالرغم مما تعرضت له بقايا القصور والدور الحكومية والمعابد مما يشهد بفخامتها وعظمتها ، ولكن مما يحزن النفس ويسجله بالعار على الإسكندر الأكبر أنه أقام فيها وليمة كبيرة أفرط فيها الجليـع في الشراب ثم قام بحرقها لإرضاء لإحدى محظياته التى كانت تكره الفرس .

وقبل أن نترك موضوع العواصم نذكر أن ما عثر عليه في خرائب مدينة بزرجادة ، يثبت أنها مدينة فارسية أصيلة لم تدخل عليها عناصر غريبة ذات أهمية. أما مدينة پرسيبوليس ففيها عناصر مختلطة في العمارة والزخرفة ، وفيما عثر عليه من تماثيل ولوحات وحلى وغيرها ، نرى فيها آثارا من فنون أواسط آسيا وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى وسوريا ومصر على الأخص .

الديانة :

كانت ديانة الفرس القدماء في العصور السابقة على ظهور الأخمينيين وإحداة من ديانات الهندو - أوروبيين الوثنية ، يعبدون قوى الطبيعة المختلفة مثل الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريخ ، واعتبروا كلامنها إلهها ، وكانوا يقدمون لها القرابين والأضاحي ، ويقوم بذلك طبقة من الكهنة ، وهؤلاء هم المجوس (Magi) الذين كانوا يحتلون مكانة كبيرة في المجتمع ، وكانوا يقومون بتفسير الأحلام للناس ، ويؤمن بهم العامة ، وبقوتهم الخارقة في عمل السحر وإخراج الشياطين .

وفي القرن السادس الميلادي ظهر نبي ليراني يسمى « زراثوشترا » (Zarathushatra) أو « زرادشت » الذي ورد في كتابات اليونان باسم (Zoro-aster) . نادى « زرادشت » بالتوحيد ، وهاجم الآلهة المتعددة هجوما عنيفا ، وكان اسم إلهه الذي بشر به هو « أهورا مزدا » وترجمتها الحرفية السيد العاقل .

ومن المرجح أن الموطن الأصلي لزرادشت كان في أرض الميديين ، ولكن دعوته لم تنجح في بلده ، فهاجر منه بحثا عن أمير أو حاكم يؤمن بما يدعو إليه ، ووجد ما أراده في جهات إيران الشرقية ، كما يرجح أيضا أن يكون أبو الملك دارا الأول ، كان هو الأمير الذي آمن بالنبي الجديد وديانته ، وأصبح متحمسا لها ، وذلك عندما كان واليا على بلاد الفريثيين .

أعلن زرادشت أنه لا يوجد إلا إله واحد وهو « أهورا مزدا » ، ولا يوجد إلى جانبه من آلهة أخرى إلا صفاته ، وأهمها الروح الطاهرة والعدل والنية الطيبة والعمل الطيب والصدق والتقوى والخلود . وبالرغم من أن « أهورا مزدا » هو الإله الأوحد صاحب السلطة في السموات ، إلا أنه كان له منذ البداية من ينازعه وذلك روح الشر . وعبادة أخرى كان هناك قوتان قوة الخير والنور ، وكل ما هو حسن وطيب ، وتمثل في « أهورا مزدا » ، وقوة الشر والظلام ، وكل ما فيه أذى

وسوء ، ويتمثل في « أهريمان » ، وعلى الإنسان أن يختار ، ولكن هناك يوم دينونة وحساب وستعيش أرواح الخيرين الأطهار في عالم سعيد خال من الشرور ، أما أرواح الأشرار فلها الويل والهلاك .

كانت هذه الديانة التوحيدية الرسمية للأخمينيين منذ عهد دارا الأول ، ولكن أثر الديانة القديمة ظل سائدا بين الشعب ، ولهذا لم يمض وقت طويل حتى أخذت بعض العناصر الوثنية القديمة تظهر في الديانة الجديدة في شكل أو آخر . فنجد مثلا منذ عهد « أرتخششتا الثاني » ظهور إله الشمس « ميثرا » (Mithra) ، وهو من الآلهة الإيرانية القديمة يظهر إلى جانب « أهورا مزدا » كإله للعدل والإخلاص ، كما انتشرت أيضا إلى جانبه عبادة إلهة أخرى في عبادتها عناصر غير إيرانية ، وهي الآلهة « أناهيتا » (Anahita) ، وهي إلهة الماء والخصب والنماء ، وتشبه في صفاتها عشتار البابلية . وقد انتشرت عبادة ميثرا وأناهيتا فيما بعد انتشارا كبيرا في أرجاء العالم وظلا قرونا كثيرة بعد ذهاب الأخمينيين والساسانيين من صفحات التاريخ .

والديانة الزرادشتية تحرّم الضحايا والقرايين ، كما حرمت شراب « الهوما » ، المسكر الذي كان المجوس يستخدمونه في طقوسهم الدينية ويعتبرونه دم الإله ، كما كانوا يقدسون عناصر التراب والماء والنار ، ولهذا حرّموا دفن الموتى أو غسلهم أو حرقهم مخافة تدنيس هذه العناصر ، ولهذا كانوا يضعون الموتى في أماكن مرتفعة فوق قمم الجبال أو فوق أبراج مرتفعة تبنى خصيصا لهذا الغرض ، ويضعون فوقها جسم الميت لتنشئ له الجوارح والوحوش ، ثم يجمعون العظام ويضعونها في صندوق وتدفن في قبر خاص .

وما زالت الديانة الزرادشتية حية إلى يومنا هذا ، ولكن أتباعها في العالم كله (ويسمون البارهي) لا يزيدون على مائة وعشرين ألفا على أكثر تقدير ، يعيش أكثرهم في مدينة بومباي في الهند ، وجاليات قليلة في إيران وفي عدن وبعض الموانئ ، وأتباعها معروفون أينما حلوا بالنظافة التامة والصدق والأمانة ، ويثق الناس في كلمتهم كتجار أمناء أينما كانوا .

ويذكر لنا المؤرخ اليوناني هيرودوت أنه لم يكن للفرس معابد أو هياكل أو تماثيل للآلهة ، وربما كان هذا صحيحا إذا قارناه بما كان متبعها لدى اليونانيين ، إذ لم يكن للفرس معابد يذهب إليها الناس للعبادة وتقام فيها الطقوس والمراسيم كل يوم ، ولكن كانت لهم معابد لم يزد أحدها على أنه برج مربع فيه غرفة واحدة يرقى إليها الكهنة المجوس بسلم ليتولوا شأن النار المقدسة ، وعلى مسافة غير قليلة من المعبد ، كانت تقام مذابح في العراء ، وذلك لأجل الاحتفالات الدينية ، أما عن إقامة التماثيل أو عمل الصور للآلهة فقد وصل إلى أيدينا عدد غير قليل من ذلك .

ولا يمكننا ترك موضوع الديانة في إيران دون الإشارة إلى ما تركته من أثر كبير في أكثر بلاد الشرق القديم لمدة لا تقل عن ألف سنة ، ولو تركنا أثر الديانة الزرادشتية على اليونان والرومان وبعض بلاد آسيا جانبا فانه لا يمكن تجاهل أثرها على المسيحية والإسلام .

القانون :

عندما أعاد ددارا الأول ، تنظيم امبراطوريته وجد أن الحاجة ماسة إلى وضع قوانين يسير عليها الناس ، ومن السهل علينا دراسة هذه القوانين فيما خلفه من نقوش في يهستون وسوسا وپرسپوليس ونقش رستم ، ونرى فيها أنه استعان بقوانين بابل القديمة وعلى الأخص قوانين حمورابي ، وكان تطبيق العدل هو الهدف الأكبر لدارا ، ولهذا حرص كل الحرص على تأمين تطبيق أحكام القانون واحترام القضاة طالما لا يثبت على أحد منهم الانحراف . كان الملك نفسه هو مصدر القوانين ، وكانت أحكامه التي يصدرها يعتبرها الناس موحى بها من الإله أهوردا مزدا نفسه .

كان الملك هو أعلى أنواع المحاكم التي يستأنف إليها الناس ما تصدره المحاكم الأخرى ، وكانت تليه محكمة عليا خاصة مكونة من سبعة حكام ، ثم يلي هذه المحكمة العليا المحاكم الأخرى التي كانت منتشرة في جميع أرجاء المملكة .

وكانت هناك درجات للجرائم ، ولكل منها عقاب محدد إلا أنه في بعض الحالات كانت توقع عقوبات خاصة . فشلا إذا قبل أحد الحكام رشوة ، فإن ذلك كان يعد جريمة كبرى جزاؤها القتل في بعض الأحيان ، ويروى أن واحدا من الحكام في أيام قبيز لم يلزم العدل وقبل رشوة ، فأمر قبيز بسلخه حيا واستخدام جلده ليكون جلدا للمعد الذي يجلس عليه القاضي ، وفي الوقت ذاته لم يجد ما يحول دون تعيين ابن ذلك القاضي في منصب أبيه .

ولم يكن الفرس الأخمينيون يقولون في قسوتهم عن الآشوريين في معاملة من يخضعون عليه من الناس إذ كانوا يتفنونون في تعذيبهم . يروى لنا المؤرخ الروماني بلوتارك عند ترجمته لحياة الملك أرتخششتا الثاني ؛ أن أحد الجنود ، ثمل وأخذ يتباهى أمام زملائه أنه هو الذي قتل أخشورش في موقعة كوتاكسا وليس الملك ، فأمر أرتخششتا بأن يموت ميتة القوارب . ويفسر بلوتارك هذه الطريقة في الإعدام بأنهم يهيئون قاربين متماثلين تماما يضعون المحكوم عليه بالإعدام في أحدهما نائما على ظهره ويضعون فوقه القارب الآخر ، ولا يظهر من المحكوم عليه إلا رأسه ويداه ورجلاه من ثقب تعمل خصيصا لهذا الغرض . وبعد أن يطعموه يصبون فوق رأسه وفيه مزيجا من اللبن والعسل ويحركون القاربين ليجمعا وجهه نحو الشمس دائما ومرتعا ما يحيط عليه الذباب فيضايقه مضايقة شديدة ، كما تحط عليه بعض الحشرات الأخرى فتسبب له الألم ، كما أن ما يفرزه جسمه في داخل القارب يولد الحشرات والديدان التي تظل تتوالد حتى تفتك به وتصل إلى أحشائه الداخلية . وقد ظل الجندي سبعة عشر يوما وهو يلاقى العذاب الشنيع حتى مات .

الفن :

ازدهر الفن في عهد الأسرة الأخمينية ازدهارا كبيرا ، ولكن هذا الازدهار لم يكن نتيجة تطور فن محلي استغرق بعض الوقت حتى وصل إلى ما وصل إليه ،

ولكنه كان سريما ككتكوين الإمبراطورية نفسها . وبالرغم من أن الفرس القدماء كانت لديهم بعض الفنون وخاصة في صناعة المعادن وعلى الأخص البرونز، وأنه عثر على كثير من الأدوات والآلات والحلى في اللورستان ، إلا أن أثر ذلك على الفنون بوجه عام لم يكن إلا أثرا ضئيلا ، لأن الاتجاه الجديد منذ إنشاء الأسرة هو الاقتباس من الحضارات التي ضمها إلى إمبراطوريتهم ، كما اقتبسوا أيضا مؤثرات من فن الإغريق .

فتجدهم مثلا في ناحية العمارة يشيدون القصور ، ونجد الكثير من ذلك في خرائب مدينة پرسپوليس ، ونجد أنهم اتبعوا في عمارتها أساليبها لم تكن معروفة تماما في بابل أو في آشور أو في مصر ، ولكنهم مع ذلك اقتبسوا من أساليب تلك الحضارات الشيء الكثير ، ونجد في زخارفها المعمارية وفي تماثيلها ما يدل على الأصل الذي تأثروا به .

ومما عني به المعماريون الأخمينيون موضوع الأعمدة التي كانت كلها من الحجر ، وكانت لها تيجان تحمل السكتل الضخمة من الأخشاب التي كانت تحمل السقف ، وكان في كل قصر من القصور أبهاء متسعة للاستقبال ، وكان في أحد الأبهاء في قصر پرسپوليس مائة عمود ، وكان اسم البهو بهوالمائة عمود . وفي قصر آخر في مدينة سوسا كان اتساع البهو الكبير أكثر من هكتار مربع ، أي ما يماثل تقريبا المساحة التي يشغلها البهو المربع الشهير في قصور اللوفر .

وكانت جدران تلك القصور مزخرفة بالنقوش التي تختلف موضوعاتها من قصر إلى آخر ، كما كانت جدران السلم مزخرفة أيضا بمناظر تمثل الخدم أو حملة الجزية من نواحي الإمبراطورية المختلفة وهم يحملون ما أتوا به لتقديمه إلى ملك الملوك .

ولاشك أن العنصر الهام في الزخارف مقتبس من آشور وبابل ، وفي حالات غير قليلة من مصر ، ولكن هناك أيضا تأثيرات فنية مصدرها المدن

اليونانية التي كانت في آسيا الصغرى ، وبعبارة أخرى نجد مزجا فنيا مقبولا يجمع بين مؤثرات فنية من أوروبا وآسيا .

لم تعمّر دولة الأخمينيين إلا أقل من قرنين ، كما قلنا ، وبالرغم من أن القضاء عليها تم على يدى الإسكندر فإن انتصاره لم يؤد إلى زوال تلك المدنية أو اندثارها أو ارتدادها أمام المدنية اليونانية المنتصرة ، بل نراها تخرج من كل تلك التجارب وقد احتفظت بالكثير من عناصرها ، كما نرى ذلك بوضوح في أيام دولة الساسانيين ، بل ولا يمكننا تجاهل أثر ديانات الفرس على اليونانيين والرومانيين ، ثم على المسيحية والإسلام ، ولا يمكننا أيضا أن نغفل من شأن أثر حضارة الفرس على حضارة العرب المسلمين في شتى النواحي عند ما قضى المسلمون على عرش كسرى وأصبحت فارس بلدا من البلاد الإسلامية .



الفصل الثامن

مَخَارِجُ مَنَ لَوَثَائِقِ التَّارِيخِيِّينَ

أولاً : من وثائق التاريخ المصري القديم :

(١) غنائم الحملة الأولى لتحتس الثالث .

(٢) الحملة الحربية الثامنة .

(٣) من رسائل تل العمارنة . ثلاث رسائل أرسلها ، عبدو - هب ،
(٤) أمير أورشليم .
(٥)

ثانياً : من وثائق ما بين النهرين :

(١) حملة تجلات - پلسر الأول على سوريا ولبنان .

(٢) حملة تجلات - پلسر الأول في الصحراء السورية .

(٣) حملة سرجون الثاني على فلسطين ولبنان .

(٤) حملة سنخريب على فلسطين .

(٥) حملة أسرحدون على العرب ،

(٦) حملة أسرحدون على مصر .

ثالثاً : من وثائق تاريخ الحيثيين :

(١) شوبيلوليوماس وأرملة توت عنخ أمون .

(٢) نقش ختوسيليس عن حرب مواتليس مع مصر .

الهدف من نشر هذه المختارات من الوثائق التاريخية هو إعطاء القارىء صورة للأسلوب الذى كانت تستخدمه كل حضارة من تلك الحضارات فى تدوين نصوصها ، إذ أنى بذات كل ما فى وسعى لأقدم ترجمة حرفية لكل ما اخترته حتى ولو بدا أسلوب الترجمة إلى العربية ركيكا أو صعب الفهم فى بعض المواضع .

وليسست هذه المجموعة من الوثائق أهم ما فى وثائق تلك الحضارات ، فإن ذلك بعيد كل البعد عن حقيقة الأمر ، ولكن السبب فى اختيارها راجع إلى كونها توضح لنا جانباً من الصلات السياسية بين الشعوب المختلفة فى بلاد الشرق القديم .

أولاً — من وثائق التاريخ المصرى القديم : من وثائق حملات تحوتمس الثالث على غربى آسيا :

تولى تحوتمس الثالث عرش مصر عام ١٤٩٠ ق . م . ولكن الصراع بينه وبين عمته الملكة حتشبسوت التى كانت زوجة لأبيه تحوتمس الثانى ، والتى اشتركت معه فى الحكم أدى إلى انفرادها بحكم البلاد ، بينما ظل تحوتمس الثالث بعيداً أشبه بسجين حتى العام الثانى والعشرين من توليه العرش . فى هذا العام تم استرجاعه لجميع حقوقه ، وقضى على حتشبسوت وأنصارها ، ونجده يسارع إلى تعبئة الجيش والسير به إلى فلسطين ، ومنها إلى سوريا لإنقاذ ثورة قامت هناك ضد مصر وكان قد اجتمع ٣٣٠ أميراً ، ومع كل منهم رجاله فى تحالف تحت زعامة أمير قادش (على مقربة من حمص) ، وتقدم هذا الجيش المتحالف إلى مدينة مجدو (فى فلسطين) .

وعند عودة تحوتمس الثالث منتصراً أمر بكتابة نتائج حملاته على جدران معبد الكرنك ، وهى محفوظة حتى الآن ، كما نرى إشارات لبعض هذه الحملات وتتألف على بعض اللوحات الأخرى لهذا الملك ، وفى تاريخ حياة بعض قواده العسكريين إذ سجلوا كثيراً من حوادث تلك الحروب على جدران مقابرهم .

(١) وما هي ترجمة جزء من النقش الخاص بحملته الأولى التي بدأها في العام الثاني والعشرين ، الشهر الرابع من الفصل الثاني ، اليوم الخامس والعشرين^(١) ، من حصن فارو — مدينة القنطرة الحالية . يروى تحوتس تفصيلات سيره إلى غزة ثم تقدمه نحو الشمال ، وما واقته به مخابرات الجيش والمؤتمر الحربي الذي عقده ثم مفاجأته للعدو من طريق غير مطروق بين الجبال ، ثم هجومه على مجدو ، وقد اخترت الجزء الخاص بما استولى عليه من غنائم ، وهي تبدأ في السطر ٩٤ من نص معبد الكرنك لأنها توضح لنا محصلات البلاد السورية وتقدمها الحضارى في القرن الخامس عشر ق. م . :

« والآن أتى أمراء هذا البلد الأجنبي ، وهم على بطونهم ليقبلوا الأرض أمام عظمة جلالته ، وليستجدوا النفس لخياشيمهم ، لأن ذراعه كان قويا جداً ، وذلك لأن قوة أمون كانت فوق كل بلد أجنبي . (جاء) جميع الأمراء الذين سمعتم قوة جلالته يحملون جزيتهم من الفضة والذهب واللازورد والفيروز ، ويحملون الحبوب والنييز والماشية ، كبيرة وصغيرة ، لأجل جيش جلالته ، ومنهم جماعة ذهبت حاملة الجزية نحو الجنوب^(٢) . ثم عين جلالته أمراء جدد لكل مدينة »

[بيان بالغنائم التي أخذها جيش جلالته من مدينة [مجدو] :

٣٤٠ أسيراً ، ٨٣ يداً^(٣) — ٢٠٤١ حصاناً و ١٩١ مهراً و ٦ من خول الخيل و . . . مهراً — عربة واحدة محلاة بالذهب وهيكلها من الذهب ، وهي

(١) العام الثاني والعشرون من حكم الملك ، أما الشهر الرابع من الفصل الثاني فإن ذلك يشير إلى تقسيم المصريين لعمود السنة إلى ثلاثة فصول كل منها أربعة شهور — وهذا اليوم بالذات يوافق يوم ١٦ أبريل عام ١٤٦٨ قبل الميلاد .

(٢) أي ذهبت متجهة إلى مصر تحمل الجزية .

(٣) أي ثلاثة وثمانون شخصاً قتلهم جنود تحوتس أثناء الدفاع عن المدينة وقطعو اليد اليمنى من كل منهم ، وقدموها إلى الملك لإنات ذلك .

خاصة بذلك العدو - وعربة واحدة حسنة الصنع ومحلة بالذهب تخص أمير [مجدو] ٨٩٢ و ٠٠٠٠ عربة تخص جيشه التسع - المجموع : ٩٢٤ - ١ غلالة زرد حسنة الصنع من البرونز تخص أمير مجدو - و ٢٠٠ غلالة زرد مصنوعة من الجلد تخص جيشه التسع - ٥٠٢ قوساً - و ٧ أعمدة من خشب إل - مرو مغطاة بالفضة وهي خاصة بخيمة ذلك العدو .

واستولى جيش جلالته [ماشية] ٠٠٠ - ٣٨٧ - ٠٠٠٠ ١٩٢٩ بقرة - ٢٠٠٠ حنزا ، ٢٠٥٠٠ من الغنم .

كشفت بما استولى عليه الملك من أشياء مملوكة لذلك العدو ، الذي كان في (مدن) يَنْشَعْم ونوجس وهرنكرو مع ما تملكه تلك المدن التي قبلت الخضوع له - ٣٨ محارباً من الماريانو^(١) من بينهم - ٨٤ لبناء لذلك العدو ، ومن الأمراء الذين كانوا معه - و ٥ ماريانو كانوا معهم - ١٧٩٦ رقيقاً من الذكور والإناث وأولادهم - و ١٠٣ شخصاً عفا عنهم لأنهم هربوا من ذلك العدو بسبب ما أصابهم من جوع - المجموع ٢٥٠٣ - وذلك عدا الأواني المصنوعة من الأحجار الغالية والذهب . أواني مختلفة (١٠٠) إناء كبير من النوع المسمى «أكونو» صناعة سورية ، جرار وطاسات وأطباق وأواني شراب مختلفة ، وقدر كبير [٠٠٠] و ١٧ سكيناً - وهي كلها ١٧٨٤ دين^(٢) - أقراص من الذهب كانت معدة لتصنع ، و كمية كبيرة من أقراص الفضة - (المجموع) ٩٦٦ دين ، و ١ دقدي^(٣) - تمثال من الفضة على هيئة (وتمثال) ورأسه من الذهب - ثلاث عصي لها أيدي على شكل رأس إنسان - ٦ محفات خاصة بذلك العدو ، وهي من العاج والابنوس

(١) الماريانو طبقة من المحاربين الممتازين الذين يقودون غيرهم في القتال ، ويمكن ترجمتها بكلمة «ضابط» .

(٢) الدين ٩١ جرام أي أن مجموع وزنها من الذهب أكثر من ١٦٢ كيلو جراما .

(٣) غير واضح إن كان ذلك هو وزن أقراص الذهب وحدها أو وزن الذهب والفضة معا .

وخشب الخروب محلاة بالذهب - و ٦ كراشى توضع عليها الأرجل تابعة لها -
٦ طاوولات كبيرة من العاج وخشب الخروب - سرير خاص بذلك العدو مصنوع
من خشب الخروب محلى بالذهب ، وجميع أنواع الأحجار الغالية على هيئة كركر
ومحلى كله بالذهب - وتمثال لذلك العدو كان معه ، وهو من الأبنوس المحلى بالذهب
ورأسه من اللازورد - أواني من البرونز وملابس كثيرة لذلك العدو .

وقسمت الحقول إلى قطع زراعية وزعت على مفتشى القصر ، له الحياة
والصحة والسعادة ، لكي يجمعوا المحصول - بيان بالمحصول الذى استولى عليه
جلالته من حقول مجدو : ٢٠٧,٣٠٠ (+ ٩٠٠) غرادة من القمح وذلك عدا
ما قطعه جيش جلالته ليكون علفاً

(٢) لم تكن الحملة الأولى إلا بداية لستة عشر حملة حربية فى مدى عشرين
عاما ، وقد وصل فى حملته الثامنة إلى الفرات وعبره ، وخضعت له بلاد ما بين النهرين ،
وها هو جزء من النصر المصرى الخاص بهذه الحملة ، كما ورد فى لوحة جبل برقل (١) :

« عند ما قصد جلالتي إلى سهول آسيا أمرت ببناء سفن كثيرة من خشب
الأرز على جبال « أرض الإله » على مقربة من « سيدة جبيل » (أى فى لبنان)
ووضعوها على عربات تجرها الثيران ، وسارت أمام جلالتي لكي تعبر ذلك النهر
الكبير الذى يقع بين هذه البلاد وبين بلاد نهارينا (٢) . إنه ملك بحق يفخر الناس
بمدى قوة ذراعيه فى القتال ، ذلك الذى عبر المنحنى العظيم (أى الفرات) وهو

(١) أقام تحوتس الثالث فى العام السابع والأربعين من حكمه لوحة جرانيتية عند سفح
جبل برقل فى مدينة لبتا على مقربة من الشلال الرابع يذكر فيها بعض ما حدث فى عهده . وقد
قام ريرز بنشرها وترجمتها فى عام ١٩٣٣ كما نجد نصها منشورا أيضا أكثر من مرة وأحدث
ترجمة لها بالإنجليزية هى ترجمة جون ولسون المنشورة فى كتاب :

Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, (2nd edition, 1955, p. 238, 240).

(٢) يعتبر صنع هذه السفن فى فينيقيا ونقلها إلى الفرات من الأعمال الدالة على أعظم
الصفات الحربية لذلك الملك العظيم .

يطارد الذى هاجمه ، وسار على رأس جيشه باحثاً عن العدو التمس فى بلاد الميثاقى
عند ما هرب أمام جلالتي إلى بلد آخر ، إلى مكان بعيد نظراً لخوفه .

وأقام جلالتي بعد ذلك فوق جبل نهارينا هذا لوحى التى قطعت من ذلك
الجبل فى الناحية الغربية من المنحنى العظيم (الفرات) . . .

وعند ما تقدمت جنوباً نحو مصر بعد أن أعملت السيف فى نهارينا صار
الخوف عظيماً فى أفواه البدو ، فأغلقت أبوابهم بسبب ذلك ولم يجرؤوا على الخروج
منها إلى الأرض الفضاء خوفاً من الثور (إشارة إلى الملك) .

وما هى حادثة انتصار آخر منحه لى (الإله) رع ، إذ كرر لأجل عملا بطوليا
عند مورد مياه مدينة د نى ، عند ما جعلنى ألتقى بمجموع من الفيلة ، وحاربهم
جلالتي وكان عدد القطيع ١٢٠ ، ولم يتيسر مطلقاً مثل ذلك منذ أيام الإله لآى
ملك حمل التاج الأبيض . لى قلت ذلك دون أى ثغر فى قوى أو مبالغة فى ذلك .

وفى كل عام يقطعون لى من بلاد د زاهى ، أشجاراً ضخمة من أرز لبنان
يحضرونها إلى القصر ، له الحياة والسعادة والصحة ، يأتى الخشب إلى مصر لأجل ،
يحضرون (خشباً) جديداً من د نجاو ، (بلد فى فينيقيا على الأرجح) ،
أفضل أخشاب د أرض الإله ، لىأتى إلى مقر البلاط دون أن يظل خلال الموسم
هناك فى كل عام وفى كل السنين .

وعند ما يأتى جيشى الذى يكون حامية مدينة د أولازا ، (مدينة غير معروفة
الموضع على الشاطئ الفينيقى) [يحضرون الجزية] وهى أخشاب الأرز التى حصلت
عليها بانهتصارات جلالتي بفضل توجيهات أبى [الإله أمون رع] الذى منحنى جميع
البلاد الأجنبية ، ولم أعط شيئاً منه إلى الأسويين لأنه الخشب الذى يحبه

بعض رسائل قل العمارنة :

أشرت إلى هذه الرسائل بشيء من التفصيل عند حديثى عن تاريخ سوريا ،
وعددها المعروف حتى الآن ٣٣٧ رسالة ، وهى مكتوبة باللغة الأكديّة الدارجة

ويرجع تاريخها إلى أيام الملوك أمنحوتب الثالث وابنه إخناتون . والرسائل كلها مترجمة ونشرت عنها أبحاث كثيرة ، وقد قام في السنوات الأخيرة كل من الأستاذين أولبريت ومندنهول (W.F. Albright and George E. Mendenhall) بترجمة ثمانية وعشرين رسالة منها ، تعتبر من أهمها كلها ، ترجمة دقيقة نشرها في ANET (الطبعة الثانية ١٩٥٥ ، ص ٤٨٣ — ٤٩٠) ، وقد اخترت ثلاثة منها تمثل حالة فلسطين في أواخر حكم أمنحوتب الثالث وأوائل أيام حكم إخناتون ، عند ما كانت عصابات العايطرو تعيث في البلاد فسادا ، وكانت « خيتا » تساعد الثائرين في جميع أرجاء تلك البلاد - وهذه الرسائل الثلاثة مرسله من أمير أورشليم « عبدو - هبا » :

(٣) رسالة رقم EA ٢٨٦ :

قل للملك سيدي أن « عبدو - هبا » خادمك . عند قدمي سيدي الملك أرتمي سبع مرات وسبع مرات . ما الذي فعلته ضد سيدي الملك ؟ إنهم يلوموني أمام الملك (قائلين) « إن « عبدو - هبا » يثار ضد الملك سيده » . انظر ! أما من ناحيتي فلم يكن أبي ولم تكن أمي الشخص الذي وضعني في هذا المنصب ، ولكن ذراع الملك القوي هو الذي أتى بي إلى بيت أبي ! فلماذا أرتكب عصيانا ضد الملك سيدي ؟ وطالما كان الملك سيدي على قيد الحياة فإنني سأقول لنائب الملك سيدي : « لماذا تحبب العايطرو وتعمل ضد الحكم ؟ » ولهذا السبب فإنه يوجه إلى اللوم في حضرة الملك سيدي . لأنه قيل ، ضاعت أراضى الملك سيدي ، ألام أمام الملك سيدي ! ولكن ليعلم سيدي الملك أنه عندما وضع الملك حامية أتى « ينهمو » واستولى عليها قوات الرماة . . . أرض مصر . . . يا سيدي الملك أنه لا يوجد جنود حامية (هنا) وأرجو أن يعنى الملك بهذه البلاد . إن بلاد الملك كلها قد تارت ، ويتسبب « إيليملكو » في فقد كل أرض الملك ، وليت الملك يعنى بأرضه ! إنى أردد قائلا : « دعوني أدخل إلى حضرة الملك سيدي ، ودعوني أرى عينى الملك سيدي » . ولكن العداء نحوى شديد ، ولهذا لا أستطيع الدخول إلى

حضرة الملك سيدى . وليت الملك يرسل قوات الحماية حتى أستطيع الدخول لأرى عيني الملك سيدى . وعندما يغادرنا نواب الملك ، فإنى رائق ثقى فى حياة الملك إنى سأقول . « لقد ضاعت أراضى الملك ا ، ألا تستمع لى ؟ » إن جميع المحاكم قد ضاعوا ولم يبق لى سيدى الملك حاكم واحد . ليت الملك يهتم بأمر الرماة ، وليت الملك سيدى يرسل جنودا من الرماة لأنه لم تعد هناك أرض باقية من أراضى الملك . إن العايطرو ينهبون جميع أراضى الملك فإذا أتى جنود من الرماة هذا العام ، فإن أراضى الملك سيدى ستبقى دون أن تمس ، أما إذا لم يأت الرماة (إلى هنا) فإن أراضى الملك سيدى ستضيع ا .

إلى كاتب الملك سيدى . أنه من « عبدي » هبا ، خادمك . قل قولاً فصيحاً للملك سيدى - أن جميع أراضى الملك سيدى قد ضاعت ا .

(٤) رسالة رقم EA - ٢٨٨ :

« إلى الملك سيدى وإلمى : يقول عبدي - هبا خادمك .

« عند قدمى الملك سيدى أرتدى سبع مرات وسبع مرات ، أنظر ا إن الملك سيدى وضع اسمه فى المكان الذى تشرق منه الشمس ، وفى المكان الذى تغرب فيه . إنه أمر ملمون ذلك الذى فعلوه ضدى . أنظر ا لى لست حاكماً ولست أيضاً ضابطاً من ضباط الملك سيدى ، بل ما أنا إلا أحد رعاة أغنام الملك وحامل للجزية الملكية . لم يكن أبى ولم تكن أمى بل ذراع الملك القوى هو الذى وضعنى فى بيت أبى [..] أتى لى [....] وسلمته فى يده عشرة أرقاء . وأتى لى « شوتاه » نائب الملك وسلمته فى يده واحداً وعشرين فتاة وثمانين أسيراً هدية للملك سيدى . ألا ليت الملك يلتفت إلى أرضه ا إن أرض الملك قد ضاعت كلها ، إنهم أخذوها منى ، وهناك حرب ضدى تمتد حتى أراضى « سير » وإلى « جلت » . إن جميع المحاكم يعيشون فى سلام ولكن هناك حرب ضدى . لى أصبحت كواحد من العايطرو ، ولا أرى عيني الملك سيدى لأن هناك حرباً ضدى . لقد أصبحت مثل سفينة فى وسط البحر ا إن ذراع الملك القوى يهزم أرض النهرين ، وأرض كوش

ولكن العايطرو أصبحوا يستولون الآن على مدن الملك . لم يبق حاكم واحد من
حكام الملك سيدى ، فانهم هلكوا جميعا . انظر ! أن دتور بازو ، قد قتل عند باب
مدينة ثارو (سيلا — القنطرة الحالية) ، ومع ذلك يظل الملك هادئا . انظر !
أن الـ ديمردا ، أهل مدينة لاشيش ، وهم من العبيد قد انقلبوا وأصبحوا
عايطرو ، أن دياپتيه — هدد ، قد قتل في قلب بوابة مدينة د ثارو ، ، ومع ذلك
فالملك يظل هادئا ! . لماذا لم يدعوهم الملك لمحاسبتهم ؟ . ليت الملك يعنى بأرضه
وليت الملك يقرر ، وليت الملك يرسل جنودا رماة إلى أرضه ! (ولكن) إذا لم
يأت رماة هذا العام فان جميع أراضي الملك ستضيع . أنهم ان يقولوا للملك
سيدى أن أرضه قد ضاعت ، وأن جميع الحكام قد قتلوا ! فاذا لم يأت جنود رماة
إلى هنا هذا العام فأرجو أن يرسل الملك رسولا ليأخذنى معه ومعى أخوتى
وسنموت قريبا من الملك سيدنا !

إلى كاتب الملك سيدى : من دعبدو - هبا ، خادمك . لى أرتمى عند قدميك ،
قل للملك سيدى كلمات فصيحة لى خادمك ولى ابنك . . .

(٥) رسالة رقم EA ٢٩٠

قل للملك سيدى : أن دعبدو - هبا ، خادمك . لى أرتمى عند قدمى الملك
سيدى سبع مرات وسبع مرات .

أنظر العمل الذى عمله دماسكيلو ، و د شوار داتا ، ضد أرض الملك سيدى ! .
لأنهم أرسلوا قوات من الجنود من د جزر ، وقوات من د جاث ، وقوات من
د كيلاه ، واستولوا على أرض د روتو ، وأصبحت أرض الملك من أملاك قوم
العايطرو . وحدث أكثر من ذلك أن إحدى مدن أرض أورشليم اسمها د بيت
لحى ، وهى إحدى مدن الملك انضمت إلى جانب أهل د كيلاه .

ليتك يا سيدى الملك تصفى إلى دعبدو - هبا ، خادمك . ليت (الملك)
يرسل رماة يستعيدون الأرض الماسكية للملك ! ولكن إذا لم يأت الرماة فإن

أرض الملك ستصبح ملكاً لقوم العايطرو . لقد حدث ذلك بأمر «ملكيلو» وبأمر
«شوار داتا» . . . فليت ملكي يعني بأرضه .

ثانياً — من وثائق بلاد ما بين النهرين :

(١) تجلات - پلر الأول ١١١٤ — ١٠٧٦ ق م .

نقش على لوح من الطين كان وديعة أساس في معبد «أنو» - أدد ، في مدينة

أشور نشره Luckenbill, A.R.I. §§ 300—303 .

تجلات پلر ، الملك الشرعي ، ملك الدنيا ، ملك آشور ، ملك أربع أطراف
(الأرض) ، البطل الشجاع الذي يعيش بإرشادات ما يوحى به آشور ونيورتا
من وحي صادق ، الذي هزم جميع أعدائه ، ابن «أشور رشيئي» ، ملك الدنيا ،
ملك آشور ، ابن متكل نوسكو ، وهو أيضاً ملك الدنيا ، ملك آشور .

بأمر سيدي آشور استولت يدي على (البلاد) التي تبدأ من وراء نهر الزاب
الأسفل حتى البحر الأعلى الذي في الغرب . لقد سرت ثلاث مرات لمحاربة ممالك
«نايري» ، قهرت بلاد «نايري» ، الشاسعة من أرض «تومي» ، حتى «دايايني» ،
و «حموا» ، إلى بلاد «پايتري» ، و «ههبي» ، وجعلت ثلاثين ملكاً من ملوك بلاد
«نايري» ، يطأطئون إلى قدمي وأخذت منهم الرهائن وأتتني جزيتهم من الخيل ،
وقد تم تدريبها وفرضت عليهم جزية دائمة وهدايا الـ «تمارتو» .

وذهبت إلى لبنان «لاب - نا - ا - ني» ، وقطعت خشب الأرز اللازم لمعبد
«أنو» ، و «أدد» ، الإلهين العظيمين ، سيدي ، وحملته (إلى آشور) . وواصلت
سيرتي إلى بلاد «أمورو» ، واستوليت على كل بلاد «أمورو» ، وجاءتني الجزية من
بيبلوس (مدينة جبيل : جو - بال) وصيدا (صي - دو - ني) وأوراد
(أر - ما - دا) .

وركبت سفن «أرواد» ، وقطعت البحر من «أرواد» ، التي تقع على شاطئ
البحر إلى مدينة «سموري» ، التي في بلاد «أمورو» على مسافة ثلاثة أميال مزدوجة

في الداخل . وقتلت يأسورا^(١) وهو الذي يسمونه فرس البحر ، وكان ذلك في داخل البحر .

وفي طريق العودة (إلى آشور) أخضعت دولة « ختى الكبرى » ، بأكملها وفرضت على « إيلي - تشوب » ملك « ختى الكبرى » جزية وزنة ومن كتل أخشاب الأرض .

(٢) جزء من نقش على منشور مئمن ، ربما كان ودبعة أساس في القصر الملكي - خاص بحروب تيجلات پلسر الأول في سوريا :

« حاربت شعوب الـ « أحلامو » ثمانية وعشرين مرة ، وحاربت الآراميين ، وعبرت الفرات مرتين في سنة واحدة ، وهزمتهم ابتداء من مدينة تدمر (تد - مر = پليرا) التي في بلاد « أمورو » و « أنت » التي في بلاد « سوهو » حتى مدينة « ريقو » التي في بلاد « كار - دونياش » (أي بلاد بابل) ، وأحضرت ما يملكونه كغنائم حرب إلى مدينتي آشور » .

(٣) من عهد سرجون الثاني ٧٢١ - ٧٠٥ ق . م .

من حولياته التي كانت منقوشة على ألواح من الحجر عثر عليها خربزباد (دور - شروكين) مترجمة في Luckenbill, A.R., II § 55 .

وفي العام الثاني من حكمي جمع « إيلو - ييأدي » من حماة (حما) جيشاً كبيراً ، وسار به إلى مدينة قرقر (ناسيا) القسم [الذي أقسموه . . .] وثارت ضدني مدن [أرواد وسييرا] ودمشق وسامرية واتفق « هنتو » (أمير غزة) معه (أي فرعون مصر) فأرسل (أي فرعون) إلى نائبة الذي يسمى « سبتئي » (أي نائب ملك مصر ؛ وكان لقبه كما ورد في النصوص الآشورية « تورتان »)

(١) في الآشورية « نخبو » وهو نوع من الحيتان ذكرته بعض المعجمات الحديثة تحت اسم يأسور ، وفي اللغة الإنجليزية Narwhal .

ليساعدته (أى يساعد هُنو) ، أما هو (أى سبئ) فقد قام بجيشه ضدى لينخوض معركة حاسمة . فهزمتهم (أى هنو وسبئ) وفقا للأمر الذى أصدره ربى (الإله) آشور ، وأصبح «سبئ» ، مثل سبيا (أى راضى - ونجد هنا تلاعبا بالألفاظ) ، سرقوا منه أعتامه فقر وحيدا واختفى . أما «هنو» فقد أسرته بنفسى وأحضرتة فى الأغلال إلى مدينتى آشور . وهدمت مدينة «ريهو» (رفح) ، هدمت أسوارها وأحرقتها ، وأخذت ٩.٣٣ أسيرا من أهلها وبممتلكاتهم العديدة .

(٤) من عهد سنخريب ٧٠٤ - ٦٨١ ق.م .

من نقوش منشور سنخريب المحفوظ فى المعهد الشرقى بشيكاجو - سطور

١٧ - ٢١ ترجمة Luckenbill, A.R., II, § 347 .

«وخاف «لولى» ملك صيدا أن يحاربني وفر إلى قبرص التى فى وسط البحر ، وأقام فيها ، ولكنه ، حتى وهو فى تلك البلاد ، لاقى ميتة بشعة من «سلاح» سيدى آشور ، (ذلك السلاح) الفخم الذى يلقى الرعب فى النفوس .

ونصبت «إثبعل» على عرشه الملكى وفرضت عليه الجزية المستحقة لى كسيده . وخربت منطقة يهودا (يا - وو - دى) وجعل ملكها المتعجرف الابن «حزقيا» (غا - زا - قى - ا - ا - ا) يحنى رأسه فى خضوع .

(٥) من عهد أسرحدون ٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م .

حملته ضد العرب - الترجمة منشورة فى ANET (1955), p. 291 .

«(ومن) «أدوماتو» (بلاد الجوف فى شمالى شبه الجزيرة العربية) قلعة العرب التى استولى عليها أبى سنخريب وأخذ منها كغنيمة ما كانت تملكه ، تمائيلها وكذلك «إسكلانو» ملكة العرب وأحضر ذلك (كله) إلى آشور ، جاء «حزبيل» ملك العرب ومعه هدايا كثيرة إلى نينوى ، مقر حكى وقبل قدمى ، ورجانى أن أعيد تمائيله وأن أتولاه برحتى . فأصلحت ما أصابها من تهشيم ، وهى تمائيل

«أمارسمين» ، «دای» ، «نهی» ، «رولدايو» ، «أبیریللو» ،
«أمارقوروما» (١) آلهة العرب وأعدتها إليه بعد أن وضعوا فوقها نقشاً يعلن
قوة سيدي الإله آشور العليا ، واسمى شخصياً . وجعلت «تربوا» التي نشأت في
قصر أبي ملكة عليهم وأعدتها إلى بلدها الأصلي مع آلهتها . وفرضت عليه جزية
إضافية أن يدفع ٦٥ جملاً كبيراً وعشر جمال صغيرة (بعير) أكثر مما كان
من قبل .

ولما حل القضاء بحزبيل أجلست «يشع» (يتأ) ابنه على عرشه وفرضت
عليه أن يدفع جزية مكونة من ١٠ مينا من الذهب و ١٠٠٠ حجر من النزع
المسمى «بيروقي» وخمسين جملاً و ١٠٠ قرية من النوع المسمى «كونزو» ملائ
بالمواد العطرية أكثر مما كان يدفعه أبوه .

وحدث بعد ذلك أن «وهب» (وابو) أغرى جميع العرب ليثوروا ضد
«يتأ» لأنه أراد أن يكون هو الملك ، ولكفى ، أنا أسرحدون ، ملك آشور وملك
أطراف الدنيا الأربع الذي يحب العدل ويكره عدم الاستقامة ، أرسلت جيشي
لمساعدة «يتأ» وأخضعوا جميع العرب ووضعوا «وهب» والجنود المحيطين به
في القيود وأحضروهم إلى ، فوضعت الأغلال في أعناقهم وربطتهم في قوائم
باب قصرى .

(٦) من عهد أسرحدون — حملته على مصر .

السطور ٣٧ — ٥٣ من اللوحة المعروفة باسم لوحة سنجرلى — مترجمة

Luckenbill, A.R., II, § 580.

«ومن مدينة «إشوپرى» حتى مدينة منف مقره الملكى ، وهى مسيرة
خمسة عشر يوماً كنت أحارب يومياً ودون انقطاع حروباً دامية جداً ضد

(١) هذه هى الصفات الآشورية لأسماء الآلهة وقد حاول بعض العلماء تحديدها ومعرفة أسمائها
في اللغة العريية أو اللغات السامية ، أنظر مقال WEISS ROSMARIN in JSOR, XVI (1932), 32.

طهرقا (طرقو) ملك مصر وكوش الملعون من جميع الآلهة العظيمة . وقد أصبته خمس مرات بسنان سهامي وأحدثت فيه جراحا لن يبرأ منها ، ثم حاصرت منف مقره الملكى واستوليت عليها بعد نصف يوم بواسطة إحداث الثقوب والسكر فى الأسوار وسلام الهجوم . خربت أسوارها وأحرقتها ، وحملت زوجته الملكية ونساء قصره و « أوشانا هورو » ولى عهده وأولاده الآخرين ، وما كان يملكه ، وجياده وماشية كبيرة وصغيرها لا يحصرها العدد ، (حملت ذلك كله) كغنيمة إلى أشور . وطردت جميع الكوشيين من مصر ، ولم أترك حتى واحدا منهم ليقدم خضوعه . وفى كل مكان فى مصر عينت ملوكا جددًا وحكاما وضباطا ورؤساء الموانئ وموظفين ورجال إدارة . ورقت قرايينا الإله أشور وسادق الآلهة العظيمة الأخرى فى جميع الأوقات . وفرضت عليهم جزية لى كسيدهم الخاضعين له تدفع سنويا دون توقف . وأمرت أيضا بعمل هذه اللوحة وعليها قوش باسمي وكتبت عليها مديح قوة سيدى أشور وأعمال الشخصية العظيمة عندما كنت أحارب العدو وفقا لأوامر سيدى أشور الصادقة ، وأقتها لتبقى على مدى الزمان حتى تراها بلاد العدو بأكلها .

ثالثا - من وثائق تاريخ الحيثيين :

بدأت « خيتا » فترة من فترات ازدهارها فى النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، وأرادت التوسع فى سوريا وفلسطين ، ولم تعد هناك مندوحة من حدوث الصدام بين الحيثيين والمصريين . اتخذ ملوك « خيتا » فى البداية سياسة تشجيع أمراء المدن على الثورة لإضعاف الحكم المصرى ، وقد تم لهم شئ كثير مما أرادوه فى أواخر أيام امنحوتب الثالث ، وفى عهد الملك أخناتون الذى انصرف إلى ديانته الجديدة ، ولم يهتم اهتماما جديا بالبلاد التى كانت تحت حكم مصر ، وقد رأينا صورة من ذلك فى رسائل تل العمارنة .

وحدث عند وفاة الملك توت عنخ آمون أن أرملته الشابة وجدت نفسها فى مهب الريح ومحاطة بمن يريدون القضاء على بيت أبيها انتقاما لما فعله ضد عبادة

الإله آمون فأرادت أن تستند إلى قوة خارجية فأرسلت رسالة إلى ملك خيتا تطلب منه أن يرسل إليها أحد أبنائه لتزوجه ، ولكن هذه المؤامرة فشلت ، وقد عرفنا هذه التفاصيل من الوثائق التي عثر عليها في بوغاز كوى في الأناضول^(١) .

وفي أيام رمسيس الثاني اصطدمت جيوش خيتا ومصر وحدثت معركة قادش المشهورة في العام الخامس من حكمه . والواقع أنه رغم كل ما ادعاه رمسيس الثاني فإن نتيجة هذه الحملة لم تكن لصالحه ، بل انتصرت جيوش خيتا في تلك المعركة ، ولكن رمسيس ثار لنفسه في حملة العام الثامن واستعاد ما فقدته مصر من نفوذها ، ثم انتهى الأمر بعقد معاهدة صلح بينهما ، ووضع خط حدود يفصل بين أملاك خيتا وأملاك مصر .

وقد اخترت في هذه المجموعة وثيقتين إحداهما عن موضوع زواج الملكة المصرية والثانية عن معركة العام الخامس من حكم رمسيس أى وجهة النظر الحيثية في معركة قادش - وقد اعتمدت في نقلهما إلى العربية على ترجمة ألبرخت جوتز ، Albrecht Goetze التي نشرها في كتاب Pritchard, ANET, (1955), p. 319 وفيها جميع المراجع الهامة .

(١) « شوبيلوليوماس ، وأرملة » توت عنخ آمون ، : من حوايات شوبيلوليوماس التي جمعها ابنه مورسيليس والتي عثر عليها في خرائب مدينة « بوغاز كوى » .

(١) ظن بعض العلماء عند العثور على هذا النص أن الملكة « نفرتيتي » هي التي أرسلت تلك الرسالة بعد وفاة زوجها اخناتون ولكن زيادة البحث في هذا الموضوع وضمت حداً لهذا الشك إذ أن اسم الملك المذكور في النص الحيثي كما أن مقارنته مصر كتابة الوثيقة بالتواريخ المعروفة يحمي وضع تاريخ الرسالة عشر سنوات إلى الأقل بعد موت اخناتون ، ولهذا فإن أرملة توت عنخ آمون الملكة « عنخس آت آمون »

« عند ما كان أبى فى بلاد قرقيش^(١) أرسل «لوييا كيس» و«تشوب» - زالماس» إلى بلاد «أمقا»^(٢) ، وبدأ فى مهاجمة بلاد أمقا وأحضر إلى أبى هاربين وماشية وأغنام . وعند ما سمع أهل مصر بالهجوم على بلاد «أمقا» تولاهم الخوف . ونظروا لأن سيدهم «بيجورورياس»^(٣) كان قد مات أيضا فى ذلك الوقت ، وزادت الأمور سوءا ، فأرسلت الملكة المصرية التى أصبحت أرملة ، رسولا إلى أبى وكتبت إليه ما يلى : مات زوجى وليس لى ابن . ويقول الناس أن لك أبناء كثيرين ، فإذا كنت ترسل إلى أحد أبنائك ، فمن الممكن أن يصبح زوجى ، لئى أكره أن آخذ أحد خدى وأجعله زوجى . وعند ما سمع أبى ذلك أرسل فى طلب العظماء إلى اجتماع (وقال لهم) « لم يحدث قبل أيامى منذ القدم شئ مثل ذلك » . وبعد ذلك أرسل «حتوزيتس» الأمين بالقصر (وقال له) : « اذهب وأت إلى ثمانية بأخبار صحيحة ، فربما كانوا يريدون خديعتى . أما عن موضوع احتمال أن يكون هناك أمير فأنتى بالخير الصحيح » .

وأثناء غياب حتوزيتس فى أرض مصر أخضع أبى مدينة قرقيش ... وجاءه الرسول المصرى «حنيس» المبجل لأن أبى أوصى حتوزيتس عندما أرسله إلى أرض مصر بما يلى : ربما كان لهم أمير ، وربما يحاولون خداعى ، ولا يريدون حقيقة أحد أبنائى ليتولى الملك ، وأجابت الملكة المصرية أبى بخطاب فيه ما يلى : « لماذا تقول أنهم ربما يريدون خديعتى؟ إذا كان لى ابن فهل كنت أكتب إلى بلاد أجنبية فى موضوع يحط من قدرى وقدر بلدى؟ انك لا تثق فى حق تقول لى مثل هذا الشئ . أن الذى كان زوجى قد مات وليس لى أبناء ، فهل يا ترى آخذ واحدا من خدى وأجعل منه زوجا لى؟ انى لم أكتب إلى بلاد أخرى بل كتبت إليك فقط . إن الناس يقولون أن لك أبناء كثيرين ، فأعطى أحد أبنائك فيصلح زوجى وملكا لأرض مصر » .

(١) أوكر كيس ومكانها الآن حرابلس على نهر العرات

(٢) وادى العمق بين جبال لبنان وسلسلة جبال لبنان الشرقية (أنتى لبنان)

(٣) فى نسخة أخرى من هذا النص كتبوا اسم هـ الملك نجورورياس وهو اسم «نب» - خيرو - رع ، الاسم الثانى لتوت هنخ آمون .

ونظراً لأن أبي كان كريماً فقد أجاب رغبات السيدة وقرر إرسال الإبن^(١) .

(٢) — نقش ختوسيليس عن حروب أبيه مع مصر :

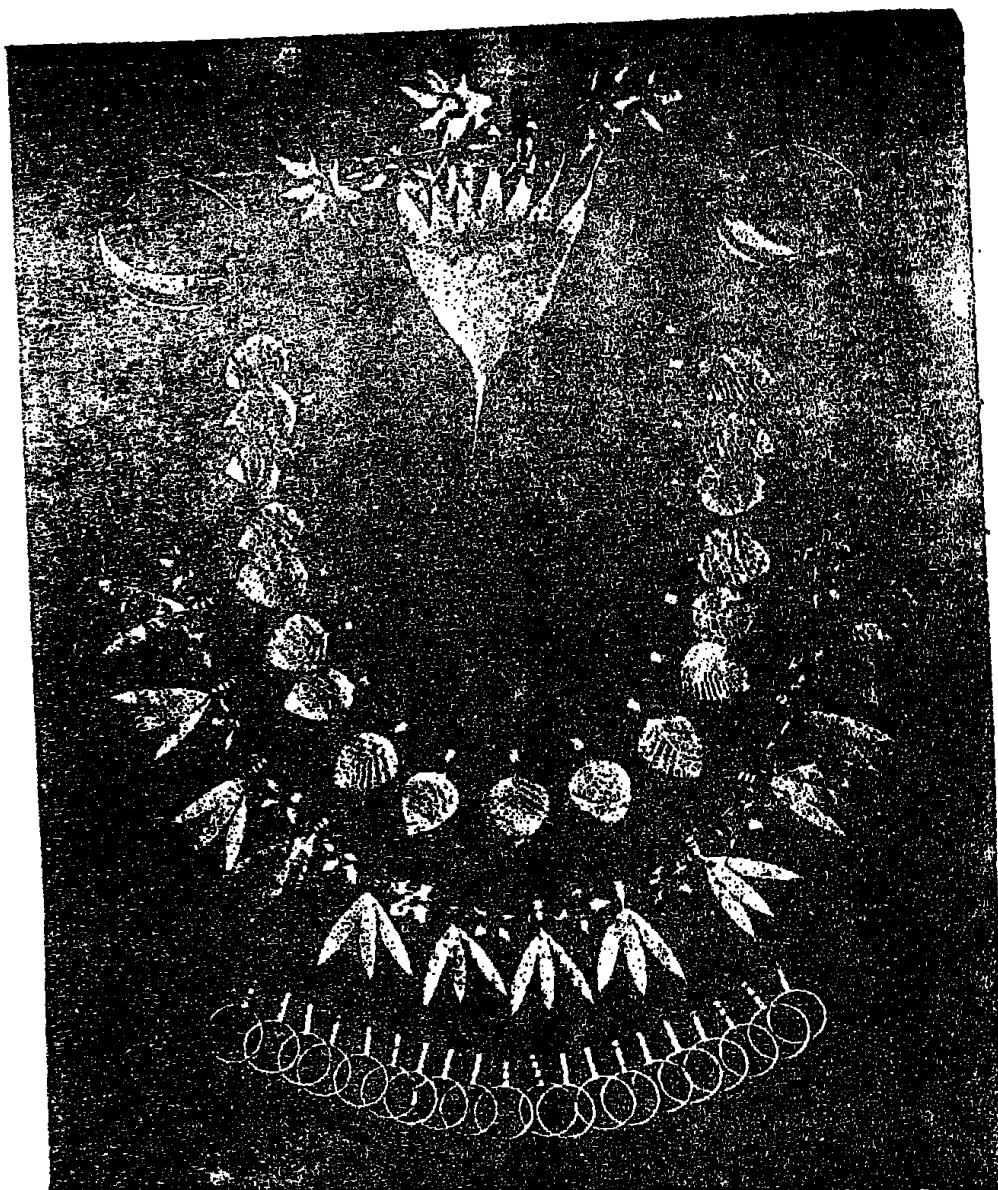
وهو من النصوص التي عثر عليها في بوغاز كوي ، وتوجد منه أكثر من نسخة واحدة ، وقد نشره أكثر من عالم واحد ، وأحدث ترجمة له هي ترجمة «جوتزه» التي أشرت إليها ، كما تناوله أيضاً بالتحليل والتعليق عالم الآثار المصرية إلسار إيدل ، ويرجع تاريخ هذا النص إلى أيام الملك الحيثي «ختوسيليس» يتحدث فيه عن بعض الحوادث التي جرت في عهد الملك «مواتلليس» :

« في الوقت الذي كان «مواتلليس» يحارب ملك أرض مصر^(٢) ، وبلاد أمورو ، وعندما هزم إذ ذاك ملك أرض مصر وبلاد أمورو عاد إلى بلاد «أبا»^(٣) . وعندما هزم أخى مواتلليس بلاه «أبا» عاد إلى بلاد «ختي» ولكنه تركني في بلاد «أبا» .

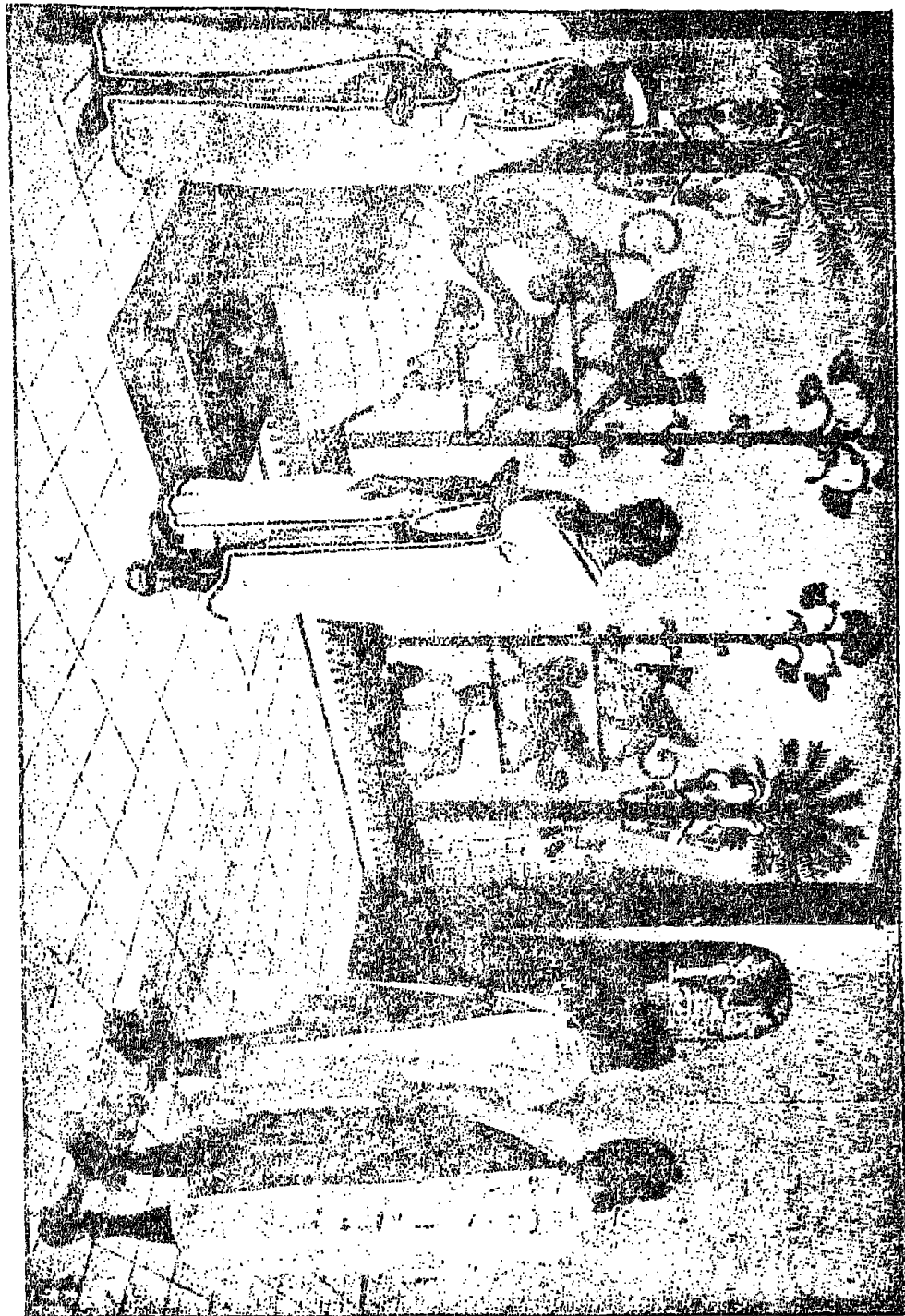
(١) تعرف من النص المعروف باسم «إبتهالات مورسيليس لانتفاء الطاعون» ANET, *ibid.* p. 395 أن المصريين قتلوا هذا الأبن وأن الحرب نشأت بسبب ذلك بين القوات الحبشية والقوات المصرية في سوريا .

(٢) ملك مصر الذي كان معاصراً لمواتلليس وكانت بينهما المماركة هو الملك رمسيس الثاني وهذه الحرب هي التي كانت في العام الخامس من حكم رمسيس الثاني وجرت المعركة عند مدينة قادش على مقربة من حصن في سوريا .

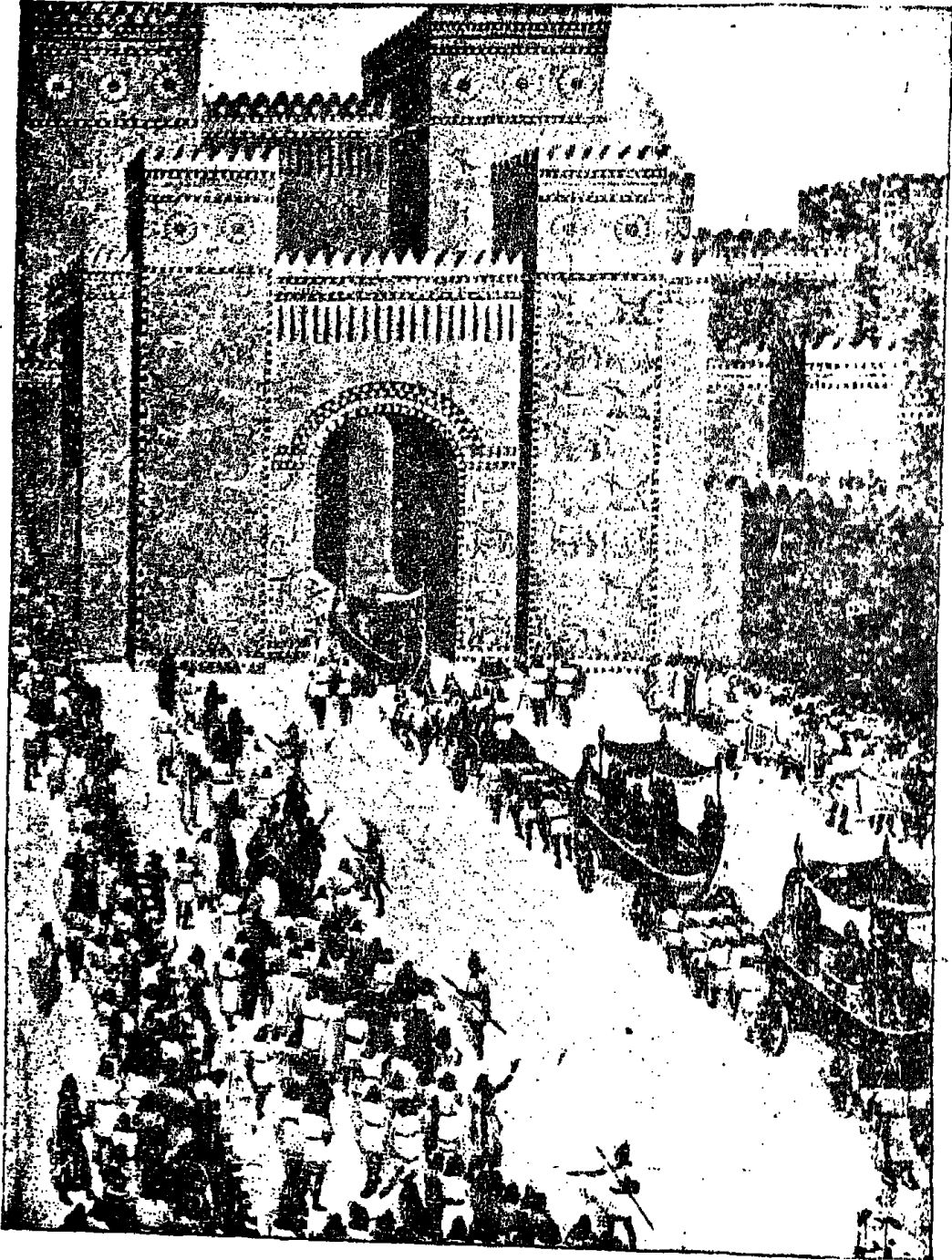
(٣) بلاد «أبا» هي المنطقة التي تقع فيها مدينة دمشق ، وفي هذا النص دلالة صريحة على أن ارتداد رمسيس الثاني لم يكن إلا بسبب حصاره للمعركة وإن جزءاً كبيراً من بلاد أمورو ومنطقة دمشق أصبحت للحيثيين .



بعض الحلى التي عُثر عليها في حفائر مدينة أور في منحة للملكة شوباد من أسرة أور الثالثة
(٢١٣٤ - ٢٠١٦) قبل الميلاد



رسم فني لـ حوراء ملكة الـ (١٩٦٨ قبل الميلاد) في قصره - نرى في هذه الصورة اللوحة السيرة التي تسمى حوراء
(التلاص الجاهل الجاهل الأمازيغ - والشمس)



رسم تخيلى لبوابة عشتار فى مدينة بابل القديمة كما كانت فى أيام الملك نبوخذنصر الثانى
فى القرن السادس قبل الميلاد فى أحد أيام الاحتفالات الدينية
(نقلا عن المجلة الجغرافية الأهلية - واشنطن)



تمثال إيزيس - لابل أحد كهنة عشتار ، وقد عثر عليه في مدينة ماري
(تل المخريري في سوريا) - تاريخه حوالى عام ٢٥٥٠ ق. م .



من الرسوم الملونة في قصر الملك زمرى — ليم في مدينة ماري
وقد كان هذا الملك معاصرا لمجرباني أي أنه عاش في القرن الثامن عشر قبل الميلاد



بعض زخارف الجدران في قصر مدينة ماري (تل الحريري)
وترى فيه الملك وهو يتلقى شارات الملك - القرن الثامن عشر قبل الميلاد



لأحدى الآلهات التي عثر عليها في مدينة مارى في خرائب القصر ، وكانت الميابه
تتزل من الإنااء الذي تحمله — التمثال بالحجم الطبعى ومصنوع من الحجر الجبىرى
ويرجم تاريخه إلى حوالى عام ١٧٣٠ قبل الميلاد



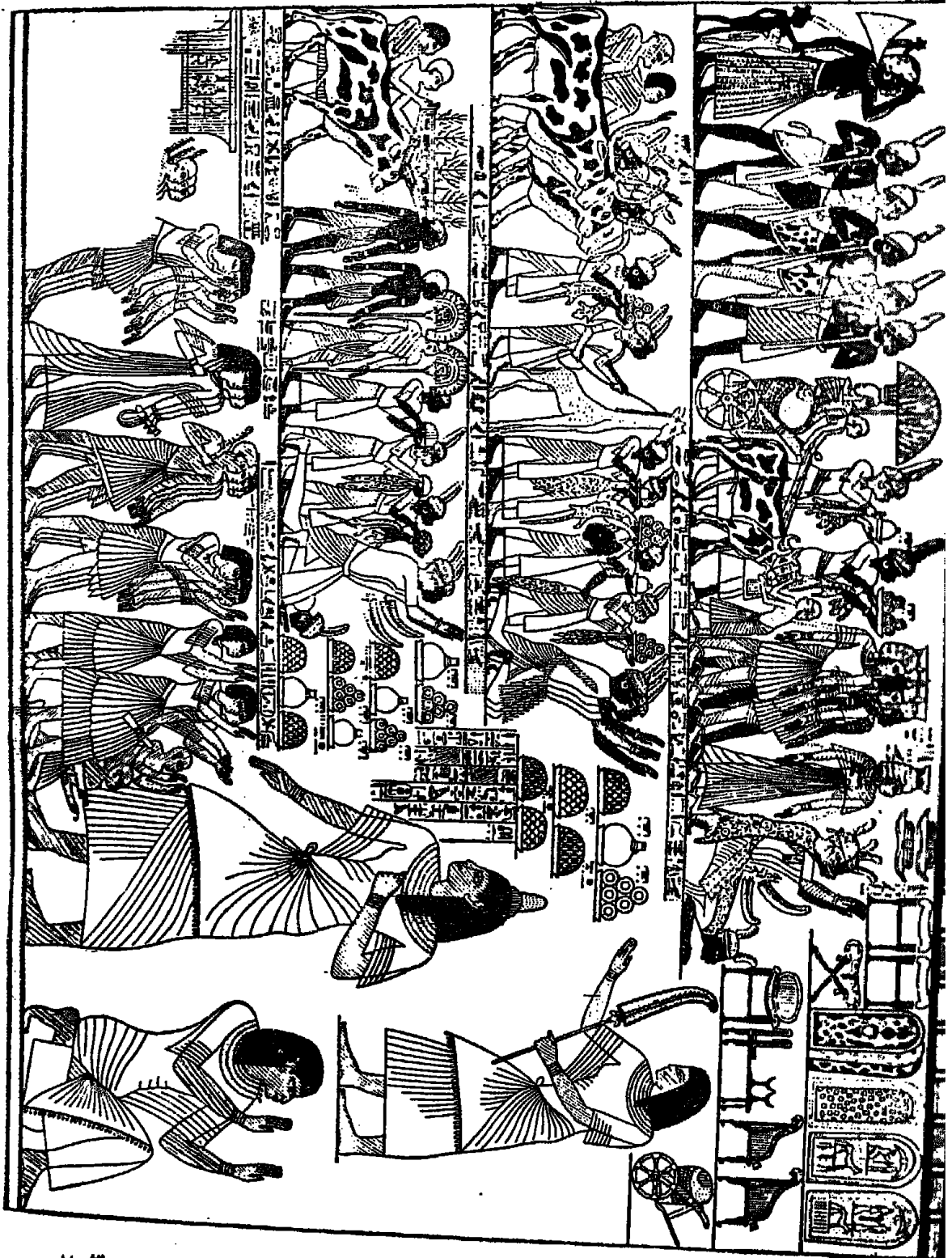
الإله جل، إله العواصف والصواعق يقف فوق قم الجبال ويمسك في يده اليمنى بدبوس القتال وفي يده اليسرى بالحرية التي ينتهي أعلاه بما يمثل الصاعقة أو ربما ما يمثل النبات - عثر على هذه اللوحة في رأس الشمرة (أوجاريت) ويرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد على الأرجح.



إحدى الآلهات التي عثر عليها في مدينة الفيضا (على الشاطئ شمال اللاذقية)
وتمثل ملاسكة الحيوانات المتوحشة - غطاء صندوق من العاج ونرى عليه
هذه الإلهة وهي تمسك في يديها ببعض النباتات وعلى كل جانب منها
عثر يثب لياً كل من هذه النباتات - الألف الثاني قبل الميلاد



بعض الزعماء السوريين وقد أتوا بهداياهم إلى مصر وبخاصة الأواني الذهبية الجميلة
الصنع ، وترى أحد الزعماء وقد اصطحب معه ابنته الصغيرة - من مقبرة
رقم ٦٣ في طيبة ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثاني
قبل الميلاد



ملك قورش وحاشيته يحضرون المديان إلى ملك مصر (من مقبرة حوى بطيبة من عهد الملك توت عنخ آمون)



«مبد» بل» فى تدمر (بالميرا) فى سوريا - القرن الأول الميلادى



أحد مآبدين في بلاد البزف . و: زلات القوس تزين واجهته ، ويرجع تاريخه إلى أيام لازدمار ملكة الفراعنة الحديثة وهو منيد بأحجار الجرانيت

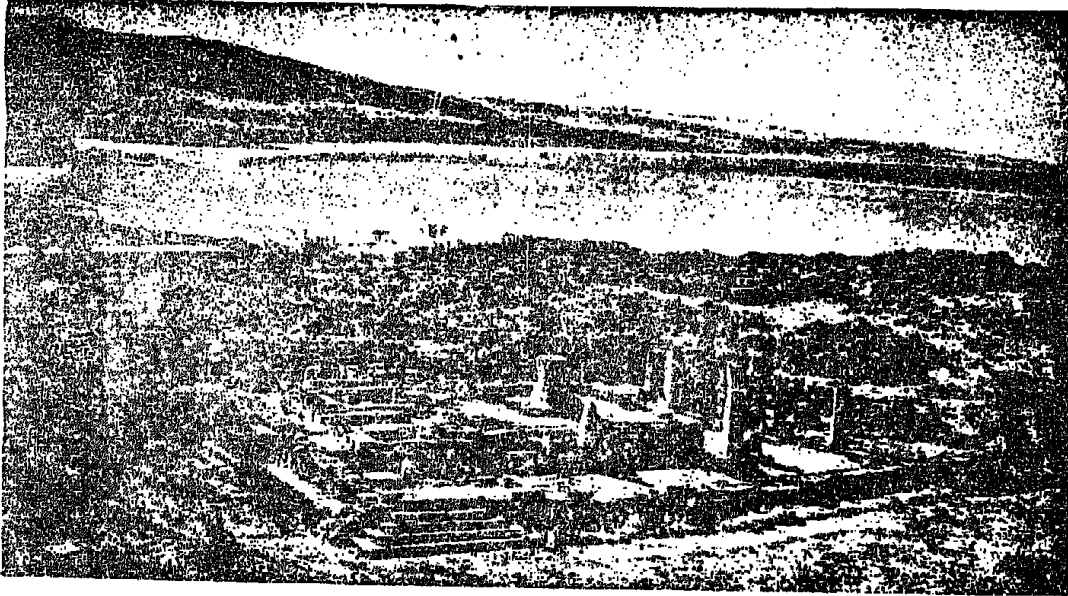


معبد الهياكل في مدينة مأرب - مازالت هذه الأعمدة الجرانيتية في مكانها وحولها بقايا المعبد القديم - ربما كان خارج هذا المعبد

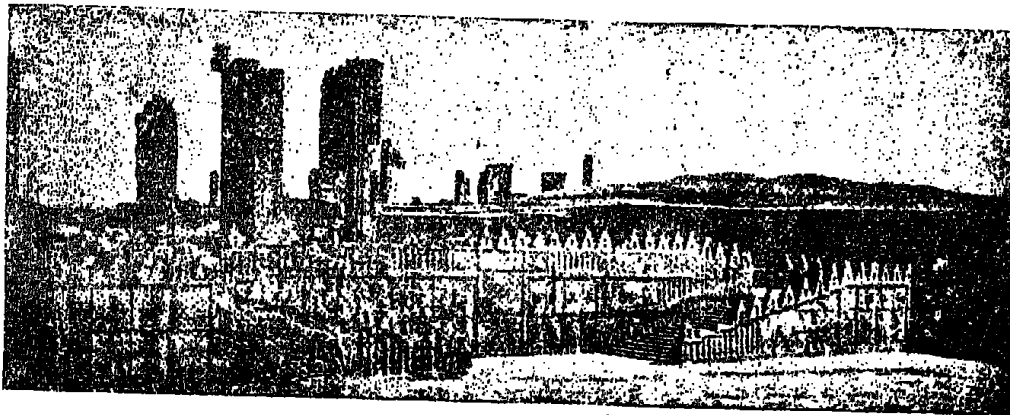


الضلع الجنوبي، أو الشمال، أو الشرق، أو الغرب

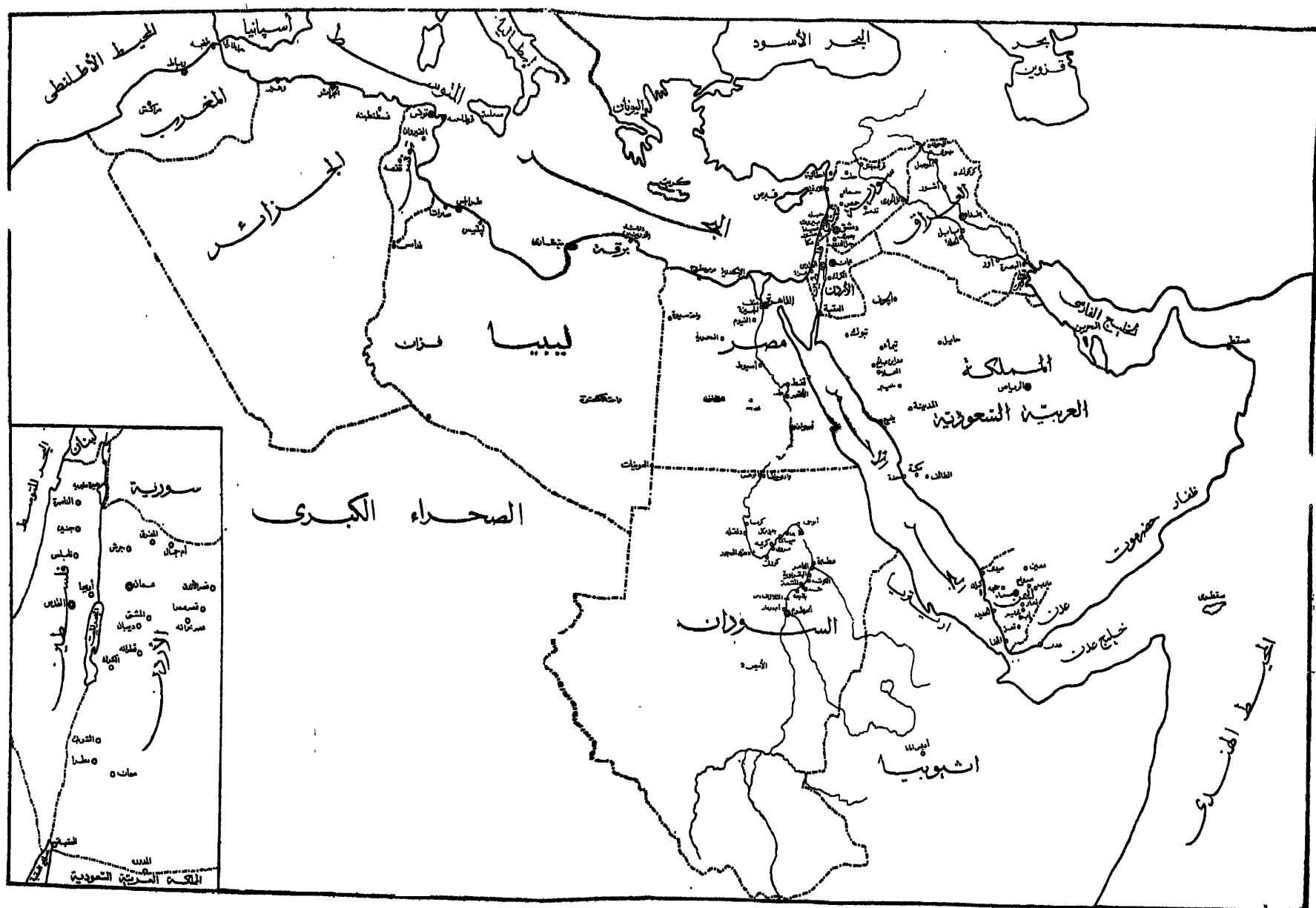
سد مأرب - الفتحة اليسرى من سد مأرب ، وهي التي كانت تروى مدينة مأرب وما حوطا من حدائق وحقول -
البناء الأصلي من القرن السابع قبل الميلاد



أ - منظر عام لجزء من حفائر جبسلة (جبيل - بيلوس) في لبنان
وترى فيه بقايا بعض المعابد القديمة



ب - السلم المؤدى إلى الجزء العلوى من القصر الكبير في مدينة تخت جامشيد
(برزپوليس في إيران) - من عهد دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٦ ق. م.)



الشرق القديم

فهرس أبجدى

١ - أعلام

- (١)
- أب - كريب - أسعد : ١٨٦
أبرهة : ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٣ ، ١٤٣
ابن الجوزى (أبو الفرج) : ١٧٧ ، ١٧٣
ابن خلدون : ١٧٣ ، ١١٤
أبو الحسن الهمدانى : ١٦٧ ، ١٦٠ ، ١٧٩
أمار جانيس : ١٠٧ ، ١٠٦
الأتروسكيون : ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١١٨
أتون (إله) : ٧٩
أحباش : ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٢٧ ، ١٤٤
أحمس الأول : ١٨٧ ، ١٨٦ ، ٤٢
أحمس الثانى : ٢١٧ ، ٢١٦
أحيرام : ١١٨ ، ١٠٩ ، ١٠٨
أخت - أتون : ٧٧
اخشويرش : ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠
الانخمينيون : ٢١٦ ، ٢١٥ ، ١٨٩ ، ٧
الأسرة الأولى المصرية : ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣١
- أخناتون : ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٧
٢٤٩ ، ٢٤٢ ، ٨٥
الأخلامو : ٢٤٦ ، ١٠٢
الآراميون : ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١
٢٤٦ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤
أرتاركسيس الثالث : ١١٢
أرتخششتا الأول : ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩
أرتخششتا الثانى : ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣١
أرتخششتا الثالث : ٢٢٥ ، ٢٢٤
أرنو (جوزيف توما) : ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٦٦ ، ١٦٣ ، ١٥٢
الآريون : ٥٠ ، ٤٧ ، ٤١
الآزد : ١٧٩ ، ١٧٨
أسر حدون (ملك) : ٤٧ ، ٤٦
٢٤٨ ، ٢٣٦ ، ٢١٧ ، ٢١٢ ، ١١١
الأسرة الأولى المصرية : ٢٧ ، ٢٦ ، ٦١
الأسرة التاسعة عشرة : ٨٦

الإسلام : ١٩٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ،

١٧٥ ، ١٨٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،

الآسيويون : ٤٣ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ،

أشور (إله) : ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

أشور بانيبال (ملك) : ٤٦ ، ٤٧ ،

١١٠ ، ٢١١ ،

الآشوريون : ٤٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٦ ، ١١١ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،

٢٣٣ ،

الإغريق : ١١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ،

الأكديون . ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٢٨ ،

١٩٨ ، ١٩٩ ،

الأكراد : ٢١ ، ٢١٤ ، ٢٢٤ ،

أكركيس . انظر اخشويرش

الإكليل : ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ،

اليوس جالوس : ١٤١ ، ١٨٥ ،

أمازييس (انظر أحس)

أمنحوتب الثاني : ٤٣ ، ٧٧ ،

أمنحوتب الثالث : ٤٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ،

٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٧٠ ، ٢٤٢ ،

٢٤٩ ،

أمنحوتب الرابع : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،

الأسرة الثامنة عشرة : ٨٣ ، ٨٦ ،

١٣٨ ، ٢٤٩ ،

الأسرة الثانية عشرة : ٣٣ ، ٣٤ ،

٤٠ ، ٤٨ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٧٠ ، ٧١ ، ١٣٨ ،

الأسرة الثانية والعشرين : ١٠٩ ،

الأسرة الحادية عشرة : ٣٣ ، ٦٦ ،

٦٧ ، ١٣٧ ،

الأسرة الخامسة : ٦٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

الأسرة الخامسة والعشرين : ١١٠ ،

الأسرة الرابعة : ٦١ ، ٦٢ ،

الأسرة السادسة : ٦٣ ، ١٣٧ ،

الأسرة السادسة والعشرين : ٤٧ ، ١١١ ،

أسرة شو (في الصين) : ٣٤ ،

الأسرة العاشرة : ٦٦ ،

الأسرة الكوشية : ١١٠ ،

الأسرة الواحدة والعشرين : ٩ ،

الأسطول المصري : ٤٣ ،

الاسكندر الأكبر : ٥ ، ٧ ، ٤٩ ،

٥٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢١ ،

١٤٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ،

اسكلاتو (ملكة) : ٢٤٧ ،

الاسكينيون : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ،

- الأموريون : ٣١، ٣٤، ٦٤، ٦٥، ١٠١، ١٠٥
 أمون - رع (إله) : ٩٢، ٩١، ٧٩ : ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠ : ١٣٨، ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٤١ : ٢٥٠
 الأنباط : ١٠٥، ١٤١، ١٩٦
 أهورا مزدا : ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢
 إى - قى - إم - را : ١٢٦
 الإيرانيون : ٢٠٩، ٢١٠
 البابليون : ١٠٥، ١٩٨، ٢١٤
 بترى : ٧٨، ١١٧، ١٣٧
 بختنصر : ٤٧، ١١٤، ٢٢٢، ٢٢٩
 برديا : ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩
 بركات ليل (تاجر) : ٩٤
 البرونز : ٩٠، ١١٠، ١١٩، ١٦٩ : ٢٠٠، ٢١٠، ٢١٣، ٢٣٤، ٢٣٩
 بسامتيك الثالث : ٢١٧
 البطالة : ١١٣، ١٤١
 بطليموس : ١٤١
 بعل (إله) : ٧٢، ٧٥
 بعل شمين (إله) : ١٠٦
 البلست (شعب) : ٤٥
 بلقيس : ١٦٨، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧
 بلوتارك : ٢٣٣
 بلىنى : ١٤١
 بن - هند : ١٠٣، ١٠٤
 البوذية (ديانة) : ٤٧
 بوليقرات (ملك) : ٢١٦، ٢١٧
 (ت)
 تحوتمس الثانى : ٢٣٧
 تحوتمس الثالث (من - خپر - رع) : ٤٣، ٤٤، ٧٧، ٨٠، ٢٢٦، ٢٣٧، ٢٣٨
 تحوتمس الرابع : ٧٧، ٨٣
 التدمريون : ١١٨
 تفت أمون : ٩٢، ٩٤، ٩٦، ٩٨
 توت عنخ أمون : ٨٤، ٨٥، ٢٢٦ : ٢٥٠
 التوراة : ٥٩، ٦٤، ٧٦، ١٠٣، ١٠٦ : ١٢١، ١٢٥، ١٤٨
 تيتوس (امبراطور) : ١٤٣
 تيجلات باسر الاول : ١٠٢، ١٠٦ : ١٠٩، ٢٠٧، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٤٦
 تيجلات باسر الثالث (ملك) : ٤٦ : ١٠٤، ١١٠
 ٢٧٣

(ث)

النوديون : ١٢٧، ١٢٥، ١١٨، ١٩

(ج)

جملة نصر : ١٩٧

جوبتر (إله) : ١٠٦

الجوتيون : ١٩٦، ٣٢، ٣٠، ١٨
١٩٩

جوديا : ١٣٤

جوستيان : ١٤٣

جلازر، إدوارد : ١٥٣، ١٤٦
١٥٤، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٩
١٧٢

الجيفة (ديانة) : ٤٧

(ح)

الحارث بن جبلة : ١٤٤

حبشوش : ١٧٠، ١٥٣، ١٥٢

حتشبسوت : ٢٣٧، ١٣٩، ١٣٨

الحرب البونية : ١١٦، ١١٥

حوريجور : ٩٥، ٩٢، ٩١

الحريون : ٤١، ١٨

حزيبيل (ملك) : ٢٤٨، ٢٤٧

٢٧٤

حوراني : ٤١، ٤٠، ٣٦، ٣٥، ٣٤

٢٣٢، ٢٠٥، ٧٣، ٦٦

حيدر (قبيلة) : ١٢٩، ١٢٦، ١٩

١٧٨، ١٧٧، ١٦٨، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٢

١٨٧، ١٨٠، ١٧٩

حورس : ١٣٦، ١٣٥

حور محب : ٨٦، ٨٥

الحيثيون : ٨٠، ٧٧، ٧٦، ٤٤، ٤١

٢٠٢، ١٩٥، ١٤٥، ٨٩، ٨٨، ٨٧

٢٤٩، ٢٣٦، ٢٠٨

(خ)

خاترسيلي (خاتوسيليس) : ٨٦
٢٥٢، ٢٣٦، ٨٧

خليل يحيى نامى (مؤلف) : ١٥٦
١٥٨

خوفو : ٦٢، ٦١، ٣٢

الختيون : ٢٤٢، ٨٦

(د)

دارا : ٢٢٦، ٢٢٠، ٢١٩، ١١٣
٢٢٩

دارا الأول : ٢٢٧، ٢٢٥، ٤٨
٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٠، ٢٢٨

دارا الثاني : ٢٢٣

دارا الثالث : ٢٢٨، ٢٢٥

داود (ملك) : ١٠٣، ٤٥

دوشراننا (ملك) : ٨٢، ٨١

(ذ)

ذات حميم : ١٦٢، ١٢٩

ذمار علي : ١٨٣، ١٧٢، ١٧١

ذو نواس : ١٨٦، ١٤٣، ١٢٩، ١٨٧

(و)

رشف، (له) : ١٠٦

رمسيس الثاني : ٢٥٠، ٨٨، ٨٦

رمسيس الثالث : ٢٠٨، ٩٠، ٤٥

الرومانيون : ١١٦، ١١٥، ٥٣، ٦

١٢٥، ١٢٨، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣

١٤٥، ١٤٨، ١٨٥، ٢٣٢، ٢٣٥

ريكانز (ج) : ١٥٧، ١٤٨

ريم سين : ٢٠٥

(ز)

زرادشت (زراتوشترا) ديانة : ٤٧

٢٣٠، ٢١٥

زمرى - ليم (ملك) : ٧٣

زوسر : ٦١، ٣٢

(س)

ساحورع : ١٣٨، ١٣٧، ٦٢

الساسانيون : ٢٣١، ٢٣٥

الساميون : ٣١، ٢٨، ٣٦، ٥٨، ٥٩

١٢٨، ١٢٤، ١٢١، ١٠١، ٦٥

السبائيون : ١٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢

١٣٤، ١٤٥، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩

١٨٠، ١٨١، ١٨٥

سترابون : ١٤١

سرجون الاول : ٢٨، ٢٩، ٣٠

٣١، ٣٢، ٦٥، ١٢٤، ١٩٨، ١٩٩

سرجون الثاني : ١٠٤، ١١٠، ١٢٦

٢٣٦، ٢٤٦

سليمان حزين (دكتور) : ١٢٣

١٢٤، ١٥٦

سليمان بن داود (النبي) : ٤٥، ٤٧

١٠٣، ١٠٨، ١٠٩، ١٤٨، ١٧٣

١٧٦

سمندس : ٩٢، ٩٤، ٩٦

سمهو علي ذريح : ١٧٤

سمهو علي ينف : ١٦٢، ١٦٧

١٨٣

سنخريب : ١١٠، ١١١، ١٢٦

٢٣٦، ٢٤٧

سنفرو (ملك) : ٣٢، ٦١، ٦٢

سنوهي : ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١

السوريون : ٧٩، ٩٤، ١٠٠، ١١٧

السومريون : ٢٨، ٢٩، ٣١، ٦٥،

١٩٥، ١٣٣، ٦٦

سيف بن ذى يزن : ١٤٤، ١٨٧،

سيل العرم (انظر العرم)

(ش)

الشعير : ٢١، ٢٢، ٥٨، ٦٨،

شلنصر (ملك) : ١٣٤،

شلنصر الثالث : ١٠٦، ١١٠، ٢١٠،

شلنصر الخامس : ١١٠،

شويلوليوماس (ملك) : ٨٨،

٢٢٦، ٢٥٠،

(ص)

الصفويون : ١١٨، ١٢٧،

(ط)

الطبرى : ١٧٣،

طهرقا بن يمينجى : ٤٦، ١١١، ٢٤٩،

(ظ)

الظران (حجر الصوان) : ٥٦،

١٢٣، ١٩٢، ١٩٣،

(ع)

العايرو : ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥،

العبرانيون : ٤٥، ٥١، ١٠١،

١٠٣، ١٣٥،

العرب : ٥٣، ١٠٥، ١٣٠، ١٣١،

١٤٠، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٨،

١٧٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٥،

١٨٦، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٧،

٢٤٨

العرم : ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩،

عزيرو : ٨٠، ٨١، ٨٥،

عشتر : (إلهة) : ٢٩، ٣٦، ٧٣،

١٠٦، ١١٦، ١٤٥، ١٦٢، ١٦٧،

١٧١، ٢٣١،

العصر الباليوليتى (الحجرى القديم) :

١٢، ١٦، ٥٠، ٥٦، ٧٥، ١٢٣، ١٢٤،

عنت (إله) : ٧٥، ١٠٦،

عيسى (عليه السلام) : ٦، ٢٠، ٣٢،

٣٣، ٥١، ٥٩، ١٠٥، ١٢٢، ١٢٦،

١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٢، ١٤٣،

١٤٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٣٢،

٢٣٥

(غ)

غسان (غساسنة) : ١٢٨، ١٤٤،

١٧٨، ١٧٩، ١٨٧،

(ف)

الفرس : ٤٧، ٤٨، ٤٩، ١٠٤، ١٠٥،

١١٢، ١٢١، ١٢٨، ١٤٠، ١٤٤،

١٨٧، ١٩١، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٣،

٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩،

٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤،

٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠،

٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥،

كسندة : ١٤٤ ، ١٧٨
الكنعانيون : ٣١ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٨٢ ،
١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٢٠
كيا كسارس (ملك) : ٢١٤
الكيريون : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣

(ل)

الحيانيون : ١٩ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٧
لحم : ١٢٨ ، ١٧٩
الليديون : ٤٧ ، ٢١٤

(م)

الماريانو : ٢٣٩
مترا (إله) : ٢٣١
المجوس : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢
مردوك (إله) : ٣٤ ، ٢٠٧
مرنبتاح (مفتاح) : ٤٥ ، ٢٠٨
المسعودي : ١٧٣ ، ١٧٨
المسيح (انظر : عيسى عليه السلام)
المصريون : ٢٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٧ ،
٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٧ ،
٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١١٧ ،
١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥
المعينيون : ١٩ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٦٤
متوحتب الأول : ٦٧ ، ١٣٧

فرعون (فراغت) : ٤٤ ، ٦٢ ،
٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٤ ،
٩٧ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ٢٠٢ ، ٢٤٦ ،
الفريجيون (شعوب) : ٤٧ ، ٢٠٨ ،
٢١١

فضة : ٣٩ ، ٤٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٥ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ،
٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
الفينيقيون : ٣١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٧٦ ،
١٠١ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٦ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٣٠ ، ٢١٧ ، ٢٢١

(ق)

قبيز : ٤٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٣
قورش : ٤٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

(ك)

الكاسيون : ١٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٧٤ ،
١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
كريب - إيل - بين : ١٢٦ ، ١٧١ ،
كريب - إيل - وتار : ١٢٧ ، ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٦٧
الكلدانيون : ٤٧ ، ١٠٤ ، ١١١

الهمداني: (انظر أبو الحسن الهمداني)
الهندو - أوربي : ٤٢٠ ، ٤١٠ ، ٣٢ :
٤٤ ، ٤٧ ، ٦٨ ، ٨٧ ، ١٠٢ ،
١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٣٠
الهندوس : ٢٠٣
هيرودوت : ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢١٨ ، ٢٣٢

(و)

ونأمون (كاهن مصري) : ٩٠ ، ٩١ ،
٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١

(ي)

يشع - أمر - بين : ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ،
يدع - إيل - ذريح : ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧٤ ،
اليمنيون : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ،
١٤٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٨ ،
اليهود : ٤٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ،
١٢٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٨٦ ،
١٨٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
اليونانيون : ٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٥ ،
١١٦ ، ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ٢١٦ ،
٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣٢ ، ٢٣٥

مفتوح تب الثاني : ٦٦ ، ٦٧ ،
مواتليس (ملك) : ٢٥٢ ،
مورسيليس الأول : ٨٨ ، ٢٥٠ ،
موسى (عليه السلام) : ٢٢ ، ٥١ ،
الموقاه : ١٢٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
الميتانيون : ١٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٩٥ ،
٢٢٧ ،
الميديون : ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣٠

(ن)

نابونيد (ملك) : ٢١٤ ،
الناطوفيون : ١٧ ، ٢٢ ، ١٩٢ ،
النبط : ١١٨ ،
نبوختنصر : ٢٠٧ ، ٢١٤ ،
النحاس : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٩٠ ،
١١٩ ، ١٥٢ ، ١٩٣ ، ٢١٠ ،
نرام - سين (ملك) : ١٣٤ ، ١٩٩ ،

(هـ)

هاليقي : ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
١٥٧ ،
الهكسوس : ٤١ ، ٤٢ ، ٦٨ ، ٧١ ،
٧٤ ، ٩٠ ، ٢٠٨ ،
الهلينسقي : ٤٩ ، ١٦٩ ،

(ب) اماکن

افریقیا : ۱۳، ۱۸، ۲۴، ۴۵، ۳۰، ۴۵	(۱)
۴۸، ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۱۴، ۱۱۶، ۱۲۰	آئینا : ۲۲۰، ۲۲۱، ۲۲۳، ۲۲۵
۱۲۰، ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۳۶، ۲۰۸	الآخدود : ۱۴۳، ۱۸۶
۱۴۲، ۱۵۳، ۱۹۱، ۲۰۸	آرمینیا : ۱۹۵، ۲۰۹، ۲۱۱، ۲۱۹
افغانستان : ۴۱، ۲۰۳، ۲۲۶، ۲۲۰	۲۲۶، ۲۲۷
آکباتانا : ۲۰۵، ۲۱۴، ۲۲۸	آرواد : ۱۰۹، ۱۱۰، ۲۴۵، ۲۴۶
آکسوم : ۱۲۷، ۱۴۲، ۱۴۳	آریتریا : ۱۳۲، ۱۳۶، ۱۴۰
الآناضول : ۵، ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۳	آریحا : ۲۰، ۵۶، ۵۷، ۵۹
۳۰، ۴۰، ۴۱، ۴۴، ۴۵، ۴۶، ۵۰	آسیا : ۲۳، ۲۴، ۳۴، ۴۳، ۴۴
۵۲، ۵۷، ۸۱، ۸۳، ۸۴، ۸۶، ۸۷	۴۵، ۴۶، ۵۷، ۵۸، ۶۳، ۶۶
۸۸، ۹۰، ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۵۵	۷۰، ۷۸، ۷۹، ۸۰، ۸۱، ۸۳
۱۹۱، ۲۰۲، ۲۲۶، ۲۴۹، ۲۵۰	۸۵، ۸۷، ۱۰۸، ۱۱۳، ۱۲۳
آفشان : ۲۱۵، ۲۲۸	۱۴۰، ۱۸۹، ۱۹۰، ۱۹۲، ۱۹۵
أوجاریت : ۳۱، ۳۴، ۴۰، ۵۶، ۵۷	۱۹۶، ۲۰۱، ۲۰۷، ۲۰۸، ۲۰۹
۵۸، ۶۴، ۶۶، ۷۲، ۷۴، ۷۵، ۱۰۲	۲۱۱، ۲۱۴، ۲۱۵، ۲۲۵، ۲۲۶
۱۱۸	۲۲۹، ۲۳۲، ۲۳۵، ۲۳۷، ۲۴۰
أور : ۳۱، ۳۳	آسیا الصغری : ۲۸، ۳۰، ۴۷، ۴۸
أورارتو (أنظر : آرمینیا)	۸۸، ۸۹، ۱۲۴، ۱۸۹، ۲۰۲، ۲۰۸
أوروبا : ۱۳، ۲۴، ۴۵، ۴۹، ۵۱	۲۱۱، ۲۱۳، ۲۱۴، ۲۱۵، ۲۲۳
۱۰۸، ۱۴۹، ۲۰۸، ۲۳۵	۲۲۶، ۲۲۷، ۲۲۹، ۲۳۵
أورشليم : ۴۷، ۱۰۶، ۱۰۹، ۱۱۱	أشور : ۱۸، ۳۱، ۴۲، ۴۴، ۴۶، ۴۷
۱۴۳، ۲۲۳، ۲۴۲، ۲۴۴	۵۲، ۵۷، ۸۱، ۸۲، ۸۳، ۸۵، ۸۸، ۹۰
أوروک : ۳۱، ۳۳	۱۰۴، ۱۰۶، ۱۰۸، ۱۱۰، ۱۱۱
أوزان : ۱۲۶، ۱۲۷، ۱۶۳، ۱۶۴	۱۲۱، ۱۳۴، ۲۰۲، ۲۰۷، ۲۱۳
	۲۱۴، ۲۱۹، ۲۲۶، ۲۲۷، ۲۳۴
	۲۴۵، ۲۴۶، ۲۴۷، ۲۴۸، ۲۴۹

البحر الأسود : ٢٠١ ، ٨٧ ، ٤١ :
٢١١ ، ٢٠٨

البحر الميت : ٥٧ ، ٥٤

بحر قزوين : ٢٠٢ ، ١٨٩

بزاقيش : ١٣٠

برسبوليس (اصطنخر) : ١٩٤ ،

١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ،
٢٣٤

بصري : ١٢٧

بطرا : ٥٥

بعلبك : ١٠٦ ، ٥٤

بلوخستان : ١٩٧ ، ٢٢٦

بهستون : ٢١٩

برتو (مدينة) : ٤٨

بوغاز جبل طارق (أعمدة هرقل) :
١١٦ ، ٤٨

بوغاز كوي : ٢٥٠ ، ٨٩ ، ٨٨

بونت : ١٣٧ ، ١٣٥ ، ١٢٥ ، ٦٦

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠

بلاد تهامة : ١٧٨ ، ١٥٠

بلاد الجوف : ٢٤٧ ، ١٣٦

بلاد الرافدين : ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٦٥

١١١ ، ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٦٩

١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩

٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧

٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

٢٢٩

ليران : ٣٠ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٧ ، ٧ ، ٥

٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ١٢١ ، ١٨٩

١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٦٨ ، ٢٠١

٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣

٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

(ب)

باب المنذب : ١٤٠ ، ١٣٢ ، ١٢٥ ، ٣٠

بابل : ١٨ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢

٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢

٦٤ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

٨٨ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٤ ، ١٣٠

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٥

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢

٢٣٤ ، ٢٤٦

بازار جلدة : ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢١٥

الباكستان : ٢٢٠ ، ١٣١ ، ١٨

البحر الابيض المتوسط : ١٢ ، ١٤

١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٧

٤٨ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٥

٩٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٥

١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٤٣

١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٥

البحر الاحمر : ٤٦ ، ٤٨ ، ١٠٩

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٠

١٤١

جبال زاجروس : ١٨٩ ، ٣٢ ، ٣٠ ،

١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،

جبال طوروس : ١٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

جبل باق : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ،

جبل الكرمل : ١٣ ، ٥٦ ، ٦٣ ،

جيبيل (انظر : ييبولس) -

جدة : ١٤٦ ، ١٥٠ ،

الجديدة : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،

جزر البحر الابيض : ٦٥ ،

الجزيرة العربية : ١٩ ، ٣٠ ، ٤٧ ،

٥١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٧٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،

الجوف : ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

(ح)

الحاليس (نهر) : ٨٧ ، ٢١١ ،

الحبشة : ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

الحجاز : ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٧ ،

١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

حرانو (حران) : ٧٣ ، ١٠٣ ،

حضر موت : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٥٠ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٧٨ ،

حلب : ٣٤ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٨٨ ،

١٠٦ ، ١٤٩ ،

بلاد الشحر : ١٣٩ ، ١٧٨ ،

بلاد العرب : ٨ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٠٤ ،

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٦ ، ١٨٨ ،

ييبولس (جيبيل) : ٤٠ ، ٥٧ ، ٥٩ ،

٦١ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٢٤٥ ،

بينظلة : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٨٦ ،

١٨٧

(ت)

تدمر : ٥٩ ، ١٠٥ ، ٢٤٦ ،

التركستان : ٢٨ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

تل الحريري : ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٢ ،

تل الحارثة : ٤٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

٨٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ،

تونيبيو : ٨٠ ، ٨١ ،

تليلات الفسول : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،

(ث)

ثارو (القنطرة) : ٢٣٨ ، ٢٤٤ ،

(ج)

جارمو : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٥٧ ،

(ر)

راس الشمرة (انظر : أوجاريت)

رتو : ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١

روما : ١١٥

(س)

سبأ : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ،

١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،

١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣

سراييط الخادم : ١١٧

سردينيا : ٤٥ ، ١١٥

سقارة : ٣٢ ، ٣٣ ، ٦٢

سليحين (قصر) : ١٤٢ ، ١٦٧

سهل أزدريلون : ٥٣

السودان : ١٨ ، ٢٣ ، ٤٦ ، ١٩١

سوريا : ٥ ، ٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،

٢١ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ،

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ،

٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٨ ،

حماه : ٥٤ ، ٥٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦

حصص : ٥٤ ، ٧٣

حوران : ٥٤ ، ٥٥ ، ١٢٧ ، ١٤٤

الحيرة : ١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٨٧

(خ)

خرزباد : ١٩٣ ، ١٤٦

الخريبة : ١٦٠ ، ١٦٤

خليبو (انظر : حلب)

خليج العقبة : ٥٤ ، ٥٥

الخليج الفارسي : ٢٨ ، ٣٤ ، ١٢٧ ،

١٨٩ ، ١٩٨

خيئا (انظر : الأناضول)

(د)

دجلة (نهر) : ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣١

دلتا النيل : ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٤١ ،

٤٨ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١١١

دمشق : ٤٠ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٨٦ ،

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٤ ،

١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٤٦

الدير البحري : ٦٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠

(ذ)

ذمار : ١٦٨

(ص)

صرواح : ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٥ ،
١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
١٧٤ ، ١٨٤

صنعاء : ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ،
١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٨

صور : ٣١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٩٣ ، ١٠٨ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١١٩

صيدا : ٥٤ ، ٥٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٤ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٥ ،
٢٤٥ ، ٢٤٧

الصين : ١٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ،
٢٤ ، ٢٣ ، ٤٧ ، ٥٨

(ط)

طبيبة : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٦ ،
٦٧ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ١٣٨ ،
٢١٧ ، ٢١٨

(ظ)

ظفار : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٨٥

(ع)

عدن : ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ٢٣١

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٤ ،
١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٩١ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢١٣ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ،
٢٤٦ ، ٢٤٩

سوسا (سوسيانا) : ٣٥ ، ١٩٤ ،
١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ،
٢٣٤

سومر : ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦

سيالك : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٥٧ ،
١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
٢٠٠ ، ٢٠٩

سيناء : ٣٠ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
٧٦ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
سيوه (واحة) : ٢١٧ ، ٢١٨

(ش)

شاروهن (مدينة) : ٢٠٦

الشام : ١٧ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٥٢ ،
٦٥ ، ٧٠ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٧٨ ،
شبه جزيرة سيناء : ١٩ ، ٥٣ ، ٦٣ ،
شبه الجزيرة العربية : ١٨ ، ٤٦ ،
٥٢ ، ١٣١ ، ٢٤٧

، ٥٢ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٣
 ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧
 ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ٨٦ ، ٧١ ، ٦٧ ، ٦٦
 ، ١٣٧ ، ١١٣ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٥
 ، ٢١٣ ، ٢١١ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٥٥
 ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢
 ٢٤٩ ، ٢٤٢ ، ٢٣٧

فينيقيا : ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٢ ، ٨٨ ، ١٠٠
 ، ١١٢ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٧
 ، ٢٢٦ ، ٢١٣ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٣
 ٢٤١

الفيوم : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢

(ق)

قادس : ٤٣ ، ٨٦ ، ١١٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠
 قبرص : ٦٥ ، ٨٥ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،
 ١٤٩ ، ١١٦

قبتان (قطبان) : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٤
 القدس : ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٨٦

قرطاجنة : ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١١٦ ، ٢١٧

القصير : ٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٢

القليس (انظر : كنيسة القليس)

القوقاز : ١٠٣ ، ٢٠٢ ، ٢٢٦

(ك)

الكرديستان : ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣

العراق : ٥ ، ٧ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،

٣٤ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،

٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

٦٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ،

١٥٥ ، ١٧٨

عسير : ١٢٧

عيلام : ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٢ ،

١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ،

(غ)

غزة : ١٢٧ ، ١٣٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٤٦

غيجان : ١٥٥

(ف)

فارس : ٤٨ ، ٤٩ ، ١١٣ ، ١٤٠ ،

١٤٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ،

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ،

الفرات : ١٥ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣١ ،

٣٤ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٥٧ ،

٦٤ ، ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٨ ،

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ،

فلسطين : ١٣ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٤١ ،

الكرمل (انظر : جبال الكرمل)

الكعبة : ١٢٩ ، ١٤٦

كنيسة القليس : ١٢٩ ، ١٤٣ ، ١٥٢

كوش : ١٤٢ ، ٢١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩

(ل)

لبنان : ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١

٦٢ ، ٦٧ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٠

٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٥

لجش : ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ١٣٤

اللورستان : ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٣٤

اللاذقية : ٣١ ، ٧٥

(م)

مأرب : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤١

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠

١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٧

١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧

مارى (انظر : أوجاريت)

مجدو : ٤٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ٢٣٧

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

محرم بلقيس (معبد) : ١٥٧ ، ١٦٨

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤

مداين صالح : ١٢٧ ، ١٤٧

المدينة : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٨٦

مدينة النحاس : ١٧١

مرملة : ٢٠ ، ٢١ ، ١٩٢

المساجد (منطقة) : ١٥٩ ، ١٧٤

مصر : ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧

١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

٣٣ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١

٥٢ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩

٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩

٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦

٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣

٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧

١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٩

١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٢

١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢

١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٩٠

١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٣

٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١

٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠

٢٥١ ، ٢٥٢

(و)

الواحات الخارجة : ١٣٣ ، ٢١٨
الواحات الداخلة : ١٣٣
وادي الحمامات : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧
وادي ذئبة : ١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣
وادي السند : ١٨ ، ٢٨ ، ٤١
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٢٠
وادي الطميلات : ١١١ ، ١٣٨
وادي عربية : ٥٤
وادي النيل : ١٥ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٦١
١١١ ، ١٣٢ ، ١٩١
الوركاء : ٢٠٥

(ي)

يريم : ١٤٩
يمخذ (دولة) : ٣٤ ، ٧٣
الين : ٥ ، ٦ ، ١٩٠٧ ، ١٢٣
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣
١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧
١٥٨ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٥
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨
اليوتان : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ١١٣
١٤٠ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦

معين : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٥
١٥٦ ، ١٦٤
مكة : ٥١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٣
١٤٦ ، ١٨٨
منف : ١١١ ، ١١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨
٢٤٨ ، ٢٤٩
ميتاني : ٤٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥
٨٧ ، ٢٠٢

(ن)

نجد : ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٤٨
نجران : ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٤٣
١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٤
١٨٦
نفيوى : ٣١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٢٢٤
٢٤٧

(هـ)

الخصبة الإيرانية : ٢٤ ، ١٩٢ ، ١٩٣
١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤
همدان : ٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٩
الهند : ١٣ ، ١٧ ، ٤٧ ، ١٠٥ ، ١٤٠
١٤١ ، ١٤٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٠
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١
هيرا بوليس (انظر : منبج)

الأشكال والرسوم

صفحة

- ١٥١ خريطة تبين طرق المواصلات الرئيسية في اليمن
- ١٦١ رسم تقريبي لأهم الآثار الظاهرة فوق سطح الأرض في خربة صرواح
- رسم تقريبي لسد مأرب والبوابتين الكبيرتين اللتين كانتا تزويان الجنتين
- ١٨٢ المذكورين في القرآن الكريم
- لوحة رقم ١ ، بعض الحلى التى عثر عليها فى حفائر مدينة أور فى مقبرة الملك
- ٢٥٣ شوباد من أسرة أور الثالثة (٢٣١٤ - ٢٠١٦) ق.م
- ٢٥٤ لوحة رقم ٢ ، رسم تخيلى يمثل حمود ابن ملك بابل (١٧٢٨ ق.م) فى قصره
- لوحة رقم ٣ ، رسم تخيلى لبوابة عشت فى مدينة بابل القديمة كما كانت فى
- أيام الملك نبوختنصر الثانى فى القرن السادس قبل الميلاد فى أحد
- ٢٥٥ أيام الاحتفالات الدينية
- ٢٥٦ لوحة رقم ٤ ، تمثال إيبا - إيل ، أحد كهنة عشت
- ٢٥٧ لوحة رقم ٥ ، من الرسوم الملونة فى قصر الملك زمرى - ليم فى مدينة مارى
- ٢٥٨ لوحة رقم ٦ ، بعض زخارف الجدران فى قصر مدينة مارى (تل الحريرى)
- ٢٥٩ لوحة رقم ٧ ، إحدى الآلهات التى عثر عليها فى مدينة مارى
- ٢٦٠ لوحة رقم ٨ ، الإله بعل ، إله العواصف والصواعق
- ٢٦١ لوحة رقم ٩ ، إحدى الآلهات التى عثر عليها فى مدينة البيضا
- ٢٦٢ لوحة رقم ١٠ ، بعض الزعماء السوريين وقد أتوا بهداياهم إلى مصر
- لوحة رقم ١١ ، ملكة كوش وحاشيتها يحضرون الهدايا إلى ملك مصر
- (من مقبرة حوى بطيبة من عهد توت عنخ آمون)
- ٢٦٣
- ٢٦٤ لوحة رقم ١٢ ، معبد بعل ، فى تدمر (بالميرا) فى سوريا

صفحة

- لوحة رقم ١٣ ، أحد معايد معين في بلاد الجوف ٢٦٥
- لوحة رقم ١٤ ، معبد الهمايد في مدينة مأرب ٢٦٦
- لوحة رقم ١٥ ، سد مأرب - الفتحة اليسرى منه ٢٦٧
- لوحة رقم ١٦ ، (أ) منظر عام لجزء من حفائر جبلة
(ب) السلم المؤدى إلى الجزء العلوى من القصر الكبير ٢٦٨
- في مدينة تخت جامشيد في إيران ٢٦٨
- خريطة الشرق القديم ٢٦٩

رقم الايـداع: ٥٠١٧ / ١٩٨٠

To: www.al-mostafa.com